

الربانيين والربانيات

وصية الأنبياء - كونوا ربانيين



قال الله تعالى

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ
وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا
عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا
رَبَّانِيًّا بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ
وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾

[سورة آل عمران آية: ٧٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١) ..

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (٢) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٣) .

أما بعد:

(١) سورة آل عمران: آية ١٠٢ .

(٢) سورة النساء: آية ١ .

(٣) سورة الأحزاب: آيتا ٧٠ - ٧١ .

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ،
وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة
في النار.

فإن الله تعالى خلق الخلق ليتوجهوا إليه بالعبادة والتوحيد في
رُبوبيته وأهليته وأسمائه وصفاته، وجعلَ منهمجهم واضحاً ليكونوا عباداً
كما أراد حقاً، ولقد أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين به وحده
ووصفهم بصفة عظيمة لا تكون إلا لهم فوصفهم **بالربانيين** في كتابه
الكريم فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ
وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ
تَدْرُسُونَ﴾.

فما أحوجنا اليوم إلى هذا الوصف العظيم والخلق الكريم **كُونُوا
رَبَّانِيِّينَ**؛ فالربانية هي أخلاق الإسلام، لأن الأخلاق الإسلامية
ربانية المصدر، وهي صالحة ومصلحة لجميع الناس في كلِّ زمان،
وفي أيِّ مكان، نظراً لما تتميز به من خصائص، فلا يطرأ عليها أي
تغيير أو تبديل بسبب تغير الظروف والأزمان؛ لأنها ليست نتاجاً

بشرياً، بل هي وَحْيٌ من الله تعالى لنبيه ﷺ .

وما أحوجنا اليوم إلى العلماء الربانيين، وإلى الدعاة الربانيين، وإلى فهم الربانية علماً وسلوكاً وحالاً، فالربانية هي طوق النجاة من هذه الفتنة التي نعيشها في زماننا والتي أخبر النبي ﷺ أن من أشراط الساعة ظهور الفتنة العظيمة التي يلتبس فيها الحق بالباطل فتزلزل الإيمان حتى يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً .

كلما ظهرت فتنة قال المؤمن: هذه مُهلكتي ثم تنكشف، ويظهر غيرها فيقول هذه هذه، ولا تزال الفتنة تظهر في الناس إلى أن تقوم الساعة، ونحن اليوم في زمن الشهوات والشبهات، ونحن والفتنة العاصفة، من تعرض لها أوشكت أن تهلكه ومن اقترب منها أوشكت بنيرانها أن تحرقه، ومن لامسها أو جربها، أوشكت أن تصبغ عليه صبغة السواد والظلمة نسأل الله عز وجل السلامة.

ألا وإن تعاقب الأحداث وتراذفها، وطلب بعضها بعضاً طلباً حثيثاً هو من سمات هذه الزمن الحاضر الذي بلغت فيه الحضارة

المادية أوجها، والغليان المعرفي والتَّقْنِي قَمَّتْه، ويخلقُ الله ما لا تعلمون.

إنها الدنيوية بفتنها في مواجهة الربانية، الدنيوية التي حصدت قلوب كثير من الناس فوقعت في هذه الفتن فعلينا إلى الاستباق الآمن من الوقوع في مثلها أو كما جاء في المثل العربي (**درهم وقاية خير من قنطار علاج**) أو بعبارة العصرين: **الوقاية خيرٌ من العلاج**، أو ما يُسمَّى بـ" **الآمن الوقائي** "، أو بالعبارة الشرعية الأصيلة: " **الدفع أولى من الرفع** "، فإن مما يتفق عليه العقلاء جميعاً أن منع وقوع الشيء المكروه خيرٌ وأولى من رفعه بعد وقوعه، وشريعتنا الغراء جاءت حاضّةً على المبادرة والمُسارعة بالأمر والدفاع للمكاره قبل أن تحلّ بالمرء والمجتمع.

فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿ **وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ** ﴾ [الزمر: ٥٤]، ومنه قوله سبحانه: ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطْنَ** ﴾ [الأنعام: ١٥١]؛ فهي عن القرب منها؛ لأن القرب سببٌ في الوقوع، وهذا دليلٌ على وجوب الوقاية.

وقد جاء في السنة المطهّرة ما يُؤكّد هذا المعنى صراحةً؛ حيث قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ أَحَدُهُمْ دِينَهُ بَعْرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا)) قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

هذا من شدة الفتن يصبح الإنسان مؤمناً ويمسي كافراً، والعياذ بالله تعالى.

يوم واحد يرتد عن الإسلام، يخرج من الدين، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً. نسأل الله تعالى العافية.

لماذا؟ ((يَبِيعُ أَحَدُهُمْ دِينَهُ بَعْرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا)) ولا تظن أن العرض من الدنيا هو المال، كل متاع الدنيا عرض، سواء مال، أو جاه أو رئاسة، أو نساء، أو غير ذلك، كل ما في الدنيا من متاع فإنه عرض، كما قال تعالى: ﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ ﴾ [النساء: ٩٤] فما في الدنيا كله عرض.

فالرسول ﷺ حينما يحضُّنا -هنا- على أن نبادر تلك الفتن بالأعمال الصالحة؛ إنما يحضُّنا على ذلك لنجعلَ بيننا وبين هذه الفتن وقايةً وحصناً حصيناً، تمنعنا هذه الأعمال الصالحة من أن نقعَ في مثل هذه الفتن المظلمة التي «يُصبحُ الرَّجُلُ مُؤمِنًا وَيُمسي كَافِرًا، أَوْ يُمسي مُؤمِنًا وَيُصبحُ كَافِرًا، يبيعُ دينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا.» المراد به أخذ الحيلة والوقاية و المبادرة برفع الخطر والتحرز منه قبل أن يقع، ومن ذلك ما ثبت في صحيح البخاري ومسلم رحمهما الله من قوله ﷺ في شأن الطاعون ((إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونِ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا)).

فإن مبدأ المثل العربي (درهم وقاية خير من قنطار علاج) أو "الوقاية خيرٌ من العلاج" في مواجهة الفتن مبدأً شاملٌ لكل شؤون الحياة، وإن من الخطأ الصريح: قصره على المجال الصحي فحسب؛ بل إنه يمتد إلى المجال الغذائي والعلمي والفكري والإعلامي والاقتصادي والسياسي على حدِّ سواء، وإن الجهد الذي يُبذل في الوقاية في ذلكم كله ينبغي أن يكون أسبق، وأن ينال اهتمام جميع الفئات في المجتمع بصورة أكبر مما يُبذل في

العلاج، وهنا مكنن شعور كل فرد مسلم وإدراكه للعواقب، والتوجس من المدلهمات والفتن المحدثة.

وإذا كانت الشريعة الغراء قد حصت على المبادرة بالأعمال؛ فإن هذا التحريض لم يكن قاصراً على جهةٍ دون أخرى؛ بل إنه يشمل الفرد والأسرة والعالم، والسياسي والمفكر، وأمثالهم ممن هم صورة المجتمع وتكوينه؛ إذ من الخطأ قصره على جهةٍ دون أخرى؛ كأن يقصر مثلاً على الراعي فقط دون الرعية، أو العلماء فحسب؛ كلا، فلهمة المجتمع، والشعور بالواجب تجاهه مهمة الجميع، والحرص على حمايته من أي داخلية فيه انتماءً إيجابياً يدل على الأمانة الحقة في سبيل الاجتماع على الحق والخير، والتعاون على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان؛ لئتم السير بسفينة المجتمع الماخرة في عباب البحر إلى بر الأمان بعد الخروج بها من ظلمات البحر اللجج الذي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب.

وإن الواقع الإسلامي دائماً في أشد الحاجة إلى جهود العلماء والدعاة الربانيين المخلصين كمرشدين ومستشارين. فتغورهم الدعوية في أشد الحاجة إليهم، حيث حانت الفرصة الحقيقية

لتأسيس جيل قرآني جديد مبني على العقيدة الصحيحة الخالية من البدع والخرافات، مع تصحيح المسالك والأعمال والتوجهات.

فالعلماء هم المحضن الحقيقي لتربية العامة والساسة الناجحين، وما زال الأئمة والعلماء في سائر قرون الإسلام يتعاهدون الخلفاء والسلاطين والملوك بنصحهم وتوجيههم وإنكارهم عليهم ما لا يسوغ لهم في الشرع؛ سرًّا إن كانت المصلحة في الإسرار، وجهراً إن كانت المصلحة في الإجهار.

ولو راجعنا التاريخ لعلمنا من هم العلماء الذين كانوا المحضن الحقيقي لتربية سلف هذه الأمة أمثال عظماء الرجال، من الصحابة الأطهار، فكانت تربيتهم تكمن في غرس الإيمان في قلوبهم وربطهم بالله تعالى وتوحيده وخلع كل مظاهر الجاهلية من شرك وعادات وأعراف كفرية؛ ليكونوا ربانيين فتربوا على يد المصطفى ﷺ، وأمثال عمر بن عبد العزيز، ونور الدين زنكي وصلاح الدين قاهر الصليبيين، وسيف الدين قطز قاهر التتار، وبيبرس ومحمد الفاتح وغيرهم من القادة العظام والساسة العباقرة

فكل هؤلاء تربوا في كنف العلماء الربانيين.

فرحم الله أولئك العلماء الربانيين العاملين، الأمرين بالمعروف
الناهين عن المنكر، رحمهم الله تعالى، لم يخافوا في الله لومة لائم، أو
جبروت حاكم. إنهم قوم شعروا بثقل الأمانة الملقاة على عواتقهم،
فشمروا لحملها، وأيقنوا بحفظ الله تعالى لهم وتأييده إياهم، فبدلوا
في سبيل إظهار دينه كل ما يملكون، ونصحوا للأمة حق النصح،
فلا عدت الأمة أمثالهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إن العلماء والدعاة الربانيين هم المصانع الحقيقية للأجيال
الناجحة المؤثرة في واقع أمتها وتاريخها، فهم حاملو لواء الجانب
التأسيسي، والاستشاري، ومن تحت عباءتهم ينشأ الجند المنفذون
في شتى المجالات ومنها الجانب السياسي، ونحن نرى الفاقة في
عيون شباب وشابات في أشد الحاجة لمن يعلم ويرشد ويربي، وكم
نسمع ونرى أنين المنابر والمساجد تشكو إلى الله تعالى قلة
الربانيين وانشغال المخلصين.

ونحن في زمن الفتن، وفي هذه الظلمة الحالكة للمآسي والظلم
يعيش الربانيون في نور. اللهم نور أبصارنا وبصائرنا، اللهم نور

قلوبنا وطريقنا إليك، وإن الربانيين يعيشون على بصيرة في نور، نور العلم ونور الجهاد ونور العزة ونور الصبر والصبر ضياء كما قال رسول ﷺ، ونور الدعاء ونور القرآن ونور الخشية ونور الدعوة. الربانيون يعيشون بهذه الأنوار، من أجل ذلك عقدت العزم على بيان هذا المعنى الجليل لقولة تعالى ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ﴾

لأن كُونُوا رَبَّانِيِّنَ هي أمر جاء في كتاب الله تعالى، وكل أمر في القرآن يقتضي الوجوب ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك، ويجب أن يكون كل مسلم رباني.

ولأن كُونُوا رَبَّانِيِّنَ هي التربية الوقائية الحقيقية في مواجهة هذه الفتن والمُدْهِمَات، وإن عدم الوعي التام بقيمة الوقاية من قبل العموم ومدى تقديرهم لحجم وطبيعة مُتَطَلِّبَاتِ الوقاية هُوَ سببُ تَحْمُلِ وقوع الشيء، ومن ثمَّ علاجه، وكلا الأمرين بُعدٌ عن الواقع وبرودٌ في التعامل مع المُتَغَيِّرَاتِ بما من شأنه دفعُ عجلة المُدْهِمَاتِ عن الوقوع، أو على أقل تقدير الإبطاء بها إلى حين وضع السياج الآمن الذي يحمي من خطر وقوعها إن هي وقعت؛ فضلاً عن أن الشعور بوجود عصا سحرية لديها الاستعداد لدفع كل شيء إنما هو شعورٌ مُتَوَلِّدٌ من لا شعور؛ لأن الفائدة من الوقاية هي التطلُّع إلى وضع أفضل، أو التخلُّص من وضع أسوأ؛

لأن أي أحدٍ منا لن يستطيع إصلاح عجلة الطائرة بعد إقلاعها، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وإن أي أمةٍ يكون الواقي والدافع فيها إنما هم بنوها من أفرادها وعلمائها ودعاتها إلى قاداتها، الذين تحققت فيهم معاني الربانية وكانوا ربانيين علماء وسلوكاً وحالاً ، ويكون كل واحدٍ منهم آخذاً بحق الكل، لا يقصد مقصداً بعكس مقصد السواد الأعظم، ولا غايةً تميلُ به عن غايتهم، فهي الأمة التي علا فيها التكامل وحُسن الانتماء وتحقيق المصلحة المشتركة التي يسعى بذمتهم فيها أديانهم فحققوا قول الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥].

فهل حققنا قول الله تعالى ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ﴾؟

فما هو معنى الرباني والربانية عند أهل اللغة والتفسير؟

وماذا نفهم من هذه الآية؟ وما هي علاقة الربانية بالأخلاق؟

وما أسباب نزول آية كونوا ربانيين؟

وما هي الآيات والسور التي جاءت فيها كلمة ربانيين؟
 وما معنى الربانية؟ وماذا نفهم من قوله ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ﴾؟
 وما هي صفات الربانيين والربانيات؟ ومن هم العلماء الربانيين؟
 وما هي نماذج العلماء والدعاة الربانيين والربانيات؟
 وما هو حكم دخول العلماء الربانيين على السلاطين؟
 وكيف أكون عبداً ربانياً وأمة ربانية؟، وما هي الوسائل المعينة
 للوصول إلى درجة الربانية؟ وما هي ثمار الربانية؟، وما المعوقات في
 طريق الوصول إلى الربانية؟، وكيف نتعرف على العلماء الربانيين؟
 فهذه أسئلة سوف أبحث عن إجابتها، وسيأتي تفصيل ذلك بمشيئة
 الله تعالى في السطور القادمة مع خاتمة لهذا البحث فيها قواعد
 ونتائج مهمة.

وأهم شيء يجب على المسلم أن يُعنى به إنما هو: تصحيح
 عقيدته، ثم أن يضمَّ إلى ذلك: الإكثار من العمل الصالح؛ لأنَّ
 الإيمان ليس هو الاعتقاد الصالح فقط، بل من الإيمان أيضاً هو:
 العمل الصالح.

والله تعالى أسأل أن يوفقني إلى الإجابة عن هذه الأسئلة في
 بحثي هذا والتي تتعلق بقول الله تعالى ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ﴾،
 وآمل أن تكون إجابتي محاولة اجتهادية توفيقية وثيقية نافعة لفهم

الربانية التي وصى بها رَسُولُ اللَّهِ -عليهم السلام- أتباعهم، وأن يوفقني إلى الإخلاص فيما أدعو إليه، وأن يدخر عملي هذا عنده إلى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وفي هذا البحث قد يلمس القارئ الكريم أنني قدمت بعض الأسئلة ولم أجب عليها، وأتني فتحت أبواباً قد تتطلب المزيد من الجهد لتقصي معرفة الربانية والعلماء الربانيين في زماننا هذا.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الرِّشَادَ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَالْإِعْتِقَادِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَدَعَاءٍ لَا يَسْمَعُ وَنَفْسٍ لَا تَشْبَعُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعِ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ وَبَارَكَ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

جمع وترتيب

أبو أيمن

أحمد بن محمود بن إبراهيم الديب

المشرف التربوي بمدارس دار الذكر (سابقاً)

عاشوراء ١٤٤٠ هـ

١ - معنى الرباني والربانية:

أقوال أهل اللغة:

(رَبَّانِيُونَ) : اسم

. رَبَّانِيُونَ : جمع رَبَّانِيٍّ

(رَبِّبٌ) : اسم

. الرَّبِّبُ : الماء الكثير

. الرَّبِّبُ : العذب

(رَبَّبَ) : فعل

. رَبَّبْتُ ، أَرَبَّبْتُ ، رَبَّبْتُ ، مصدر تَرْبِيبٍ

. رَبَّبَ الْوَالِدُ : تَعَهَّدَهُ بِمَا يُغَدِّيه ، رَبَّبَ

. رَبَّبَ النَّعْمَةَ : حَفِظَهَا وَنَمَّأَهَا ، رَبَّبَهَا

. رَبَّبَ الثَّمَرَ : عَمَلَهُ بِالرُّبِّ

(رَبَّانِيٌّ) : اسم

. اسم منسوب إلى رَبِّ

- الرَّبَّانِيُّ : الكاملُ العِلْمُ والعَمَلُ
- الحقُّ الرَّبَّانِيُّ : المبدأ القائل بأن الملوك يستمدون الحقَّ في الحكم مباشرة من الله ، وأنهم عرضة للمحاسبة من الله وحده

(رَبَانِيَّة) : اسم

- رَبَانِيَّة : جمع رَبَّانِيٍّ

(رَبَانِيَّة) : اسم

- رَبَانِيَّة : جمع رُبَّان

(رُبَّانِيٌّ) : اسم

- الرُّبَّانِيُّ : الرُّبَّان

(رَبِّب) : اسم

- رَبِّب : جمع رُبَّة

• وفي معجم: القاموس المحيط

• كونوا رَبَّانِيَّين

• علماء مُعَلِّمين فقهاء في الدِّين

• سورة: آل عمران، آية رقم: ٧٩

وفي معجم: كلمات القران - انظر التحليل

والتفسير المفصل

رَبَّانِيَّة

رَبَّانِيَّة: -

١ - اسم مؤنث منسوب إلى رَبِّ: على غير قياس.

٢ - مصدر صناعي من رَبِّ: تَأَلَّه وَحُسُنُ عِبَادَةِ اللَّهِ، معرفة

بالله: - فيه رَبَّانِيَّة.

وفي معجم: المعجم الوسيط

رَبَّانِيٌّ

جمع : ون . [ر ب ب] . (مَنْسُوبٌ إِلَى الرَّبِّ) . - :

عَاشَ رَبَّانِيًّا طَوَالَ حَيَاتِهِ - : الْمُتَصَوِّفُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ

وَالْعَارِفُ بِهِ ، وَالْمُتَأَلِّهِ فِيهِ ، وَهِيَ صِفَةٌ تُطْلَقُ عَلَى الْحَبْرِ

الْيَهُودِيِّ .

وفي معجم: الغني

رَبَّانِيٌّ

رَبَّانِيٌّ: -

- ١ - اسم منسوب إلى رَبِّ : على غير قياس :- إلهام ربّانيّ، - حكمة ربّانيّة :-
- ٢ - مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى بِعِلْمٍ وَعَمَلٍ كَامِلَيْنِ :- { لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ } .
- المعجم: اللغة العربية المعاصر

ربّانيّ

- رباني
- ١ - رباني منسوب إلى الرب . ٢ - رباني : متأله . ٣ - رباني : حبر .
- المعجم: الرائد
- رباني
- رباني
- ١ - رئيس الملاحين، جمع: ربابنة وربابين

وقالوا:

(الربّانيّ): العالم، في قول كلهم.
 أخبرني العروضيّ، عن الأزهري، قال: أخبرني المنذري، عن أبي طالب، قال: الربّانيّ: العالم. والجماعة: الربّانيّون. وقال أبو العباس: الربّانيّون: العلماء.

وقال سيويه: زادوا ألفاً ونوناً في (الرَّبَّاني)، إذا أرادوا تخصيصاً بعلم لربِّ، دون غيره من العلوم، وهذا كما قالوا: (شَعْراني)، و (حَيَّاني)، و (رَقْباني): إذا خُصَّ بكثرة الشَّعر، وطول اللِّحْيَة، وغِلظ الرَّقْبَة. فإذا نسبوا إلى الشَّعر، قالوا: (شَعْرِي)، وإلى الرَّقْبَة: (رَقْبِي)، وإلى اللِّحْيَة: (لِحْيِي).

وقال ابنُ الأعرابي: الرباني: العالمُ المُعَلِّم، الذي يَغْدُوا الناسَ بصِغار العلوم قبل كبارها.

جاء في تهذيب اللغة: اختلف أهل اللُّغة حول الأصل الاشتقاقيِّ للربَّانيَّة، ابتداءً من ظنِّ بعضهم أنَّ الكلمة ليست عربيَّةً أصلاً، "قال أبو عبيد: وأحسب الكلمة ليست بعربية إنما هي عبرانية أو سُريانية، وذلك أنَّ أبا عبيدة زعم أنَّ العرب لا تعرفُ الربَّانيين، قال أبو عبيد: وإنما عرفها الفقهاءُ وأهل العلم، وكذلك قال شمر"، وهو بعيد.

وأكثر آراء اللغويين في أصل الرّبّانية تذهب إلى أنه مأخوذ من الرّبُّ بمعنى الخالق الرازق المدبر أو من الرب بمعنى الإصلاح وبين الأصليين صلة وثيقة، قال أبو جعفر الطبري في تفسيره: "وأولى الأقوال عندي بالصواب في **"الربانيين"** أنهم جمع **"ربّانيّ"**، وأنّ **"الربّانيّ"** المنسوب إلى **"الرّبّان"**، الذي يربُّ الناس، وهو الذي يُصلح أمورهم، و **"يربُّها"**، ويقوم بها، ومنه قول علقمة بن عبدة:

وَكُنْتُ امْرَأً أَفْضَتْ إِلَيْكَ رَبَّاتِي

وَقَبْلَكَ رَبَّتِي، فَضَعْتُ، رُبُوبُ

يعني بقوله: **"رَبَّتِي"** ولي أمري والقيام به قبلك من يربه ويصلحه، فلم يُصلحوه، ولكنهم أضاعوني فضعتُ. يقال منه: **"رَبَّ أمري فلان"**، فهو يُرَبُّه رَبًّا، وهو رَابُّه. فإذا أريد به المبالغة في مدحه قيل: **"هو ربّان"**، كما يقال: **"هو نعلان"** من قولهم: **"نَعَسَ يَنْعَسُ"**.

وقال الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه: **"بلغني عن أبي بكر بن الأنباري، عن النحويين، أن الربانيين، منسوبون إلى الرب، وأن الألف والنون زيدتا للمبالغة في النسب، كما تقول: لحيانيُّ جمائيُّ، إذا كان عظيم اللحية والجمّة"**.

"قال بعضهم: وإنما قيل للعلماء ربانيون، لأنهم يرُبُّون العلم، أي يقومون به؛ ومنه الحديث: (ألك نعمة ترُبُّها)، ويُسمَّى ابن المرأة: ربيب؛ لأنه يقوم بأمره ويملك عليه تدبيره، قال شمر: ويُقال لرئيس الملاحين: رَبَّانِيٌّ..."

وقال سيبويه في تهذيب اللغة: زادوا ألفاً ونوناً في "الرَّبَّاني" إذا أرادوا تخصيصاً بعلم الرّب دون غيره من العلوم. قال: وهذا كما قالوا: رجل شعرائيُّ، ولحيائيُّ، ورقابانيُّ، إذا خُصَّ بكثرة الشعر، وطول اللحية، وغلظ الرقبة، والرَّبِّيُّ؛ منسوب إلى "الرّبِّ"، والرَّبَّانيُّ، الموصوف بعلم الرّب".

وقال الزَّبيدي في تاج العروس: "والرَّبَّانِيُّ: العالمُ المُعلِّمُ الذي يَغْذُو النَّاسَ بِصِغَارِ العُلُومِ قَبْلَ كِبَارِهَا، ... والرَّبَّانِيُّ: العالمُ الرَّاسِخُ فِي العِلْمِ وَالدِّينِ، أَوْ العَالِي الدَّرَجَةِ فِي العِلْمِ، وَقِيلَ: الرَّبَّانِيُّ: (المُتَأَلِّهُ العَارِفُ بِاللَّهِ تَعَالَى).

وبذلك تبين أن دلالة أصل الاشتقاق اللغوي واحدة، وأما الإطلاقات اللغوية أو المعاني التي استخدمت فيها الكلمة بحسب سياقاتها الواردة في القرآن فهي:

- ١- العالم.
- ٢- الحكيم.
- ٣- الفقيه.
- ٤- العامل بعلمه.
- ٥- المصلح لغيره.
- ٦- المعلم للناس.
- ٧- المرابي.

• أقوال أهل التفسير:

• أورد الطبري عدة أقوال في تعريف الربانيين فقال: " عن أبي رزين: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ﴾، حكما علماء.

وعن الحسن في قوله: "كونوا ربانيين"، قال: كونوا فقهاء علماء. عن السدي في قوله: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ﴾، أما "الربانيون"، فالحكماء الفقهاء، وعن ابن وهب قال، سمعت ابن زيد يقول في قوله: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ﴾، قال: الربانيون: الذين يربُّون الناس، ثم قال الطبري فـ "الربانيون" إذاً، هم عمادُ الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا.

ولذلك قال مجاهد: "وهم فوق الأحرار"، لأن "الأحرار" هم العلماء، و "الرباني" الجامعُ إلى العلم والفقه، البصرَ بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دُنْيَاهُمْ ودينهم.

((تفسير الطبري ٥٤١/٦)) .

قال الرازي في تعريف الربانيين: " أن يكون الداعي له إلى جميع الأفعال طلب مرضاة الله، والصارف له عن كل الأفعال الهرب عن عقاب الله".

((تفسير الرازي ٤/٢٧٤)) .

وقال ابن عاشور: " كونوا منسوبين للرب، وهو الله تعالى، لأن النسب إلى الشيء إنما يكون لمزيد اختصاص المنسوب بالمنسوب إليه. ومعنى أن يكونوا مخلصين لله دون غيره.

((تفسير التحرير والتنوير ٣/١٤٠)) .

وقال القرطبي: " قال الضحاك في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾ قال: حق على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيها. وذكر ابن أبي الحواري قال: أتينا فضيل بن عياض سنة خمس وثمانين ومائة ونحن جماعة؛ فوقفنا على الباب فلم يأذن لنا بالدخول فقال بعض القوم: إن كان خارجاً لشيء فسيخرج لتلاوة القرآن؛ فأمرنا قارئاً فقراً فاطلع علينا من كوة؛ فقلنا: السلام عليك ورحمة الله؛ فقال: وعليكم السلام؛ فقلنا كيف أنت يا أبا علي وكيف حالك؟ فقال: أنا من

الله في عافية ومنكم في أذى ، وإن ما أنتم فيه حدث في الإسلام
فإننا لله وإننا إليه راجعون ما هكذا كنا نطلب العلم ولكننا كنا نأتي
المشيخة فلا نرى أنفسنا أهلاً للجلوس معهم فنجلس ؛ فإذا مر
الحديث سألناهم إعادته وقيدناه وأنتم تطلبون العلم بالجهل ، وقد
ضيعتم كتاب الله ، ولو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لما
تريدون ، قال: قلنا قد تعلمنا القرآن قال: إن في تعلمكم القرآن
شغلا لأعماركم وأعمار أولادكم ، قلنا : كيف يا أبا علي قال :
لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه ومحكمه من متشابهه ،
وناسخه من منسوخه إذا عرفتم ذلك استغنيتم عن كلام فضيل
وابن عيينة ثم قال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم
بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ
قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ ﴾ .

((تفسير القرطبي ٢٢/١)) .

وقال التستري في تفسيره: " قال محمد بن سوار: الرباني الذي
لا يختار على ربه أحداً سواه، وهو اسم مشتق من الربوبية. وقال

سهل: الربانيون هم العالمون في الدرجة من العلم بالعلم. كما قال محمد بن الحنفية، لما مات عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: لقد مات هذا اليوم رباني هذه الأمة وإنما نسب إلى الرب لأنه عالم من علمه. كما قال: ﴿مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأِي الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ﴾ [التحریم: ٣]، فنسبه إلى النبوة بما علمه الله عزَّ وجلَّ.
 ((تفسير التستري ٨١/١))

فهو العالم الرباني الداعي إلى الله تعالى وعمل صالحاً قال عبد الرزاق عن معمر عن الحسن البصري أنه تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]. فقال هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحاً في إجابته وقال إنني من المسلمين هذا خليفة الله تعالى .



٢ - كيف نفهم هذه الآية:

قال الله تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [سورة آل عمران ٧٩] .

فماذا نفهم من قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ﴾؟

قبل أن نفهم معنى هذه الكلمات المباركات أقف مع كلمات هذه الآية المباركة لتتعرف ولنفهم معناها:

فعلينا أن نعلم أن القرآن الكريم منهاج حياة، ومنهاج للعقل ليعمل في عمارة الأرض..؛ فكما أن الغاية من إنزال القرآن الكريم هداية الناس إلى الطريق المستقيم؛ باعتباره متن الرسالة التي أرسلها الله تعالى إلى خلقه، ومشعل الحق لبيان الحلال والحرام، فإنه كذلك نهج صناعة النفوس، والأمم، وبناء الحضارات، كلما ازداد الإنسان تأملاً فيه، ازداد علماً وعملاً وبصيرة.

فقوله : ﴿ مَا كَانَ ﴾ أي : ما ينبغي ولا يستقيم ﴿ لِبَشَرٍ ﴾ أي : جميع بني آدم ولا واحد للفظ بشر كالقوم والرهط، بيان لافتراءهم على الأنبياء إثر بيان افتراءهم على الله، وإنما قيل ﴿ لِبَشَرٍ ﴾ إشعاراً بعلّة الحكم فإن البشرية منافية للأمر الذي تقوّلوه عليه ﴿ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ ﴾ الناطق بالحق ﴿ وَالْحُكْمَ ﴾ يعني : الفهم والعلم ، وقيل : هو إمضاء الحكم من الله تعالى، والأول أولى ﴿ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ يعني : المنزلة الرفيعة ﴿ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي : هذه المقالة وهو متصف بتلك الصفة وفيه بيان من الله سبحانه لعباده أن النصارى افتروا على عيسى ما لا يصح عنه، ولا ينبغي أن يقوله.

﴿ وَلَكِنْ ﴾ يقول ﴿ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ ﴾

فنسب كلمة "ربّاني" إلى الرّب؛ يعني أنّ يكون المرء شديد القرب من الله تعالى، يتلقّى منه منهجه في هذه الحياة، ويعتمد عليه في سيره، وأنّ إليه مرجعه ومنقلبه.

وقيل الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره، فكأنه يقتدي بالرب سبحانه في تيسير الأمور، وقال المبرد الربانيون

أرباب العلم واحدهم رباني، من قوله ربه يربه فهو ربان إذا دبره وأصلحه، والياء للنسب، فمعنى الرباني العالم بدين الرب القوي التمسك بطاعة الله، وقيل العالم الحكيم أي كونوا ربانيين بسب كونكم عالمين فإن حصول العلم للإنسان والدراسة له يتسبب عنهما الربانية التي هي التعليم للعلم وقوة التمسك بطاعة الله تعالى، قال ابن عباس رضي الله عنهما معناه: حكماء علماء.

والرَّبَّانِيُّ: هو العَالِمُ الرَّاسِخُ في العِلْمِ والدِّينِ، أو الذي يطلبُ بعلمه وجه الله تعالى (١).

ولما مات ابن عباس قال محمد بن الحنفية اليوم مات رباني هذه الأمة، وقيل هو ولاة الأمر والعلماء.

والعبد الرباني في اللغة هو العبد المنسوب إلى ربه، لشدة عبادته وعلمه وعمله بما يعلم، ويأتي العبد الرباني بمعنى المستمد للحق في حكمه من ربه وحده، كما أنهم عبدوا الله تعالى بالعلم

(١) ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت ٦٠٦ هـ / ١١٨٩ م) (النهاية في غريب الأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، بيروت، المكتبة العلمية، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م، [١-٥]، ٢، باب الرأ مع الباء، ٤٥٠).

والعمل الكاملين، ولو تأملت في هذه الآية المحكمة السبك لوجدت نفسك تغوص في عجائب فصاحة القرآن الكريم وقوة نظمه.

وإنَّ تأويل "الربانية" هو "عكس الرهبانية"؛ فالرباني لا ينزلُ على نفسه في بيته ذاكرًا، مُسبحًا، تاليًا، قائمًا، عابدًا فحسب، أو مُرتكناً لنفس مهزومة غير قادرة على إحداث التغيير.. إنّما الرباني الذي أمرنا أن نكونه، هو المخلص في سره وعلنه، وهو ذو همة عالية، ونفس مُراقبة، مستبشرة دومًا بالخير في الدنيا والآخرة، وهي رسالة الله تعالى التي جاءت بها كل الشرائع الإلهية، وتفرضها اليوم طبيعة الحياة، وحقيقة ديننا العظيم أن نكون ربانيين بمعنى الكلمة ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ .

﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾ بالتخفيف والتشديد، قال مكي التشديد أبلغ لأن العالم قد يكون عالمًا غير معلّم فالتشديد يدل على العلم والتعليم، والتخفيف إنما يدل على العلم فقط. وهذه القراءة التي نقرأ بها، هي قراءة ابن عامر، وبها قرأ الكوفيون الثلاثة ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ﴾ .

أي: بما يكون على أيديكم من التعليم، وذلك يتضمن أن يكون عالماً بما يُعَلِّم، ولذلك فإن قراءة الباقيين من السبعة ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: بعلمكم بالكتاب، وهو الكتاب المنزل، هذا القرآن، والقراءة الأولى تتضمن هذا المعنى؛ لأنه كما سبق إذا كانوا يُعَلِّمونه فقد عَلموه ولا بد، فهي أوفى، وأشمل.

والحاصل إن من قرأ بالتشديد لزمه أن يحمل الرباني على أمر زائد على العلم والتعليم، هو أن يكون مع ذلك مخلصاً أو حكيماً أو حليماً حتى تظهر السببية، ومن قرأ بالتخفيف جاز له أن يحمل الرباني على العالم الذي يُعَلِّم الناس، فيكون المعنى كونوا مُعلمين بسبب كونكم علماء، وبسبب كونكم تدرسون العلم.

وفي هذه الآية أعظم باعث لمن عَلم عليه أن يعمل بعلمه، وإن من أعظم العمل بالعلم تعليمه والإخلاص لله سبحانه، والدراسة مذاكرة العلم والفقه، فدلّت الآية على أنّ العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانياً فمن اشتغل بها لا لهذا المقصود فقد ضاع علمه وخاب سعيه.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي : بسبب المداومة على قراءته، مدارس ألفاظه، ومعانيه، وما تضمنه من الأحكام، ولذلك فسره بعض السلف بالفقه، وهذا المعنى، وإن أنكره كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير - رحمه الله - إلا أنه له وجه غير مستبعد - والله أعلم - وذلك أن هذه المدارس تكون مدارس الألفاظ، وتكون أيضاً مدارس المعاني، وإنما يستنبط الفقه، ويستخرج من القرآن.

ومادة (درس) تستلزم التمكّن من المفعول؛ فلذلك صار درس الكتاب بمعنى فهمه وإتقانه؛ ولذلك عطف في هذه الآية: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ على ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾.

وانظروا كيف جاءت ألفاظ القرآن في هذه الآية المباركة إذ حملت أعظم المعاني التي تعجز عنها ألسنة البشر إذ كان بمقدوره أن يتمم هذه الآية من جنس الجزء السابق فيقول **ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا عباداً لله**. ولكنها روعة النظم والتعبير فاختر سبحانه وتعالى هذا التعبير ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ﴾ لتحمل معاني عظيمه وتوجيهات جليلة على كل مسلم أن يتدبرها ويعمل بها لينضم إلى سلك النبي والصديقين

والشهداء فيكون ربانياً.
وهي تشيرُ إلى أنه ينبغي للإنسان أن يكون مُعلِّماً ربانياً؛
لقوله: **وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ**، ومَن كان معلِّماً لا ربانياً فعلمه قاصر
جدًّا؛ لأنَّ فائدة العلم وثمرته هي العملُ والتأدُّب بآداب العلم.

وقيل الرباني العالم الذي يعمل بعلمه، وقيل العالم بالحلال
والحرام والأمر والنهي، وقيل الجامع بين علم البصيرة والسياسة،
وهو الذي يبني نفسه ويبني غيره، يعمل بما عِلْم، ويُعلِّم ما تعلَّم،
يشق لقومه الطريق نحو الفلاح والنجاح، يُربِّيهم، ويعلِّمهم الخير،
يدعوهم لما فيه مصلحتهم، سعيٌّ دائمٌ لا يعرف الكلل نحو
الكمال والخير وعمارة الأرض.



٣- علاقة الربانية بالأخلاق الإسلامية (١).

الأخلاق في الإسلام هي عبارة عن مجموعة المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني، التي جاءت في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، جاءت لتنظيم حياة الإنسان، وتحديد علاقته بغيره من مخلوقات الله تعالى في كونه على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه، وهي العبودية لله تعالى قال الله عز وجل: **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** [الذاريات: ٥٣]، والأخلاق الإسلامية مصدرها كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، ولا مدخل فيها للآراء البشرية، أو النظم الوضعية، أو الأفكار الفلسفية فهي ربانية المصدر.

ولذا اتسمت الأخلاق الإسلامية بسمة الخلود والصدق والصحة.

(١) جاء في القاموس المحيط تعريف الأخلاق فقال: الأخلاق جمع خلق، والخلق -بضم اللام وسكونها- هو الدين والطبع والسجية والمروءة، وحقيقته أن صورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها. عرّف الجرجاني الخلق بأنه: (عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كان الصادر عنها الأفعال الحسنة كانت الهيئة خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي مصدر ذلك خلقًا سيئًا).

الأخلاق الإسلامية تجعل الإنسان مسؤولاً عما يصدر منه في كل جوانب الحياة، سواء كانت هذه المسؤولية **مسؤولية شخصية**، أم **مسؤولية جماعية**، ولا تجعله اتكالياً لا يأبه بما يدور حوله من أشياء، وهذه خاصية من خصائص أخلاقنا انفردت بها الشريعة الإسلامية الغراء.

الربانية تراعي المسؤولية الشخصية:

وأعني بالمسؤولية الشخصية: أن كل إنسان مسؤول عما يصدر منه عن نفسه إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر، ومن هنا، تأتي أهمية هذا الأمر الإلهي ﴿كُونُوا رَبَّانِينَ﴾، الذي يمثل عمق بناء شخصية الإنسان المسلم، المتخلّق بأخلاق الله تعالى؛ من رحمةٍ وتسامحٍ وقوةٍ وصلابةٍ وعزيمةٍ، وهي جميعها مضامين أسماء الله الحسنى وصفاته العُليا كمعين لا ينضب فالربانية تبني أخلاق المسلم وتدعوننا إلى الأخلاق الإسلامية، فالإسلام لا يضع أجر من أحسن عملاً، فكل ما يصدر من الإنسان يكافئ عليه، وقد بين القرآن الكريم ذلك في أكثر من موضع، يقول سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ
الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا
حِوَلًا" [آكف: ١٠٧]، بل يكافئ الإنسان على مثقال
الذرة، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا
يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧].

ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى
وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وفي هذا الصدد يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا
يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [النساء: ١١١].

ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ
كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

ويقول الله تعالى: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:
٢١].

فهذه الآيات الكريمة وغيرها تبين لنا مدى المسؤولية التي تقع على عاتق الإنسان عما يصدر منه.

فأخلاقنا الإسلامية لا تكفي بالظاهر من الأعمال، ولا تحكم عليه بالخير والشر بمقتضى الظاهر فقط، بل يمتد الحكم ليشمل النوايا والمقاصد، وهي أمور باطنية، فالعبرة إذاً بالنية، فإن الإسلام يكافئ على النيات وعلى مجرد الهم بالعمل الإيجابي، ونجد ذلك في أكثر من حديث، يقول - ﷺ : ((تَمَّا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ)). متفق عليه.

وقال ﷺ : ((إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيَّاتِي أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ)). [رواه مسلم].

وقوله ﷺ: **فِيمَا يَرَوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ: ((إِنْ أَلَّفَ اللَّهُ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً)).** [رواه البخاري].

الإنسان المسلم يقاس بأخلاقه:

الربانية تدعونا إلى الأخلاق الحسنة التي هي أحد مقومات شخصية المسلم ، ف(الإنسان جسد وروح، ظاهر وباطن، والأخلاق الإسلامية تمثل صورة الإنسان الباطنة، والتي محلها القلب، وهذه الصورة الباطنة هي قوام شخصية الإنسان المسلم، فالإنسان لا يقاس بطوله وعرضه، أو لونه وجماله، أو فقره وغناه، وإنما بأخلاقه وأعماله المعبرة عن هذه الأخلاق، من أجل ذلك وضع الإسلام منهجاً في التعامل مع الإيجابيات والسلبيات وهو المكافأة على الحسنات والأعمال الحسنة، والمتأمل كذلك في السنة المطهرة يجد نفس المنهج في مكافأة الإنسان على كل أمر

إيجابي يقوم به، سواء قولاً أو فعلاً ، يقول رسول الله ﷺ : ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ)) . رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وهذا ما بينه رسول الله ﷺ أهمية وخطورة الكلمة التي تصدر من الإنسان في قوله ﷺ: ((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يُلْقِي لَهَا بِأَلَّا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُلْقِي لَهَا بِأَلَّا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ ...)) [رواه البخاري].

فهذا توجيه من النبي ﷺ لكل مسلم ومسلمة: قبل أن تُخرج الكلمة من فيك، أعط نفسك فرصة للتفكير فيما تقول، هل ما ستقوله يرضي الله تعالى أم يغضبه؟ هل تكون عاقبته ما ستقوله خيراً أم شراً؟ وطالما لم تخرج الكلمة فأنت مالكتها، فإذا خرجت الكلمة كنت أسيرها، وإذا كان هذا في الكلام ففي سائر التصرفات والأعمال من باب أولى.

الربانية تراعي المسؤولية الجماعية:

وأعني بالمسؤولية العامة (الجماعية): تلك المسؤولية التي تراعي الصالح العام للناس، فلا يكون الرجل إمعة متكاسلاً... أو سلبياً بل عليه أن يأمر بالمعروف، وأن ينهى عن المنكر؛ فكما وضع الإسلام منهجاً في التعامل مع الإيجابيات، وضع - كذلك - منهجاً في التعامل مع السلبيات والمنكرات؛ لأن إنكار المنكرات والقضاء على السلبيات واجب شرعي، ولكن إنكار المنكر والتعامل مع السلبيات المحيطة بنا يحتاج إلى فقه يسميه العلماء: فقه التعامل مع المنكرات والسلبيات، هذا الفقه قد أجلى معالمه علماؤنا الذين تأسوا برسولنا ﷺ، وعملا بقوله ﷺ: ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ...)) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

يقول ابن القيم رحمه الله في كتابه إعلام الموقعين: "إن النبي ﷺ شرع لأُمَّته إيجاب إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله؛ فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله؛ فإنه لا يسوغ إنكاره وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله"

وقال ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين: وإن إنكار المنكر

أربع درجات:

الأولى أن يزول ويخلفه ضده.

الثانية أن يقل وإن لم يزل بجملته.

الثالثة أن يخلفه ما هو مثله.

الرابعة أن يخلفه ما هو شر منه.

فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد والرابعة محرمة."

أثر التهاون في التعامل مع السلبيات:

فمن تهاون في التعامل مع السلبيات فإنها ستؤدي حتما إلى زيادتها مما يلحق الضرر بالمجتمع، فالسلبية لا تضر صاحبها فقط وإنما ضررها على العامة، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وقال ﷺ في حديث السفينة: ((مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا؛ كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ

مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ نَجَّوْا وَنَجَّوْا جَمِيعًا)) [رواه البخاري].

وفي ذلك دلالة على أن الناس إن منعوا الفاسق عن فسقه، نجا ونجوا معه، وإن تركوه يفعل المعصية ولم يردعوه، نزل بهم عذاب الله تعالى وهلكوا جميعاً، وهذا الحديث الشريف يُقرر سنة من سنن الله سبحانه وتعالى في الكون، وأصلاً من الأصول العظيمة، وهو تكافل أفراد الأمة وتضامنهم، وتعاونهم في سبيل تثبيت دعائم الحق والخير والفضائل، والقيام على حراسة هذه الأصول والقضاء على أهل الباطل والشُرور والردائل، وإلا فلا قيام لحق، ولا استقرار لفضيلة، ولا دوام لعزة وسلطان.

ومثل أفراد المجتمع برُكَّاب السفينة، وربط حياتهم ببقائها، وهلاكهم بهلاكها؛ ولهذا من التأثير النفسي ما له في الحفاظ عليها، والتضحية بكل شيء في سبيلها، ومن ذا الذي لا يرغب في الحياة ولا يكره الهلاك؟! فكما أن ركاب السفينة يحرصون على سلامتها؛ لارتباط حياتهم بحياتها وسيرها؛ فكذلك أفراد المجتمع يجب أن يحرصوا على مجتمعهم حرصهم على حياتهم .

الأخلاق ترتبط بالعبادة:

الأخلاق الحسنة التي يتحلى بها المسلم هي امتثال لأمر الله تعالى ورسوله ، والأخلاق الحسنة أحد مقومات شخصية المسلم، لأن الأخلاق في الإسلام ترتبط بالعبادة ارتباطاً وثيقاً جداً، لذا تجد كثيراً ما يربط الله عز وجل بين الإيمان والعمل الصالح، الذي تعدُّ الأخلاق الحسنة أحد أركانه، فالعبادة دون خُلُق، شجرة لا ظل لها ولا ثمرة، أما عن ارتباط الأخلاق بالشرعية، فإن الشريعة منها عبادات، ومنها معاملات، والعبادات تثمر الأخلاق الحسنة ولا بد، إذا ما أقامها المسلم على الوجه الأكمل، لذا بين لنا الله تعالى أثر العبادات على الأخلاق فقال تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ، وأما صلة الأخلاق بالمعاملات، فإنَّ المعاملات كلّها قائمة على الأخلاق الحسنة في أقوال المسلم وأفعاله، والمتأمل لتعاليم الإسلام يرى هذا واضحاً جلياً.

الربانية تنهى عن الأخلاق المذمومة:

وكما دعت الربانية إلى الأخلاق الحسنة كذلك نهت عن الأخلاق المذمومة وحذرت منها، وجاء ذلك واضحاً جلياً في

سورة الحجرات التي رسمت أروع صورة للمجتمع المسلم في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءِ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١١-١٢].

الأخلاق الربانية من أسباب بقاء الدول وتفوقها وغلبتها:

إن روعة وجمال الأخلاق الربانية التي أرشدت إليها الشريعة الإسلامية، تظهر جليلة فيما اشتملت عليه من التوفيق العجيب بين المطالب المختلفة للفرد من جهة، وللجماعة من جهة أخرى، وتظهر أيضاً فيما تحققه من سعادة على الأفراد والمجتمعات في الحياة الدنيا والآخرة، فمن الواضح أن أسس الأخلاق الإسلامية لم تهمل ابتغاء سعادة الفرد الذي يمارس فضائل الأخلاق ويجتنب

رذائلها، ولم تحمل ابتغاء سعادة الجماعة التي تتعامل فيما بينها بفضائل الأخلاق مبتعدة عن رذائلها سواء كانوا مؤمنين بالله تعالى أو كافرين، أخلصوا له النية أو لم يخلصوا، **فالدولة التي يسود فيها خلق العدل ينصرها الله تعالى وإن كانت كافرة**، لأن عاقبة العدل كريمة، **فهي مقدمة على الدولة التي يسود فيها الظلم وإن كانت مؤمنة**، لأن عاقبة الظلم وخيمة، ولا شك أن إقامة العدل وأداء الحقوق لأهلها من أسباب بقاء الدول وتفوقها وغلبتها، وهذا ما أخبر به شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في الفتاوى قال شيخ الإسلام ابن تيمية في " الفتاوى " في " رسالة في الحسبة " ما نصه :

فَإِنَّ النَّاسَ لَمْ يَتَنَازَعُوا فِي أَنَّ عَاقِبَةَ الظُّلْمِ وَخِيْمَةٌ وَعَاقِبَةُ العَدْلِ كَرِيْمَةٌ وَلِهَذَا يُرَوَى: " **اللَّهُ يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ العَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً وَلَا يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُؤْمِنَةً** . "

وقال الإمام الذهبي في " السير " (٥٨/٦): قُلْتُ: فَرِحْنَا بِمَصِيرِ الأَمْرِ إِلَيْهِمْ، وَلَكِنْ - وَاللَّهِ - سَاءَ مَا جَرَى؛ لِمَا جَرَى مِنْ سُيُولِ الدِّمَاءِ، وَالسَّبْيِ، وَالنَّهْبِ - فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ - فَالدَّوْلَةُ الظَّالِمَةُ مَعَ الأَمْنِ وَحَقْنِ الدِّمَاءِ، وَلَا دَوْلَةَ عَادِلَةً تُنْتَهَكُ دُونَهَا المَحَارِمُ، وَأَنَّى لَهَا العَدْلُ؟ بَلْ أَتَتْ دَوْلَةً أَعْجَمِيَّةً خُرَاسَانِيَّةً

جَبَّارَةً، مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ ١.١هـ.

ولما سمع عمرو بن العاص المستورد بن شداد يحدث عن النبي ﷺ بقوله : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ : تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ فَقَالَ لَهُ عَمْرُو : أَبْصِرْ مَا تَقُولُ ، قَالَ : أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ : لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ ، إِنَّ فِيهِمْ لِحِصَالًا أَرْبَعًا : إِنَّهُمْ لِأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمَسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ : وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظَلَمِ الْمُلُوكِ)) .
رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة .

فكأنَّ عمراً رضي الله عنه يحكم بأن هذه الخصال هي السبب في بقائهم وكثرتهم، وفي المقابل يكون الظلم وتضييع الأمانة وإهدار الحقوق هي معالم الخراب والهزيمة، وهذا أصل مقرر في علم الاجتماع، وقد عقد له ابن خلدون في مقدمته فصلاً بعنوان: **(الظلم مؤذن بخراب العمران)**.

والمقصود أن الأمم الكافرة إن توفرت على معالم قيام الدول ونهضتها أقامها الله تعالى وجازاها بجنس عملها، ولا يظلم ربك

أحدا، كما قال رسول الله ﷺ : ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَىٰ بِهَا فِي الدُّنْيَا ، وَيُجْزَىٰ بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ ، فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمَلَ لِلَّهِ تَعَالَى ، فِي الدُّنْيَا حَتَّىٰ إِذَا أَفْضَىٰ إِلَى الْآخِرَةِ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَىٰ بِهَا)) . رواه مسلم .

فالله تعالى يعطيهم في الدنيا ما يستحقونه باعتبار ما عندهم من خير وما يبذلونه من حق.

فهذا جانب، وهناك جانب آخر لا يصح إغفاله في هذا المقام، وهو أن الله تعالى قد ينصر أمة كافرة على أمة مسلمة؛ عقوبة لها على معاصيها، وشاهد هذا ما حصل في غزوة أحد، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِأُذُنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وقد ذكر ابن كثير في حوادث سنة خمس عشرة وستمائة أن المعظم أعاد ضمان القيان والخمور والمغنيات وغير ذلك من

الفواحش والمنكرات التي كان أبوه قد أبطلها، بحيث إنه لم يكن أحد يتجاسر أن ينقل ملء كف خمر إلى دمشق إلا بالحيلة الخفية، فجزى الله العادل خيراً، ولا جزى المعظم خيراً على ما فعل، واعتذر المعظم في ذلك بأنه إنما صنع هذا المنكر لقلّة الأموال على الجند واحتياجهم إلى النفقات في قتال الفرنج.

ثم علق ابن كثير على ذلك فقال: وهذا من جهله وقلة دينه وعدم معرفته بالأمر؛ فإن هذا الصنيع يدل عليهم الأعداء وينصرهم عليهم، ويتمكن منهم الداء ويشبط الجند عن القتال فيولون بسببه الأدبار، وهذا مما يدمر ويخرب الديار ويدل الدول، كما في الأثر: إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني. وهذا ظاهر لا يخفى على فطن أه.



٤ - ما جاء في أسباب نزول قوله تعالى:

﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ﴾:

ورد في سبب نزول هذه الآية الكريمة الروايات التالية :

الرواية الأولى:

ما رواه ابن إسحاق والطبري والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحزاب من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد! أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى، قال: معاذ الله، (وفي رواية الطبري، قال): معاذ الله أن نعبد غير الله، أو نأمر بعبادة غيره! ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني، فأنزل الله في ذلك: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ . .

الرواية الثانية:

أخرج عبد الرزاق في "تفسيره" عن الحسن البصري، قال: بلغني أن رجلاً قال: يا رسول الله! نسلم عليك كما يُسَلِّم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك، قال: (لا)، ولكن أكرموا نبيكم، واعرفوا الحق لأهله، فإنه لا ينبغي أن يُسجد لأحد من دون الله، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾. [آل عمران: ٧٩].

قال الشوكاني عند تفسيره لقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠]. وهو ختام الآية، قال: "استدل به من قال: إن سبب نزول الآية استئذان من استأذن النبي ﷺ من المسلمين في أن يسجدوا له."

الرواية الثالثة:

نقل الرازي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما قالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾. [التوبة: ٣٠] .، نزلت هذه الآية .

الرواية الرابعة:

ذُكِرَ أن اليهود لما ادعوا أن أحداً لا ينال من درجات الفضل والمنزلة ما نالوه، قيل لهم: إن كان الأمر كما قلتم، وجب أن لا تشتغلوا باستعباد الناس واستخدامهم، ولكن يجب أن تأمروا الناس بالطاعة لله، والانقياد لتكاليفه، وحينئذ يلزمكم أن تحثوا الناس على الإقرار بنبوّة محمد ﷺ؛ لأن ظهور المعجزات عليه يوجب ذلك. قال الرازي معلقاً على هذا النقل: "هذا الوجه يحتمله لفظ الآية؛ فإن قوله: ﴿ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٧٩]. مثل قوله: ﴿ اخذوا أخبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن

مَرِيْمَ وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ . [التوبة: ٣١] .

والرواية الأولى هي المعول عليها في سبب نزول هذه الآية،
والروايات الأخرى لا تعارضها، بل تشد من أزرها، وتؤكد ما جاء
في سبب نزول هذه الآية .

والأمر المهم في هذه الآية -استناداً إلى ما جاء في سبب نزولها-
أن العبادة لا ينبغي أن تكون لأحد غيره سبحانه، ولا يستقيم
لأحد من الناس -مهما كان شأنه- أن يأمر الناس بعبادته، أو
عبادة أحد غيره سبحانه وتعالى، فإن ذلك شرك بواح؛ ولهذا
قال الحسن البصري: لا ينبغي لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته .

وعبادة غير الله تشمل اتخاذ الأنداد والشركاء من دون الله كما
تشمل شرك الطاعة في تحليل الحرام وتحريم الحلال، كما قال الله
تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . [التوبة: ٣١] .

. وقد روى الإمام أحمد في "المسند"، عن عدي بن حاتم، قال:

أَتَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِّنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: " يَا عَدِيَّ اطْرَحْ هَذَا الْوَتْنَ مِنْ عُنُقِكَ! " قَالَ: فَطَرَحْتَهُ وَأَنْتَهَيْتَ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةِ، فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ! فَقَالَ: " أَلَيْسَ يُحْرَمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحْرَمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ؟ " قَالَ: قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: " فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ "

فالجُهلة من الأَحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنما يأمرون بما أمر الله تعالى به، وبلغتهم إياه رسله الكرام، وإنما ينهونهم عما نهاهم الله تعالى عنه، وبلغتهم إياه رسله الكرام.

فالرسل عليهم الصلاة والسلام أجمعين، هم السفراء بين الله تعالى وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتم قيام، ونصحوا الخلق، وبلغوهم الحق، والعلماء الربانيون سائرون على درجتهم، ومقتدون بهديهم.

٥ - الآيات والسور التي وردت فيها كلمة "الربانيون" و"الربانيين" في القرآن الكريم:

وردت كلمة (الربانيون) في القرآن الكريم ثلاث مرات بلفظ (ربانيون) ومرة بلفظ (ربيون):

أ- الآية الأولى: في سورة آل عمران - ٧٩ - يقول تعالى:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ
وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ
وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

ب- والآية الثانية: في سورة آل عمران (١٤٦):

(١٤٨) وفيها يقول تعالى: ﴿وَكَايِّنَ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ
رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا
ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ* وَمَا
كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ* فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ

ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾.

ت- والآية الثالثة: في سورة المائدة (٤٤) وفيها يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

ث- والآية الأخيرة في سورة المائدة أيضاً (٦٢-٦٣) وفيها يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

هذه هي مواضع ذكر فيها الربانيون والربانيين في القرآن الكريم، وسوف أوضح معنى الربانية، وصفات الربانيين فيما يلي:

٦- معنى الربانية:

للعلماء في تعريف الربانية أقوال عديدة تتكامل فيما بينها وتوضح معناها فقالوا:

أ- الربَّاني منسوب إلى الرَّبِّ؛ لأنه قريب من الله تعالى، يتلقَّى منهجه في هذه الحياة من الله تبارك وتعالى، وعليه يعتمد في سيره في هذه الدنيا، وإلى الله - عز وجل - مرجعه ومصيره، فهو عبدٌ لا يأخذ توجيهاته إلا من ربِّه، ولا يتلقَّى نظامَ حياته إلا منه.. لهذا فهو عبد رباني. وقال السمعاني . رحمه الله: والرباني من طريق المعنى: "هو أن يكون على دين الرب، وعلى طريق الرب". فأساس الربانية الإخلاص في ابتغاء رضى الرب . عز وجل . قال الأصمعي: الرباني نسبة إلى الرب، أي الذي يقصد ما أمره الرب بقصده من العلم والعمل.

ب- ويقول بعض العلماء: بل الرباني منسوب إلى الربَّان، والربَّان: هو الذي يقوم على أمر الناس ويُصلحهم،

ويُسَمَّى قائدُ السفينة الذي يتجنَّب بها الأهوال والأمواج والأنواء والعواصف ويسلك بها سبيلَ النجاة حتى تبلغ مرادها.. يُسَمَّى رَبَّانًا، وليس كل ركب في السفينة بقادرٍ على أن يُجنِّبها هذه الأهوال، إنما الذي يعلم حقائق القيادة وواقع الأمر هو الذي يعرف كيف يميل بها بعيدًا عن أسباب الفساد حتى ينجو بمن معه. فالرَّبَّانِيُّ إِذْنُ عَبْدٌ عَرَفَ كيف يقود الناس إلى الله لينجو هو ومن معه، ولتجنب صدمات الشيطان؛ ولذلك يُقال عمن يُصلح شخصًا أو شيئًا إنه يَرُبُّه، ففي الحديث الصحيح ((أَنْ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ - يعني علي طريقه - مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ أَيْنَ تُرِيدُ قَالَ أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ قَالَ هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا - يعني تصلحها له؟! - قَالَ لَا غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ)).

ت- وقال بعض العلماء: الربانية من التربية، فلا يكون العبد

ربانياً إلا حين تكون له ممارسةٌ في تربية نفسه وتربية غيره، الربُّ في الأصل: التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حدِّ التمام. ولا يقال الربُّ مطلقاً إلا لله . تعالى . المتكفل بمصلحة الموجودات، ويقال: ربُّ الدار، وربُّ الفرس، لصاحبهما، وعلى ذلك قول الله تعالى: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [سورة يوسف ٤٢]. قال الحسن البصري: الرباني: الذي يُربي الناسَ بصغار العلم قبل كباره، فالرباني إذن له دور في عملية التربية والإحياء والإصلاح، يُربي الناسَ بالعلم، وينقلهم من واقعهم إلى الواقع الأفضل، ويدعوهم إلى الأحسن والأجمل، الذي ينفعهم في حياتهم وآخرتهم. وقال الشيخ الربّاني ابن عثيمين . رحمه الله .: "الربّاني هو الذي يربي الناس على شريعة الله بالعلم والدعوة والعبادة والمعاملة، فالربّاني منسوب إلى التربية وإلى الربوبية، فباعتباره مضافاً إلى الله ربوبية، وباعتباره مضافاً إلى الإصلاح تربية".

ث- وقال ابن مسعود: الرّبيون: الألوف الكثيرة، فلا يكون

ربانياً مَنْ لم يَضَعْ يده في يد غيره من الصالحين من عباد الله ليكونوا جميعاً ربانيين، لا يكون المنعزل ربانياً، بل الربيون الجماعات الكثيرة، ويرى بعض علماء اللغة العربية أن الرَبِّيَّ عشرة آلاف، فإذا قال الله: ﴿مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾ فهذا يعني أن الذين يسرون مع الأنبياء ينبغي أن يكونوا كثرةً كثيرةً.

ج- هذه المعاني كلها صحيحة، والرباني في الحقيقة: هو الذي يتعلم أمر الله ونهيهِ ويعرف شرع الله ووحْيِهِ، فيطبقه في ذات نفسه، ويدعو غيره إليه، ويقوم بعملية الإصلاح في حياة الناس، لما فيه خير الناس في عاجلهم وآجلهم. فهذه التعريفات تخرج الربانية من نطاق التبعّد الفردي إلى التبعّد بهذا الدين في دنيا الناس.. تعلماً وتعليماً.. تربية للنفس وللآخرين..

ح- ورد مفهوم الربانية، في القرآن الكريم، مُتَضَمَّنًا في صيغة جمع المذكر السالم المرفوع: (الرَّبَّانِيُّونَ)، في موضعين من سورة المائدة: الآيتان (٤٤) و(٦٣)، وفي صيغة جمع المذكر السالم المنصوب: (رَبَّانِيَيْنَ) في موضعٍ واحد، هو الآية (٧٩) من سورة آل عمران.

فالربانيون في هذه المواضع الثلاثة، هم الذين يتصفون بوصف الربانية، الذي سبق بيان أصله وإطلاقاته.

ونخلص من ذلك أن الرباني نسبة إلى الرب وزيادة الألف والنون، إما للتخصيص على مذهب سيويه ومن وافقه، وإما للمبالغة على مذهب المبرد ومن وافقه.

وأما الوجه الذي اختاره الإمام الطبري، أشبه بالنسبة من الصفة المشبهة ربان على فعلان، وهو على القياس في الباب من غير زيادة أو تغيير.

الرباني: العالم القائم بأمر الرب أو المرئي القائم بأمر التربية والإصلاح وفق أوامر الرب، وذلك على النسبة من رَبٍّ أو رَبَّانٍ، والربان: الماهر بالشيء والعالم بخفائيه.

وهذا الوجه في التأويل من التربية والإصلاح ظاهر قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾؛ لأن المرئي مصلح وعالم بما ينهى عنه.

وبالإضافة إلى هذه المواضع الثلاثة، ثمة موضع رابع، هو محلُّ اختلاف بين المفسرين، من حيث علاقته بالرُّبُوبية، وهو الآية (١٤٦) من سورة آل عمران، التي وردت فيها كلمة (رَبِّيُّونَ)! ربيون: مفردة قرآنية وحيدة، في سياق القتال والجهاد في سبيل الله تعالى جاء في المحرر الوجيز لابن عطية رحمه الله تعالى: "وأجمع السبعة وجماعة من الناس على كسر الراء من "رَبِّيُّونَ"، وقرأ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه وابنُ مسعودٍ وابنُ عباسٍ وعكرمةُ والحسنُ وأبو رجاءٍ وعمرو بنُ عبَّيدٍ وعطاء بنُ السائب: "رَبِّيُّونَ" بضمِّ الراء، وروى قتادة عن ابنِ عباسٍ "رَبِّيُّونَ" بفتح الراء، قال ابنُ جني: الفتح في الراء لغة تميم، وكلُّها لغاتٌ.

ويقول ابن جرير الطبري في تفسيره: "وأما (الرَّبِّيُّونَ)، فإنَّ أهل العربية اختلفوا في معناه، فقال بعض نحويي البصرة: هم الذين يعبدون الرَّبَّ، واحدهم "رَبِّيُّ"، وقال بعض نحويي الكوفة: لو كانوا منسوبين إلى عبادة الربِّ لكانوا (رَبِّيُّونَ) بفتح الراء، ولكنَّه: العلماء، والألوف، و(الرَّبِّيُّونَ) عندنا، الجماعات الكثيرة، واحدهم "رَبِّيُّ"، وهم الجماعة"، وينقل ابن جرير بسنده عن مفسري السلف ما يدلُّ على هذا الخلاف.

ربيون: جمع مذكر سالم، واحدهم ربيّ، إما على النسبة إلى الرّبّة
واحدة الرباب، بمعنى الطائفة والجماعة والفرقة والألوف.
وإما على النسبة إلى الرّبّ على التغير والاتباع، بمعنى يعبدون
الرب والاتباع وفقهاء علماء وعلماء صبر.

وربيون مثلثة الراء، ولغة الكسر هي المتواترة، ونسبت لغة الفتح
فيها إلى تميم.

ربيّ على النسبة إلى الرّبّ، بكسر الراء، أشبه بالنسبة من
الصفة المشبهة، للثبوت والدوام، ونظيره: الحبّ والحبّ، على وزن
فعل بمعنى فَعِيل أو مَفْعُول. والرّبّ: الملازم للشيء المقيم عليه.
جاء في المقاييس لابن فارس، مادة: ربّ

وَالْأَصْلُ الْآخِرُ لِرُومِ الشَّيْءِ وَالْإِقَامَةُ عَلَيْهِ، وَهُوَ مُنَاسِبٌ
لِلْأَصْلِ الْأَوَّلِ. يُقَالُ أَرَبَّتِ السَّحَابَةُ بِهَذِهِ الْبَلَدَةِ، إِذَا دَامَتْ.
وَأَرْضٌ مَرَبٌّ: لَا يَزَالُ بِهَا مَطَرٌ؛ وَلِذَلِكَ سُمِّيَ السَّحَابُ رَبَابًا.
وَيُقَالُ الرَّبَابُ السَّحَابُ الْمُتَعَلِّقُ دُونَ السَّحَابِ. يَكُونُ أَبْيَضَ
وَيَكُونُ أَسْوَدَ، الْوَاحِدَةُ رَبَابَةٌ.

وَمِنَ الْبَابِ الشَّاءُ الرَّبِّيُّ: الَّتِي تُحْتَبَسُ فِي الْبَيْتِ لِلْبَنِّ، فَقَدْ
أَرَبَّتْ، إِذَا لَازَمَتِ الْبَيْتَ. وَيُقَالُ هِيَ الَّتِي وَضَعْتَ حَدِيثًا. فَإِنْ

كَانَ كَذَا فَهِيَ الَّتِي تُرَبِّي وَلَدَهَا. وَهُوَ مِنَ الْبَابِ الْأَوَّلِ. وَيُقَالُ
 الْإِرْبَابُ: الدُّنُوُّ مِنَ الشَّيْءِ. وَيُقَالُ أَرَبَّتِ النَّاقَةُ، إِذَا لَزِمَتِ الْفَحْلَ
 وَأَحَبَّتْهُ، وَهِيَ مُرَبٌّ". أ.هـ، وكذلك أَرَبَّ بِالْمَكَانِ إِذَا أَقَامَ فِيهِ.
 وتكون النسبة من الرَّبِّ على الرَّبِّيِّ بالقياس المطرد في الباب من
 غير تأويل أو تغيير في الصورة.

وتستعمل العرب فِعْلٌ في معنى مَفْعُولٍ مثل: ذبح بمعنى مذبوح:
 "وفديناه بذبح عظيم"، وحمل بمعنى محمول: "ولمن جاء به حمل
 بعير"، ونحو ذلك كثير في كلامهم.

وكذلك أشبه بالوصف بالمصدر، مثل ظئر، وضرس، وكفل،
 وردف، ونحوه.

قالوا: وفلان ضرس شرس: صعب الخلق، في حديث ابن
 مسعود: "إني كائن فيهما كالكِفْل": أي الذي يكون في مؤخَّرِ
 الحرب، همته الفِرَارُ. وهو كِفْلٌ: بَيْنَ الكُفُولَةِ، والظُّرِّ: الحَاضِنَةُ
 وَالْحَاضِنُ أَيْضًا.

ويؤول المعنى العام للآية في الذين لازموا النبي حال القتال،
 ولزموا دعوته من بعده، وأقاموا على ذلك.

٧ - فماذا نفهم من قوله ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾؟

إن الرباني هو المنسوب إلى الربّ وما ذاك إلا لمزيد اختصاص المنسوب بالمنسوب إليه ليكون المعنى على أقوى ما يكون أي أن يكونوا مخلصين لله تعالى دون غيره.

ولقد ذكر الرازي تعريفاً للرباني بقوله: أن يكون الداعي له إلى جميع الأفعال طلب مرضاة الله تعالى، والصارف له عن كل الأفعال الهرب عن عقاب الله تعالى. وكذلك قال ابن عاشور في تفسير كونوا ربانيين: أن يكونوا مخلصين لله دون غيره.

فالرباني يبني نفسه ويبني غيره، يعمل بما علم ويعلم ما تعلم. وقد حوت كتب التفسير والسنة كثيرا من الصفات المميزة للرجل الرباني، ففي صحيح البخاري وعند ترجمة (**باب العلم قبل القول والعمل**): (قال ابن عباس رضي الله عنه: كونوا ربانيين: حلماء فقهاء، ويقال: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره) يقول ابن حجر رحمه الله: (والمراد بصغار العلم ما وضح من مسأله، وبكباره ما دق منها، وقيل: يعلمهم جزئياته قبل

كلياته، أو فروعها قبل أصوله، أو مقدماته قبل مقاصده...).

فالرباني صاحب حكمة وصاحب فقه.

ومن حكمته أنه يتدرج بالمدعوين وييسر عليهم على علم وبصيرة وحسن عمل.

ينقل ابن حجر عن ابن الأعرابي قوله: " لا يقال للعالم رباني حتى يكون عالماً معلماً عاملاً". وأساس الربانية الإخلاص في ابتغاء رضى الرب . عز وجل .

قال الأصمعي والإسماعيلي: (الرباني نسبة إلى الرب، أي الذي يقصد ما أمره الرب بقصده من العلم والعمل)، وقيل إنه منسوب إلى التربية، والتربية أبرز ما في حال الرباني. وقد روي عن علي رضي الله عنه في وصف الربانيين قوله: " هم الذين يغذون الناس بالحكمة ويربونهم عليها" كما قيل إنه مشتق من قولهم: رَبَّهُ يَرْبُهُ فهو رَبَّانٍ إذا دَبَّرَهُ وأصلحهُ. " فمعناه على هذا: يدبرون أمور الناس ويصلحونها".

وفي تفسير ابن مسعود لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ﴾ قال: حكماء علماء. ويقول ابن جبير: حكماء أتقياء.

إن الربانيين لا يبيعون دينهم بدنياهم، وأنهم لا يسامون ولا

يتنازلون عن حق اعتقدوه، بل يدعون إليه ويصبرون عليه، وإن كلفهم ذلك بذل الأرواح وتقديم المهج في سبيل الحق الذي يدينون به ويدعون إليه.

وكيف لا يكونون كذلك وقد خالطت حلاوة الإيمان بشاشة قلوبهم فتطلعوا إلى ما عند الله تعالى من الدرجات العلا والنعيم المقيم، وهم كذلك امتداد للصالحين الربانيين على مدار التاريخ الذين صبروا على الأذى فرفع الله تعالى قدرهم وأعلى في العالمين ذكرهم.

ألم تر إلى سحرة فرعون كيف تحولوا إلى ربانيين بين عشية وضحاها حين رأوا أن ما جاء به موسى عليه السلام هو الحق فانقادوا له فلما هددهم فرعون بالعذاب والصلب وتقطيع الأجساد والموت لم يؤثر ذلك على ثباتهم على عقيدتهم قال الله تعالى عنهم: ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ

لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ
 عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ
 عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ
 مَنْ تَزَكَّى ﴿ طه: ٧٢، ٧٥ ﴾ فلا مجاهد بلا ربانية، ولا ربانية
 بغير علم وعمل وحكمة وإخلاص وصبر وتربية وبصيرة... والذين
 يتبوؤون مراكز التوجيه ويتصدرون الساحات لا بد أن يأخذوا
 أنفسهم بالعزيمة ليحسنوا أداء دورهم "القدوة" وليستحقوا من الله
 تعالى تبوأ "العليين" و "مقعد صدق" في الدار الآخرة، ولينالوا
 وسام (الربانية) بما يتعلمونه ويعلمونه.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ
 وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ
 وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ
 تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

فكل أنبياء الله تعالى كانت هذه وصيتهم :

﴿كُونُوا رَبَّانِيِّنَ﴾ ، ولكن لماذا الربانية وليس غيرها؟

لأن الدنيا انفتحت على الناس بشهواتها وشبهاتها وملذاتها حتى
 أهلكتهم أو كادت إلا من رحم الله تعالى، وتحقق فينا قول النبي
 ﷺ: ((فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ

تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ
فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَهَلِكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ))

[صحيح البخاري]، وتسابق شياطين الإنس والجن في إفساد بني
البشر وإبعادهم عن صراط الله المستقيم قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ
يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ
تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٢٧] .

والعاصم من هذا كله هو الالتجاء إلى حبل الله والاعتصام به،
والتمسك بهديه، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ
سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٥] .

إنها العبودية لله تعالى التي تمثل الصورة الواقعية والعملية للربانية
التي يدعو إليها أنبياء الله تعالى، فالربانية عصمة من الدنيوية،
فهي ليست انقطاعاً عنها، ولا ابتعاداً منها، ولا تحريماً لها، وإنما هي
سياسة الدنيا على منهج الله تعالى، استعلاءً عليها وترفعاً عنها،
وانتفاعاً بالمباح منها، وحصانةً من أضرارها، وسلامةً من شرورها،
وأمناً من ضلالها وزيفها، الربانية هي أشد ما نفتقر إليه، وهي ما
أرشدتنا إليه آيات القرآن وجسده لنا سيرة المصطفى ﷺ، بها
تتحقق السلامة في الدنيا، وترجى النجاة في الآخرة.

﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ﴾ تابعين طريق الرب، منسوبين إليه بكمال العلم المزين بالعمل، فإن فائدة الدرس العلم، وفائدة العلم العمل، ومنه الحث على الخير والمراقبة للخالق "

الربانية، هي أن نكون مع الله تعالى، في كل أحوالنا حتى ننسب إليه فالرباني هو المنسوب للرب سبحانه، نتعلم كتابه، ونتدارسه، ثم ندعو إليه على هدى وبصيرة، لتسير الحياة كلها وفق شرع الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨]. تلك هي الحياة التي يريدنا الله لعباده في الدنيا لينالوا السعادة في الآخرة ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

فإذا كانت تلك تعريفات الربانية، فما هي صفات هؤلاء الربانيين؟

٨- فما هي صفات العلماء الربانيين والربانيات:

فالربانيون إذاً: هم عمادُ الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا. ولذلك قال مجاهد: وهم فوق الأخبار، لأن الأخبار هم العلماء، والرباني: الجامعُ إلى العلم والفقه، البصرُ بالسياسة والتدبير والقيام بأمر الرعية، وما يصلحهم في دنياهم ودينهم."

ولكن هذه المعاني الدعوية التربوية، الإصلاحية القيادية، السياسية الاجتماعية، قد ضمرت وانطمست، وانقلبت إلى ضدها، في عالمنا اليوم سواء عند عامة المسلمين أو خاصتهم، فأصبح "العالم الرباني" في مفهومهم هو ذلك المنقطع عن الناس الذي يعيش مع كتبه وكراريسه، العاكف على أوراده وعباداته، المتفرغ لخويصة نفسه، لا يريد أن يرى الناس ولا أن يروه.. حتى صار وصفاً: "وكان منقطعاً عن الناس" مفخرة ومنقبة تُتوج بها تراجم بعض العلماء "الربانيين."

وجاء في ترجمة أحد العلماء: أنه "العالم الفاضل الكامل المولى... وكان فاضلاً محققاً، منقطعاً عن الناس بالكلية، مشغلاً

بالدرس والعبادة. وكان انقطاعه بمرتبة لا يقدر على الحضور في المجالس، وحشة من الناس واستحياء منهم، وبالجملة كان عالماً ربانياً مباركاً.

ومن الواضح أن هذه الحالة - وهي مجرد عينة - تبدو أقرب إلى الرهبانية منها إلى الربانية.

فبعض العلماء يفعلون ذلك اختياراً وطواعية وهروباً من المسؤولية المنوطة بهم. بل يعتبرون البعد عن عوام الناس وأسواقهم وشؤونهم مما يحفظ لهم هيبتهم وجلالة قدرهم، ولهم في ذلك عبارة قديمة تقول: "اعتزال العامة مروءة تامة".

وإني أتساءل هل الأنبياء اعتزلوا العامة؟ وهل كانت مروءتهم منقوصة أو مضيعة، حين كانوا يمشون في الأسواق ويخالطون العوام صباح مساء؟

إن من الصفات الأساسية الثابتة في حياة كافة أنبياء الله تعالى ورسله، صلى الله وسلم عليهم أجمعين، أنهم كانوا يمشون في الأسواق، وقد عاب المشركون العرب على خاتم الرسل والأنبياء **ﷺ** كونه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]. فجاءهم الرد المفحم الحاسم في قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا

قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي
الْأَسْوَاقِ ﴿ [الفرقان: ٢٠].

وكونُ المرسلين يمشون في الأسواق يعني أنهم يخالطون الناس،
ويتواصلون معهم، ويطلعون على أحوالهم، فيبلغونهم ويرشدونهم،
ويستمعون إليهم ويبينون لهم.. فمشيهم في الأسواق هو مشي
الدعاة الناصحين المصلحين، المندمجين في واقعهم وزمانهم
وأقوامهم. ومن شمائل خاتم الرسل ﷺ أنه كان "يجالس المساكين
ويمشي في الأسواق".

وبهذا يكون مشي الأنبياء والرسل في الأسواق جزءاً من نهجهم
وأخلاقهم ومتطلبات رسالتهم ووظيفتهم، وليس مجرد كسب
المعاش أو إظهار التواضع. يؤكد ذلك ويوضحه ما جاء في بعض
القراءات للفظ (ويمشون).. قال ابن عطية: "وقرأ جمهور الناس
﴿وَيَمْشُونَ﴾، بفتح الياء وسكون الميم وتخفيف الشين، وقرأ
علي وعبد الرحمن وابن مسعود: ﴿يُمَشَّونَ﴾، بضم الياء وفتح
الميم وشد الشين المفتوحة، بمعنى: يُدْعَوْنَ إِلَى الْمَشْيِ وَيُحْمَلُونَ
عليه."

وإذا كان جميع الأنبياء والرسل على هذا النحو وهذا النهج، فلا يبقى عذر لأحد من "ورثة الأنبياء" في إثارة العزلة والبعد عن المساكين وأهل الأسواق وجمهور الناس.

فإن كان ربانياً فلا بد من ظهور تلك الصفات عليه ولا بد إلا إن قام مانع.

والمأمل في بعض ربانيي هذه الأمة يجد ذلك جلياً، تأمل حال ابن عباس رضي الله تعالى عنه، وقد وصفه أبو هريرة وابن الحنيفة بالربانية، تجدد الرسوخ في العلم، وتجدد العمل، وتجدد التعليم والدعوة، وتجدد المبادرة، وتولى زمام الأمور الكبار، في الفتنة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، كان حاضراً وكان له رأي، ولما نجم شر الخوارج بعث إليهم، وكانت له مشاركته في الفتوح والغزوات، أما في العلم والتعليم فله القدر المعلى.

ووصف الربانيون في القرآن بأوصاف عديدة تتكامل بها صفاتهم وهي النحو التالي:



الصفة الأولى: حريصون وحريصات على العلم والتعلم والتعليم ومُدرسةُ العلم:

أ- أول صفة للعبد الرباني هي صفة العلم والتعلم، فليس الرباني إذْنُ الذي يهتم بذاته أو بأوراده فقط، إنما الرباني يعمل على شَعْبَتَيْن: على مستوى ذاته في توثيق صلته بالله تعالى على كل الأحوال، ثم يقوم بتنفيذ ما أمر به ربه وما دعا إليه نبيه ﷺ ويكون له دورٌ في عملية إصلاح البشرية؛ حتى يكون ربانيًا، ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ يعني: إنما يصلح أن تكونوا ربانيين إذا كان أول أغراضكم أن تقوموا بتعليم الناس الإسلام، وليس المعنى: كونوا ربانيين بالانعزال، أو بالذكر في الليل فقط، إنما المعنى: لن تكونوا ربانيين إلا إذا كان لكم دورٌ في إحياء الناس في إحياء البشرية في تعليم الكتاب ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾، فلا يكون ربانيًا من لم يَقم بمهمة التعليم، سواءً كان التعليم لأولادك في بيتك أو للناس الذين يعملون معك، أو كان الرباني مُدرِّسًا في مدرسة أو أستاذًا في جامعة، أيًا كان وضعه، فهو يقوم

بعملية التعليم على قدره، فهو لا يَعْلَم من أمر الله شيئاً إلا عَلمَه، ولا يقف عند حَدِّ، يقول تعالى ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾، فهو في حالة ازديادٍ دائمٍ من العلم، وعملٍ دائمٍ به، وتعليمٍ مستمرٍ له. قال ابن عباس: الربانيون: الحكماءُ الفقهاء.

فَمَنْ يُرَدُّ أَنْ يَكُونَ رَبَّانِيًّا كَمَا أَمَرَ اللَّهُ فَهَذِهِ أُولُ صِفَاتِ الرَّبَّانِيِّينَ.. يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ وَيَعْمَلُونَ بِهِ وَيُعَلِّمُونَهُ لِلنَّاسِ.. ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾، ولم يأمرهم الحق سبحانه أبداً بأن يكونوا ربانيين بالرهبانية المبتدعة، التي قال الله - عز وجل - عنها ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

إِذْ أُولُ عِلْمَاتِ الرَّبَّانِيِّ وَأُولُ صِفَاتِهِ أَنْ يَكُونَ دَائِمَ الْبَحْثِ عَنِ الْخَيْرِ، دَائِمَ التَّعْرِفِ عَلَى الْحَقِّ، دَائِمَ الْقِيَامِ بِتَعْلِيمِهِ لِغَيْرِهِ، عَلَى أَيِّ مَسْتَوًى مِنْ مَسْتَوِيَّاتِ التَّعْلِيمِ. قَالَ الرَّازِي: دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ وَالتَّعْلِيمَ وَالدِّرَاسَةَ تَوْجِبُ كَوْنَ الْإِنْسَانِ رَبَّانِيًّا.

ولكن أي علم الذي يجعل الإنسان ربانياً، الآيات والأحاديث

الواردة في فضل العلم والتعليم تشمل العلم الشرعي والعلوم
الدنيوي من الطب والهندسة وغيرها. ولكن خص في معنى الربانية
(بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ) فهي مقيدة بعلم الكتاب: علم
الشريعة.

ب- وَعَنْ قَيْسِ بْنِ كَثِيرٍ قَالَ قَدِمَ رَجُلٌ مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى أَبِي
الدَّرْدَاءِ وَهُوَ بِدِمَشْقَ فَقَالَ مَا أَقْدَمَكَ يَا أَخِي فَقَالَ حَدِيثٌ بَلَغَنِي
أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ أَمَا جِئْتَ لِحَاجَةٍ قَالَ لَا قَالَ أَمَا
قَدِمْتَ لِتِجَارَةٍ قَالَ لَا قَالَ مَا جِئْتَ إِلَّا فِي طَلَبِ هَذَا الْحَدِيثِ قَالَ
فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي
فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ
لَتَضَعُ أجنحتها رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ
لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي
الْمَاءِ وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ
الْكَوَاكِبِ إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا
دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطِّ
وَإِفْرِ)). رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه واللفظ للترمذي.
وللخطيب البغدادي كتاب مائع اسمه (الرحلة في طلب العلم).

ج- والرباني هو الذي يجمع إلى العلم البصر بالسياسة والواقع
فهو عالم بعصره، ليس غافلاً عن قضايا وهموم أمته. وقد أكد

هذه الميزة في الرباني أبو عبيدة بقوله: "سمعت عالماً يقول: الرباني العالم بالحلل والحرام والأمر والنهي، العارف بأبناء الأمة وما كان وما يكون". فهو مدرك لتاريخ الأمة مبصر لسنن الله تعالى في خلقه بصرًا يتيح له أن يتوقع ما يكون حين تتوفر أسباب مضاء السنة الكونية والاجتماعية.

الصفة الثانية: دائمو الجهاد والثبات والمجاهدة

ثاني صفات الربانيين صفة الجهاد والثبات والمجاهدة، فقد وصفوا بالثبات في الجهاد والصبر على البلاء قال تعالى: ﴿وَكَايِنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] والربيون بمعنى الجماعات الكثيرة من العباد والعلماء والربانيين . جميعا بين التفاسير..

فالربانيون لا يكونون ربانيين حقًا إلا إذا جاهدوا في ذات الله عز وجل أنفسهم أولاً، والمنافقين والكفار ثانياً، لا بد أن يُجاهدوا ليكونوا ربانيين، فلا يحمل رسالة الأنبياء إلا الربانيون الذين أدركوا أن إصلاح البشرية مهمتهم؛ ولهذا يخرجون ويقاتلون مع الأنبياء

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف: ١٠٨)، هؤلاء الذين يخرجون على بصيرة يُجاهدون في الله عزَّ وجل بكل صور الجهاد، يُجاهدون أنفسهم ومن حولهم، ويدعون الناس إلى ربهم، ولا يُبألون في سبيل هذا الجهاد بما يتكبَّدون من تضحيات، ولا بما يُواجههم من تهديدات، ولا بما يكون أمامهم من عقبات، كما يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَكَايِّنَ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٦)، في قراءة رَجَّحَهَا الإمامُ ابن جرير الطَّبْرِي يقول (قُتِلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ)؛ أي وصل الحال بالدعوة وأصحابها إلى أن تعرَّض عدد كبير للقتل، لكن هذا لم يفتِّ في عضد الربانيين الآخرين، ولم يدفَعُهُم إلى الاستسلام للباطل، أو السُّكوت عن الحق، أو الرُّكُون إنما صَبَرُوا، والله يُحِبُّ الصابرين: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أقدامنا وَانصُرنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]، فهم يَسْتَمِدُّون القوة والعون من الله تعالى ويعلمون أنَّ الله نصيرهم، ولذا فهم يلجؤون إليه وقت الشدائد كما أنهم في الضَّرَاء يعتصمون به. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: مَرَّ

رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِشَعْبٍ فِيهِ عِيْنَةٌ مِنْ مَاءٍ عَذْبَةٍ، فَأَعْجَبَتْهُ لَطِيْبُهَا، فَقَالَ: لَوْ اعْتَزَلْتُ النَّاسَ فَأَقَمْتُ فِي هَذَا الشَّعْبِ! وَلَنْ أَفْعَلَ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: ((لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ مَقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ سَبْعِينَ عَامًا. أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ الْجَنَّةَ؟ اغزُّوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ. مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَوَاقَ نَاقَةَ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ)). قَالَ الْإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وعن أبي هريرة، أن رجلا قال: يا رسول الله علمني عملا أنال به ثواب المجاهدين في سبيل الله فقال: ((هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُصَلِّيَ فَلَا تَفْطُرَ، وَتَصُومَ فَلَا تُفْطِرَ؟)) فقال: يا رسول الله، أنا أضعف من أن أستطيع ذلك، ثم قال النبي ﷺ: ((فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ طَوَّقْتَ ذَلِكَ مَا بَلَغْتَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّ فَرَسَ الْمُجَاهِدِ لَيْسَتْ فِي طَوْلِهِ، فَيُكْتَبُ لَهُ بِذَلِكَ الْحَسَنَاتِ)) . رواه البخاري.

الصفة الثالثة: التعلق بالله تعالى فلا يعرفوا ولا يعرفن الوهن ولا الضعف ولا الاستكانة.

أ- الرباني قلبه دائم الاتصال بالله تعالى، يعيش مع الله عز وجل ويعيش لله سبحانه وتعالى، فلا يعتريه ما يعتري من قصرت همتهم ولا من تعلق بالأسباب المادية ونسي مسبب هذه الأسباب، قال الله تعالى عنهم ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾.

فثالث صفة من صفات الربانيين هي التعلق بالله وحده وقطع كل العلائق الأخرى، فقوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ من الوهن وهو اضطراب نفسي، وانزعاج قلبي، يبتدىء من داخل الإنسان، فإذا وصل إلى الخارج كان ضعفاً وتخاذلاً. ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي فما عجزوا أو جنبوا بسبب ما أصابهم من جراح، أو ما أصاب أنبياءهم وإخوانهم من قتل واستشهاد. لأن الذي أصابهم إنما هو في سبيل الله عز وجل وطاعته وإقامة دينه، ونصرة رسله.

﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ أي: عن قتال أعدائهم وعن الدفاع عن الذي آمنوا به، وقوله ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ أي: ما خضعوا وذلوا

لأعدائهم. فأنت ترى أن الله تعالى قد نفى عن هؤلاء المؤمنين الصادقين ثلاثة أوصاف لا تتفق مع الإيمان، نفى عنهم - أولاً - الوهن، وهو اضطراب نفسي وهلع قلبي، يستولي على الإنسان فيفقد ثباته وعزيمته. ونفى عنهم - ثانياً - الضعف الذي هو ضد القوة، وهو ينتج عن الوهن. ونفى عنهم - ثالثاً - الاستكانة، وهي الرضا بالذل والخضوع للأعداء ليفعلوا بهم ما يريدون.

وقد نفى الله تعالى هذه الأوصاف الثلاثة عن هؤلاء المؤمنين الصادقين الربانيين مع أن واحداً منها يكفي نفيه لنفيها، لأنها متلازمة - وذلك لبيان قبح ما يقعون فيه من أضرار فيما لو تمكن واحد من هذه الأوصاف من نفوسهم.

وجاء ترتيب هذه الأوصاف في غاية الدقة بحسب حصولها وترتيبها في الخارج، فإن الوهن الذي هو خور في العزيمة إذا تمكن من النفس أنتج الضعف الذي هو لون من الاستسلام والفشل. وتكون بعدهما الاستكانة التي يكون معها الخضوع لكل مطالب الأعداء، وإذا وصل الإنسان إلى هذه المرحلة في حياته كان الموت أكرم له من هذه الحياة المهينة الذليلة.



كل هذا ليعلم الربانيون أن طريقهم إلى الله تعالى ليس مفروشا بالورود، بل هو طريق الابتلاء والمحن؛ فهذا هو طريق الربانيين الذين سبقوهم؛ فقد سبقهم فيه رسول الله ﷺ والصحابة الكرام فسوف يتقول عليهم الأقاويل، وسوف يتهمون ويحاربون حتى ربما من بعض المنتسبين للعمل لدين الله تعالى، فهي حرب التُّهم والإشاعات والأباطيل ولكن.. ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾.. ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾.. ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ .

ب- قال ابن كثير: لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقتل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل، ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمداً. وإنما قد ضرب رسول الله ﷺ فشجه في رأسه. فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس، واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قتل، فحصل ضعف ووهن وتأخر - بين المسلمين - عن القتال. ففي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فالرباني قد تعلق قلبه بالله وحده لا يتعلق بأشخاص حتى ولو كان هذا الشخص هو الرسول ﷺ. فالدين هو دين الله تعالى

والأمر أمره والشرع شرعه والهداية منه والثبات منه فالتعلق به وليس لشخص رسول الله ﷺ، فأراد الله تعالى بذلك أن يربي الأمة إلى أن التعلق إنما بالله لا بشخص رسول الله ﷺ وعلى هذا يُرَبِّي الربانيون وَيُرَبُّونَ مَنْ بعدهم فالعبد الرباني عبدٌ لله تعالى وحده لا لأحد مع الله عز وجل ؛ وبذلك نعلم أنه لا ينبغي أن نخلط ما لله تعالى من حق بما للرسول ﷺ من حق... وإنما في عصرنا قد وقع فيه كثير من الناس - إلا من رحم الله تعالى - ممن تعلقت قلوبهم بالأشخاص من الدعاة والعلماء، ولم تتعلق بالله عز وجل فظنوا أن الدعوة ماتت بموتهم؛ فالدعوة أبقى من الداعية، والدعوة لا تموت بموت الرجال فلقد مات رسول ﷺ واستمرت الدعوة إلى الله تعالى من بعده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ت - ولنعلم أن طريق الدعوة إلى الله تعالى محفوف بالابتلاءات فقد ضرب الصحابة رضي الله عنهم أروع الأمثلة في الثبات ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾. لما تعرضوا له من أذى واضطهاد فإذا كان الرجل ذا مال قال له أبو جهل: لتعودنَّ إلى عبادة اللات والعزى أو لنخسرن تجارتك ولنهلكن مالك. وهذه هي حرب السرقة والنهب. تتكرر في كل عصر، وأما إذا كان المسلم ضعيفاً **فحدث ولا حرج** عن النار يُكوى بها ظهره، وعن الغاز الناشئ من حصير

يلفّ فيه ثم تحرق عليه من طرفيها كما حدّث للزبير بن العوام رضي الله عنه؛ إذ قيّدوه بالحبال والقوة في الحصر، ثم علّقوه على الحائط، ثم أوقدوا تحته ناراً فأحرقت أنفه.

حدّث ولا حرج عن القلوب القاسية التي تأتي بجمر يحمي ثم يلقي على المؤمن فلا ينطفئ الجمر إلا بدهن ظهر المؤمن كما حدّث لخبّاب بن الأرت رضي الله عنه؛ فكانوا يشدّون برجله الحبل ثم يجرونه على الأرض، ويأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذبا، ويلوون عنقه ثم يضجعونه على فحام ملتهبة، ثم يضعون عليه حجراً حتى لا يستطيع أن يقوم.

حدّث ولا حرج عن النفوس المريضة التي تأتي بالمؤمنين فيعذبونهم بالسياط التي تلهب الصدور وبالرمال الساخنة التي تشوي الظهر وبالحجارة الثقيلة التي توضع على الصدر كما حدّث لبلال رضي الله عنه، فكان أمية بن خلف يضع في عنقه حبلاً، ثم يسلمه إلى الصبيان يطوفون به في جبال مكة حتى أثر الحبل في عنقه، وكان أمية يشده شداً ثم يضربه بالعصا، وكان يكرهه على الجوع، وكان يخرجّه إذا حميت الظهرية فيطرحه في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا والله، لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، وبلال يقول صابراً محتسباً: أحدٌ أحد.

حدث ولا حرج عن العقول الخربة التي تأتي بالحراب، فتشقق بها البطون وتغرس في فروج النساء الأبرياء كما فعل بسمية أم عمار وبزوجها ياسر رضي الله عنهما؛ فكانوا يأخذون عماراً وأباه وأمه وأخته فيقلبونهم ظهرًا لبطن، فيمر بهم رسول الله ﷺ وهو يقول: **((اصبروا آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة))** رواه الطبراني. وماتت سمياً أم عمار التي رفضت أن تنطق بكلمة الكفر واستعلت بدينها وبإيمانها على طغاة الأرض، والتي كانت من السبعة الأوائل الذين أظهروا الإسلام، فكانت أول قتيل في الإسلام في ذات الله تعالى، فإذا وجد في الرجال طائفة ممن يتصفون بهذه الصفات الربانية يقومون بدورهم في المجتمع رغبة في عظيم المنزلة عند الله تعالى ؛ فإن وجود الربانيات ممن يتصفن بصفات العلم والعمل وتربية الناس بالإيمان وتحبيب العمل الصالح لشرائح النساء المختلفة بالطرق والوسائل المختلفة يعتبر من أعظم الحاجات في وقتنا، وإن المرأة تسأل كما الرجل عن وقتها وعن علمها ، وهل قامت بما يجب عليها من تبليغه ، والدعوة إلى الله عز وجل ، فهذا هي سمية رضي الله عنها مثال المرأة الربانية تقدم أروع الأمثلة على ذلك، وهذه هي المرأة في الإسلام تدافع عن عقيدتها بثبات ويقين، فهذه أول شهيدة قدمت دمها وحياتها في سبيل الله تعالى. ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ❁

وهذا هو العمل من أجل هذا الدين العظيم في كل وقت وحين لا ينتشر إلا بجهود المؤمنين والمؤمنات الربانيين والربانيات، فيا أيتها المرأة الربانية أين أنت اليوم؟ أين قيامك بهذا الدور العظيم في الدعوة والتربية؟، فلا تحرمي نفسك من الأجر العظيم الذي وعد الله تعالى به الدعاة إليه، واغتنمي الفرص المتاحة في كل وقت وحين والأبواب المشرعة، وتيقني أن الكلمة الصادقة المخلصة تبلغ الآفاق وأنت لا تشعرين، واعلمي أن الأمة تنتظر عطاءك اليوم قبل الغد وتأسى بخير نساء الأمة العفيفات الطاهرات الربانيات.

حدّث ولا حرج عن تتابع الظلم والاضطهاد بالمسلمين والقطيعة، ففي أول ليلة من شهر الله المحرم من السنة السابعة من مبعثه ﷺ اجتمعت قريش، اجتمعوا على أن يكتبوا فيما بينهم على بني هاشم وبني المطلب أن لا ينكحوهم ولا ينكحوا إليهم، ولا يبايعوهم ولا يتناحوا منهم؛ حتى يهلكوا عن آخرهم أو يسلموا لهم محمداً ﷺ، وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في سقف الكعبة، وعمد أبو طالب فأدخلهم الشَّعب، شعب أبي طالب في

ناحية من مكة، فأقاموا به ثلاث سنين تلوّوا جوعاً وعطشاً وعرياً، ولحقتهم مشقة عظيمة، فكانوا يضعون الحجارة على بطونهم اتقاءً للآلام التي تنهش في أمعائهم، كانوا يبحثون عن الخرق البالية يعصبون بها رؤوسهم لتخفيف الأوجاع، تحملوا البرد القارس والصقيع القاتل في تلك الشعاب، فكانوا يلتحفون السماء ويفترشون الغبراء.

يقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة: ولقد رأيتني مع رسول الله ﷺ فخرجت من الليل أبول، وإذا أنا أسمع قعقة شيءٍ تحت بولي، فنظرت فإذا قطعة جلد بعير، فأخذتها فغسلتها ثم أحرقتها فرضختها بين حجرين ثم استفتتها، فشربت عليها ماء، فقويت عليها ثلاثاً)).

ث - والربانيون هم أولئك الذين يصبرون عند البلاء ويشكرون عند الرخاء ، كان من دعاء النبي ﷺ : ((اللَّهُمَّ بَعْلَمِكَ الْغَيْبَ ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ ، أَحْيَيْتَنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّيْتَنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي ، اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشِيَّتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَأَسْأَلُكَ

كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي
 الْفَقْرِ وَالْغِنَى ، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ
 عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بَعْدَ الْقَضَاءِ ، وَأَسْأَلُكَ
 بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى
 وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ ، وَلَا
 فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ ، اللَّهُمَّ زَيْنًا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً
 مُهْتَدِينَ)) . أخرجه النسائي ٥٤/٣ ، وفي "الكبرى" ١٢٢٩ .

وَعَنْ صُهَيْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((عَجَبًا لِأَمْرِ
 الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ
 إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ
 صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)) . أخرجه أحمد ٣٣٢/٤ (١٩١٤٢)
 و"الدارمي" ٢٧٧٧ و"مسلم" ٢٢٧/٨ (٧٦١٠).

حقاً هؤلاء هم الربانيون، وهكذا كانوا في طريق الدعوة إلى الله
 تعالى ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا
 وَمَا اسْتَكَانُوا﴾.

الصفة الرابعة: هم الصابرون المحتسبون والصابرات المحتسبات.

أ- رابع صفة من صفات الربانيين هي الصبر والاحتساب، فقد ذيلت الآيات التي ذكرت صفات الربانيين بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ تذييل قصد به حض المؤمنين على تحمل المكاره وعلى مقاساة الشدائد ومعاناة المكاره من أجل إعلاء دينهم حتى يفوزوا برضا الله تعالى ورعايته كما فاز أولئك الأنقياء الأوفياء. فأحبهم الله تعالى لصبرهم على آلام القتال، ومصاعب الجهاد، ومشاق الطاعات، وتبعات التكليف التي كلف الله تعالى بها عباده. قيل للإمام الشافعي: أحب إليك أن يُمكن الرجل أو يتلى، قال: **لا يمكن حتى يتلى.**

ب- قال ابن القيم رحمه الله: "مجاهدة النفس أربع مراتب، أولها مجاهدتها على تعلم الهدى والصلاح - أي من كتاب الله وهدى رسوله ﷺ ثم أن يجاهد نفسه على العمل به بعد علمه، ثم الدعوة إليه، ثم الصبر على ذلك".

الصبر على مشاق الدعوة إلى الله تعالى. كما صبر رسول الله ﷺ ففيما خرّجه البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: بينما



رسول الله ﷺ يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، قال: فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت وهي جويرية فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم، فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا سأل سأل ثلاثاً، ثم قال: ((اللهم عليك بقريش)) (ثلاث مرات)، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته، ثم قال: ((اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط))، وذكر السابع ولم أحفظه، فوالذي بعث محمداً ﷺ بالحق لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر، ثم سحّبوا إلى القليب قليب بدر.

ت- وروى البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير قال: سألت ابن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون

بالنبي ﷺ؟ قال: بينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقا شديدا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ قال: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله؟! كانت هذه الاعتداءات على رسول الله ﷺ، وتلك هي بعض صنوف الأذى لقيها رسول الله ﷺ من القوم في سبيل الدعوة إلى الله تعالى فصبر عليها.

ث- ونحن في زمننا نسمع كل فترة أخباراً عن إيذاء بعض العلماء الربانيين والدعاة إلى الله تعالى المخلصين، وليس هذا بالأمر الغريب فهذا يتكرر في كل زمان؛ فقد قالها من قبل ورقة بن نوفل للنبي ﷺ حينما ذهب إليه مع السيدة خديجة رضي الله عنها وقص عليه ما حدث له في غار حراء فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزله الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: (أو مخرجي هم؟) قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا....

فهذه هي طبيعة طريق الدعوة إلى الله تعالى، ولذا فورثة الأنبياء من العلماء والدعاة هم أحوج إلى الصبر من غيرهم، والله يقول



لنبيه ﷺ ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾
 [المزمل: ١٠] وقال تعالى : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ
 مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف: ٣٥].

ومعنى قول ورقة بن نوفل يا ليتني فيها جذعاً يعنى شاباً قوياً ،
 وهذه الكلمة هي بمثابة رسالة الى كل من يتبع هذا الدين من
 الشباب والشابات على وجه الخصوص ، يحضهم فيها على
 الدفاع عن النبي ﷺ وعن الدين بكل قوة وذلك لما في الشباب
 والشابات من الطاقة والحيوية والتحمل والذي لم يوجد في غيرهم.

وكذلك المرأة المسلمة فهي حين تتحمل المرأة مسؤولية هذه
 المهمة، فإن عليها أن تعمل وتنطلق في عملها من قيم وتعاليم
 الإسلام، وقد صنع الإسلام داعيات إلى الله تعالى منذ بداية
 انطلاقتها، فالرسول ﷺ يقول في السيدة خديجة رضي الله عنها في
 الحديث: «لا والله ما أبدلني الله خيراً منها.. آمنت بي إذ
 كفر بي الناس وصدقني إذ كذبني الناس.. وواستني بماها
 إذا حرمني الناس.. ورزقني الله منها الولد دون غيرها من
 النساء»..

فكانت رضي الله عنها أول من نصر الإسلام، وأول من ساهمت في إقامة الدعوة الإسلامية، ووضع اللبنة الأولى فيها.

وكذلك السيدة عائشة رضي الله عنها أنها من علماء الصحابة - رضي الله عنه - ومن مفتيهم وهي أفقه نساء الأمة على الإطلاق وقد نقلت عن النبي ﷺ علما كثيرا طيبا مباركا فيه قال مسروق : رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض . وقال عطاء بن أبي رباح : كانت عائشة أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأيا في العامة . وقال هشام بن عروة عن أبيه : ما رأيت أحدا أعلم بفقهِه ولا بطب ولا بشعر من عائشة . وقال أبو بردة بن أبي موسى عن أبيه : ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها فيه علما وقال الزهري لو جمع علم عائشة إلى علم جميع العالمين المؤمنين وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل " ١.هـ الإصابة ١٨/٨ وهذا دليل على قوة المستوى الدعوي والعلمي للمرأة في الإسلام فأين هي اليوم؟

الصفة الخامسة: يلجؤون ويلجأون إلى الله تعالى بالدعاء.

أ- الرباني هو عبد دائم اللجوء إلى الله تعالى، فهو يقرع أبواب السماء بالدعاء، متبعاً لرسول الله ﷺ في ذلك فكان ﷺ يحرص كل الحرص على أن يسأل ربه استجابة دعاؤه، ويستعيد به سبحانه وتعالى أن لا يستجيب له، وهو المستجاب الدعاء قطعاً وبقيناً، وإنما بيان ذلك من لزوم العبودية لله تعالى، وتبليغ رسالته، وتعليم أمته، وبعدما ذكر الله محاسن وصفات الربانيين الفعلية، ذكر الله محاسنهم القولية فقال - تعالى - ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. أي: أن هؤلاء الأتقياء الأوفياء الصابرين ما كان لهم من قول في مواطن القتال وفي عموم الأحوال والمحن إلا الضراعة إلى الله عز وجل، وخص هنا ثلاثة أمور:

أولها: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ أي: إنهم يدعون الله تعالى بأن يغفر لهم ذنوبهم ما كان صغيراً منها وما كان كبيراً: وأن يغفر لهم (إسرافهم في أمرهم) أي ما تجاوزوه من

الحدود التي حداها لهم وأمرهم بعدم تجاوزها.

وثانيها: ﴿وَتَبَّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أي اجعلنا يا ربنا ممن يثبت لحرب أعدائك وقتاهم ولا تجعلنا ممن يوليهم الأدبار.

وثالثها: ﴿وانصرونا عَلَى القوم الكافرين﴾ أي: اجعل النصر لنا يا ربنا على أعدائك وأعدائنا الذين جحدوا وحدانيتك، وكذبوا نبيك وضلوا ضلالاً بعيداً.

وتأملوا معي هذه الدعوات الكريمة كيف جمعت من صدق اليقين، وحسن الترتيب. فهم قد التمسوا - أولاً - من خالقهم مغفرة ذنوبهم والتجاوز عما وقعوا فيه من أخطاء وهذا يدل على سلامة قلوبهم وتواضعهم واستصغار أعمالهم مهما عظمت أمام فضل الله تعالى ونعمه.

ثم التمسوا من الله تعالى - ثانياً - تثبيت أقدامهم عند لقاء الأعداء حتى لا يفروا من أمامهم.

ثم التمسوا من الله تعالى - ثالثاً - النصر على الكافرين وهو غاية القتال، لأن الانتصار عليهم يؤدي إلى منع وقوع الفتنة في الأرض، وإلى إعلاء كلمة الله تعالى.

ب- العبد الرباني رجل يعرف قيمة التضرع إلى الله تعالى بالدعاء فهو يجيد الدعاء.. ويجيد قرع أبواب السماء بالدعاء.

وهذا نموذج ساقه لنا رسول الله ﷺ من نماذج العبد الرباني في قصة غلام أصحاب الأخدود دعا ربه فأجابه فصدق الغلام في قصة "أصحاب الأخدود" في إرادة الوصول إلى الحق والتضحية في سبيله واستجابة الله تعالى لدعائه كما جاء في الحديث عن صهيب رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: ((كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبُرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبُرْتُ فَأَبْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أَعْلَمُهُ السِّحْرَ؛ فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، وَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَتَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ، وَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ، مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ». «فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمْ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجْرًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَأَقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمُضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ. فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيُّ بُنْيَ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ

سُتَبْتَلِي، فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ؛ وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِي الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيَدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ. فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَذَا هُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِلَّا مَا يَشْفِي اللَّهُ تَعَالَى، فَإِنْ آمَنْتَ بِاللَّهِ تَعَالَى دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَأَمَّنَ بِاللَّهِ تَعَالَى فَشَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيُّ بُنْيٍّ، قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِي الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ! فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِلَّا مَا يَشْفِي اللَّهُ تَعَالَى. «فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ؛ فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَن دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمُنْشَارِ فَوَضَعَ الْمُنْشَارُ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شَقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَن دِينِكَ، فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمُنْشَارُ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شَقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَن دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلٍ

كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذِرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ
 عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ . فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ،
 فَقَالَ: **اللَّهُمَّ أَكْفِيهِمْ بِمَا شِئْتَ**، فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ
 فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا
 فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ فَقَالَ: كَفَانِيَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، فَدَفَعَهُ إِلَى
 نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرُقُورٍ
 وَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاذْفُوهُ.
 فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: **اللَّهُمَّ أَكْفِيهِمْ بِمَا شِئْتَ**، فَاذْكَفَاتْ
 بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ. فَقَالَ لَهُ
 الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ فَقَالَ: كَفَانِيَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى.»
 «فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمُرُكَ
 بِهِ. قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ
 وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِدْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعْ
 السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ
 ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي
 صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِدْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ
 كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ
 رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوْقَ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي
 صُدْغِهِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَأْتِي

الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحَذَرُ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذْرُكَ. قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالْأُحْدُودِ بِأَفْوَاهِ السِّكِّكِ فَحُدَّتْ وَأُضْرِمَ فِيهَا النَّيْرَانُ وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَن دِينِهِ فَأَقْحَمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ ففَعَلُوا حَتَّى جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمُّهُ! اصْبِرِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ» (رواه مسلم: [٣٠٠٥]، وأحمد في المسند: [٢٣٩٣١]، وابن حبان: [٨٧٣]).

الصفة السادسة: هم وهن حفظة الشريعة والأمناء عليها.

أ- الربانيون هم الذين اسْتُحْفِظُوا كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى، أَي هُم الْمُسْتَوْلُونَ أَمَامَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ حِفْظِ الشَّرِيعَةِ، فَهَمُ الْأَمْنَاءُ عَلَيْهَا، وَعَنْ نَقْلِهَا وَتَعْلِيمِهَا لِعِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ هَذِهِ الصِّفَةِ ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾.. فالرباني يشعر أن الله تعالى سيسأله عن الشريعة كلها، وعن هذه البشرية جمعاء؛ لأنه طلب منه أن يحفظ وحيه، وحفظ الوحي لا يكون بمجرد حفظه في الأذهان والقلوب، لكنَّ

الحفظ الحقيقي يكون بحمله رسالة وحفظه أمانة والعمل بما فيه. فالربانية هي إصلاح للنفس والمجتمع.

ب- قام النبي ﷺ ذات يوم فذكر زماناً يرفع فيه العلم فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فشرح ببصره إلى السماء ثم قال: ((هذا أوانٌ يُختلسُ العلمُ من الناسِ حتى لا يقدرُوا منه على شيءٍ)) فقال زيادُ بنُ لبيدٍ الأنصاريُّ كيف يُختلسُ العلمُ منا وقد قرأنا القرآنَ فوالله لنقرأه ولنقرئنه نساءنا وأبناءنا !! فقال ﷺ: ((ثكلتك أمك يا زيادُ إن كنتُ لأعدُّك من فقهاء أهل المدينة هذه التوراة والإنجيلُ عند اليهود والنصارى فماذا تُغني عنهم؟)).

صحيح الترمذي ٢٦٥٣ وصححة العلامة الألباني.

والمقصود: أن رفع العلم يكون بموت العلماء، وابتعاد الناس عن العمل بالعلم، وقيل: هو موت النبي ﷺ وانقطاع الوحي، "حتى لا يقدرُوا منه على شيءٍ"، أي: لا يستطيعوا الوصول إلى شيءٍ من العلم. وأن اليهود والنصارى بين أيديهم التوراة والإنجيل وأهم لم يعملوا بما فيهما، ولم يفهما معانيهما وحرّفوهما، "فماذا تُغني عنهم؟"، أي: ما نفعتهما، وما استفادوا من مقصودهما؛ وهو العمل بما علموا.

وكانَّ النبي ﷺ يُريد أن يقول له ولنا: إن حفظ الوحي ليس بمجرد إيجاد طلاب له يحفظون القرآن، لكنه يُحفظ بتطبيق هذا القرآن في واقع الناس، هذا هو الحفظ، أما أن نقرأه ونُقرِّئه أبناءنا فقط فهذا شيءٌ جميلٌ لكنه ليس هو الذي يُحفظُ به الوحي، فكم من حُفَّاظٍ حفظوا القرآن والعلم لكنَّ قلوبهم الفاسدة دفعتهم لتملُّق هذا أو ذاك فحرَّفُوا الآيات عن معانيها، وأولوا القرآن على غير وجهه، واشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا.

ج- قال الفخر الرازي قوله تعالى ﴿بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ حفظ كتاب الله تعالى على وجهين:

الأول: أن يحفظ فلا ينسى، **والثاني:** أن يحفظ فلا يضيع.

وقد أخذ الله على العلماء حفظ كتابه من وجهين:

أحدهما: أن يحفظوه في صدورهم ويدرسوه بألسنتهم.

والثاني: ألا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه.

الصفة السابعة: لا يخشون ولا يخشين إلا الله تعالى.

أ- من صفات الربانيين الذين حفظوا وحيَّ الله تعالى ودينه أنهم لا يخشون في حملهم لهذا الدين وهذه الرسالة إلا الله ربَّ العالمين

عملا بأمر الله تعالى لهم: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْني وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة: ٤٤].. يُحذّر الله تبارك وتعالى الأمة الربانية الصالحة ألا تجعل كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ بابًا من أبواب التملق والمجاملة لبعض الناس في مقابل عرض من الدنيا ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.. كيف يشتري العبد آيات الله ثمنًا قليلًا؟! يكون ذلك بأن يترك الآية أن يذكرها؛ لأن بعض الناس لا يُعجبهم أن يسمعوها، أو يذكر الآية ويؤوّلها على غير وجهها خدمة لأغراضه وأغراض من يدفع له، أو يذكر الآية ثم يعارضها برأيه وهواه ولا يستجيب لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ، وهذا كله دعا له اليهود وحذّرنا الله تعالى منه.

ب - كان في التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام أن الزاني المحصن يُرجم بالحجارة، فلما كثر الزنا في أشرافهم قام أحرارهم بتبديل حكم الله عز وجل، فاتفقوا فيما بينهم على إلغاء عقوبة الرجم، واستبدلوا بها عقوبة سموها التحميم والتجبيه، بمعنى: أن يسود وجه الزاني ويُحمّل على حمارٍ على هيئة مُزريّة فيجعل وجهه إلى ذيل الحمار وقفاه إلى رأس الحمار ويُطاف به، ولا يُرجم، فلما جاء الحبيب ﷺ جاءوه برجل وامرأة منهم زنيًا، وقالوا: اذهبوا إلى محمد، فإن أفتاكم بالرجم فلا تقبلوا منه، وإن أفتاكم بالتحميم والتجبيه فخذوا منه، ف جاءوا إلى النبي ﷺ فقال:

((ما تجدون في كتاب الله التوراة؟))، قالوا: نُجِدُ التَّحْمِيمَ والتَّجْبِيهَ، قال: ((فَأْتُوا بِالتُّورَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ))، فجاءوا بالتوراة وحيء بقارئ منهم أعور، فجعل يقرأ حتى وصل إلى آية الرجم، فوضع يده عليها وتلا ما بعدها، فقال عبد الله بن سلام: يا رسول الله قل له فَلْيَرْفَعْ يَدَهُ، فرفع يده فتلا الآية، فإذا هي آية الرجم، فقالوا: نزلت آية الرجم، لكنَّ أشرافنا لما كُثِرَ فيهم الرِّبَا اتفقنا على هذا الأمر..!!

ت - والربانيون هم الذين لا يخشون إلا الله تعالى ويصدعون بالحق ولا يخافون في الله لومة لائم، قال تعالى عنهم: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) سورة آل عمران .

عَنْ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ. أخرجه مالك في "الموطأ" ١٢٨٧ و"أحمد" ٤٤١/٣ (١٥٧٣٨) والبخاري "٩/٩٦ (٧١٩٩) و"مسلم" ١٦/٦ (٤٧٩٦).

الصفة الثامنة: لا يقولون ولا يقلن إثماً، ولا يأكلون ولا يأكلن سحتاً بل يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

أ- الربانيون حراس على منهج الله تعالى فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، لا يقولون إلا حقاً ولا يأكلون سحتاً؛ فهم يأمرون قومهم بذلك كما وصفهم الله تعالى بذلك: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُم الرِّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾

فمتى تخلى الرباني عن هذه الصفة استحق - واستحقت الأمة - اللعن.. يقول تعالى: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾ * لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرِّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٢، ٦٣].

ب- وقد تكلم المفسرون عن السر في أن الله تعالى - ذم اليهود بقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾ وذم علماءهم وفقهاءهم بقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

وقد أجاد الكلام عن ذلك الإمام الرازي فقال: ... وذلك يدل على أن تارك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه، لأنه - تعالى - ذمَّ الفريقين.. بل نقول: إن ذم تارك النهي عن المنكر أقوى، لأنه - سبحانه - قال في المقدمين على الإثم والعدوان وأكل السحت ﴿لِبئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقال في العلماء التاركين للنهي عن المنكر ﴿لِبئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ والصنع أقوى من العمل، لأن العمل إنما يسمى صناعة إذا صار راسخاً متمكناً، فجعل جرم العاملين ذنباً غير راسخ. وذنب التاركين للنهي عن المنكر ذنباً راسخاً. والأمر في الحقيقة كذلك، لأن المعصية مرض الروح، وعلاجه العلم بالله تعالى وبصفاته وبأحكامه، فإذا حصل هذا العلم وما زالت المعصية كان كمثل المرض الذي شرب صاحبه الدواء إلا أن المرض بقي كما هو. وقال ابن جرير: كان العلماء يقولون: ما في القرآن آية أشد توبيخاً للعلماء من هذه الآية، ولا أخوف عليهم منها.

ج- ويحذّر الرسول ﷺ الأمة إذا رأت الفساد ولم ترفع راية الإصلاح، إذا رأت الظلم ولم تدع إلى العدل، من أن ينزل بها العقاب العام، يقول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]..

فحين يَنْزِلُ البلاءُ لن يأخذ الظالمين وحدهم، إنما سيَشْمَلُ الظالمين والسَّاكِتين.. ذَكَرَ الإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ جَرِيرٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ((مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، وَهُمْ أَعَزُّ وَأَكْثَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُهُ، فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ)) .

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: أَيُّ فُلَانٍ، مَا شَأْنُكَ؟ أَلَسْتَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: بَلَى، كُنْتُ أَمُرُّكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَأَكُمُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ)) .

وَذَكَرَ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ حَدِيثِ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَتْلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَإِنَّكُمْ تَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((إِنْ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ - وَفِي لَفْظٍ: إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ - أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ)) .

ويقول **صلى الله عليه وسلم**: ((إِذَا رَأَيْتُمْ أُمَّتِي تَهَابُ الظَّالِمَ أَنْ تَقُولَ لَهُ: إِنَّكَ أَنْتَ ظَالِمٌ، فَقَدْ تُودِعَ مِنْهُمْ)) رواه الحاكم وأحمد والبخاري ومطابقه، وقد صحح الحاكم إسناده ووافقه الذهبي، وصحح الهيثمي بعض أسانيد أحمد والبخاري.

ومعنى تُودِعَ منهم أي: تودعهم الله تعالى وتركهم لاستواء وجودهم وعدمهم، واستنبط منه أن ترك إنكار المنكر من أسباب خذلان الله تعالى للأمة، وقد ذكر المناوي في شرح الحديث أن إنكار منكر الولاية بالفحش في القول كـ **(يا ظالم)** إن تعدى شره للغير امتنع وإن لم يخف إلا على نفسه جاز بل ندب، فقد كانت عادة السلف التصريح بالإنكار.

والمقصود أي: صارت أُمَّةً لا معنى لها، إذا رأيت الأمة تركت فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأت الفساد ولم تتكلم، ورأت الظلم وسكتت، في هذه الحالة فإن الأمة تستحق من الله - تبارك وتعالى - المقت، ويقول **صلى الله عليه وسلم**: ((إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّهُ لَا يَجِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ وَهُوَ عَلَى حَالِهِ، فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكْيَلَهُ وَشَرِيْبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ

داود وعيسى بن مريم، فقال تبارك وتعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة. (٧٨) ، (٧٩)].

ثُمَّ قَالَ: كَلَّا، وَاللَّهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَيَّ يَدُ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرَنَّهُ عَلَيَّ الْحَقُّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرَنَّهُ عَلَيَّ الْحَقُّ قَصْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ ((رواه أبو داود والترمذي وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ. هَذَا لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ.

يعني رسول الله ﷺ: احذروا أن تُشابهوا اليهود فيما فعلوا.

د- لِيَعْلَمَ هَذَا كُلُّ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ الرِّبَانِيَّةَ إِصْلَاحٌ لِلذَّاتِ فَقَطْ أَوْ انْعِزَالٌ عَنِ المَجْتَمَعِ وَعَدَمُ مَخَالَطَةِ النَّاسِ، لَا إِنْ الرِّبَانِيِّينَ لَهُمُ دَوْرٌ فِي عَمَلِيَّةِ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى الإِصْلَاحِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى تَغْيِيرِ الظُّلْمِ وَالفَسَادِ عَلَى مَسْتَوَى الفِرْدِ وَالمَجْمَاعَةِ وَالأُمَّةِ كَلِّهَا، وَإِلَّا اسْتَحَقَّتِ الأُمَّةُ أَنْ تَدْخُلَ فِي لَعْنَةِ اللَّهِ تَعَالَى، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا

بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ*
 وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْيَةَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا
 مُصْلِحُونَ ﴿هود: ١١٦، ١١٧﴾ .. إذن لا بد للأمة أن تنهى
 عن الفساد في الأرض.. إن الذي يُنَجِّي الأمم من الهلاك أن
 يتعوّد أفرادها الإصلاح وليس الصّلاح.. لم يقل وأهلها صالحون،
 لكن قال: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

هـ- إن الربّاني لا يكون ربانياً على الحقيقة إلا إذا كان له دورٌ
 في إصلاح الناس، في إصلاح بيته وأسرته وجيرانه والناس من
 حوله، بيده إن أمكنه التغيير بيده، وبلسانه إن أعجزه التغيير أن
 يكون بيده، ثم بقلبه إن أعجزه هذا وذاك، ويتّحىن الفرص
 للإصلاح.. روى ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب رضي الله
 عنه أنه خطب خطبة فقال لأولئك الذين يجبّون عن الأمر
 بالمعروف والنهي عن المنكر؛ خوفاً على أرزاقهم أو آجالهم: أيها
 الناس إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كان يُعمَل فيهم بالمعاصي
 فلا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر.. أيها الناس إن الأمر
 بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا يُقرب أجلاً.

فكثيرٌ من الناس يَحْشَى على نفسه وورزقه وأولاده من أن يأمر بالمعروف وأن يَنْهَى عن المنكر وبعض الناس يقول: عليّ نفسي، يَكْفِينِي أن أكون صالحًا في نفسي، وهؤلاء الظَّالِمُونَ الفاسدون الله يَتَوَلَّى أمرهم.

و- يذكرنا الله عز وجل بنموذج من أُمَّةٍ انتشر فيها هذا الفهم الخاطيء الفاسد: كان الله حَرَّمَ على بني إسرائيل الصيدَ في يوم السبت، ثم شاءتْ حكمتُه أن لا يأتي السمك إلى المياه إلا في يوم السبت، فأرادتْ بنو إسرائيل أن تَعْصِي أمرَ الله - عز وجل - وأن تَحْتَالَ على أمر الله ومنهجه، فقاموا بعمل أقنية وسدود بحيث إذا جاء السَّمَك يوم السبت دخل من هذه السدود ثم سدوها ليصطادوا يوم الأحد، ويحتالوا بذلك على رب العزة - جل وعلا - فقامت طائفةٌ قَوَّامَةٌ بالحق، قامت الطائفةُ الرَّبَّانِيَّةُ التي تَفْهَم ما معنى الرَّبَّانِيَّةِ، فقالوا: يا قوم أنتم تَحْتَالُونَ على أمر الله، وهذا حرام، فقامت طائفةٌ أخرى وقالوا لهم: لِمَ تُتَعَبُونَ أنفسكم؟! دَعُوا الظالم لِرَبِّهِ ينتقم منه، قالوا: مَعذِرَةٌ إلى ربكم، لعلَّ دعوة الإصلاح والخير أن تُقَابِلَ قَلْبًا فيه بَقِيَّةٌ من خير، لعلَّ ذلك

يُلامِسُ فِطْرَةَ سَلِيمَةٍ فِي قُلُوبِ الظَّالِمِينَ وَالْفَاسِدِينَ فَيَرْجِعُونَ إِلَى رَبِّهِمْ.

ماذا كانت النتيجة في النهاية؟! أُنجى اللهُ تعالى الذين قاموا بواجبهم، وأُخذَ الذين ظلموا بعذابٍ بئسَ بما كانوا يفسقون، وفي ذلك كله يقول اللهُ تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٣ - ١٦٥).

الصفة التاسعة: الغنى بالله والزهد فيما عند الناس.

العبد الرباني غني بالله تعالى وزاهد فيما عند الناس: فالعالم الذي أراد بعلمه وجه الله تعالى يستشعر عظم نعمة الله تعالى عليه

بتوفيقه للعلم، فلا يذل نفسه أبداً ولا يشتري بعلمه ثمناً قليلاً من حطام الدنيا الفاني، ولهذا كان العلماء الربانيون في وادٍ والناس في وادٍ آخر. إنه العلم الذي عرفوا به ربهم فعظموه، وتمكنت خشيته من قلوبهم فهانت عليهم الدنيا.

يقول ابن تيمية رحمه الله: ما يصنع بي أعدائي؟ إن سجنني خلوة، وإخراجي من بلدي سياحة، وقتلي شهادة في سبيل الله. ولقد كان شعار الأنبياء والمرسلين عند دعوتهم لأقوامهم: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ إذن فالذي يميز العلماء الربانيين عن غيرهم هو المنهج الذي يقتفونه، والمنهج الذي يسرون عليه، فالعلماء الربانيون المتبعون للكتاب والسنة قولاً وعملاً والمتمسكون بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم، سواء في باب العقائد أو الأعمال، ينفون عن الدين ما ليس منه من البدع والخرافات قال رسول الله ﷺ:

((يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلِ الْجَاهِلِينَ)).
صححه الشيخ الألباني. مشكاة المصابيح كتاب العلم الفصل الأول الجزء ١ ص / ٥٣ .

وأما علماء السوء ودعاة الضلالة فهم على نقيض ذلك كما قال الإمام أحمد في وصفه لأهل البدع: هم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مخالفة الكتاب يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويلبسون على جهال الناس... فهم أصحاب ابتداع وتحريف وتعطيل للنصوص الشرعية، يشترون الدنيا بالدين كما قال تعالى في أمثالهم من أهل الكتاب: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (آل عمران: ١٨٧). وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٤).

قد يأمرن بالمعروف ولكنهم لا يفعلونه وينهون عن المنكر ولكنهم يأتونه، وفي هذا يقول ابن القيم رحمه الله: علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، وهؤلاء يجب الحذر منهم كما قال أبو قلابة من أئمة السلف: لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تحدثوهم فإني لا آمن أن يغمروكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم ما تعرفون.

فالعلماء الربانيون نور يهتدى بهم في الطريق إلى الله تعالى.. ونبراس يستضاء به في السير إلى الدار الآخرة.. وهم ورثة الأنبياء، وفضلهم معلوم لكل مخلوق حتى الحيتان في البحر والنملة في جحرها. فهم يطلبون الله تعالى بعلمهم، فيطابق قولهم فعلهم، قال أبو عمر الزاهد سألت ثعلبا عن هذا الحرف وهو الرباني فقال سألت ابن الأعرابي فقال إذا كان الرجل عالما عاملا معلما قيل له هذا رباني فإن خرم عن خصلة منها لم نقل له رباني. ابن القيم: مفتاح دار السعادة ١٨٤.

قال النووي رحمه الله: " العلماء الربانيون الذين ورثوا النبي ﷺ علماً وعبادة وأخلاقاً ودعوة، وهؤلاء هم أولو الأمر حقيقة، لأن هؤلاء يباشرون العامة، ويباشرون الأمراء، ويبينون دين الله ويدعون إليه". شرح النووي ١١٦.

قال أبو الحسن الماوردي رحمه الله: "رَجَّحَ كَثِيرٌ مِنَ الْحُكَمَاءِ حَقَّ الْعَالِمِ عَلَى حَقِّ الْوَالِدِ". من "أدب الدنيا والدين" (ص ٦٩).

الصفة العاشرة: استحقوا أن يلقبوا بعباد الرحمن حقاً.

فلقد جمع الله تعالى لهم هذا الوصف الكريم فهم عباد الرحمن حقاً ، وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُخْرِجُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا

(٧٤) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً
وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنْتَ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿
(٧٦) سورة الفرقان

والربانيون هم : ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ
فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى
أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ
ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ
لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ
الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) سورة المؤمنون .

والربانيون هم : ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا
تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ
هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ ﴿ (٤) سورة الأنفال .

فالربانيون هم أولئك الذين أخلصوا لله تعالى في عبادتهم ،
 فعبدوه وحده بحق وصدق وبما شرع وباتباع صادق لرسول الله
 ﷺ امثالاً لقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
 فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ
 وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى
 اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ
 اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (٣) سورة الزمر .

ولقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ
 وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ
 أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا
 وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا
 تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا
 كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (١٦٤) سورة الأنعام .

وامثالاً لقول النبي ﷺ : ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا
 مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ)). أخرجه النسائي ٢٥/٦
 عن أبي أمامة الباهلي وفي "الكبرى" ٤٣٣٣ .

قال بعض اهل العلم: "فالعالم بمفهومه الديني في الإسلام قائد؛ ميدانه النفوس، وسلاحه الكتاب والسنة، وتفسيرهما العملي من فعل النبي ﷺ وفعل أصحابه الكرام رضي الله عنهم، وعونه الأكبر على الانتصار في هذا الميدان أن ينسى نفسه، ويدوب في المعاني السامية التي جاء بها الإسلام، وأن يطرح حظوظها وشهواتها من الاعتبار، وأن يكون حظه من ميراث النبوة أن يزكي ويعلم، وأن يقول الحق بلسانه، ويحققه بجوارحه، وأن ينصره إذا خذله الناس، وأن يجاهد في سبيله بكل ما آتاه الله تعالى من قوة، أما الوسيلة الكبرى في نجاحه في هذه القيادة فهي أن يبدأ بنفسه في نقطة الأمر والنهي.

فليس الرباني هو مَنْ ينعزل على نفسه في بيته ذاكراً مُسَبِّحاً تَالِيًا للقرآن، قائماً لليل، عابداً لله تعالى، ثم يعتزل الناس، ولا يكون له شأنٌ بما في الحياة من ظلمٍ أو فسادٍ، لا يُقاوم الفسادَ، ولا يُجَارِبُ الظلمَ، ولا يأمر بمعروفٍ ولا ينهى عن منكر، هذه هي الرَّهْبَانِيَّةُ التي حَدَّرْنَا منها الله عزَّ وجل، والتي تقول: دَعْ مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلَّهِ لِلَّهِ، فكل شيء لله تعالى وليس لِقَيْصَرَ فيه شيء،

فالرَبَّانِيَّةُ هي عبادةٌ وذكرٌ وأورادٌ وتسييحٌ واتصالٌ برب العالمين، ثم خروجٌ إلى الحياة لإصلاحها، وسعيٌ لنشر العدل ومنهج الله تبارك وتعالى فيها، ومقاومةٌ لردائل الأخلاق وأسباب الفساد، هذه هي الربانية والروحانية الحقيقية، روحانيةٌ اجتماعيةٌ لا انعزالية، إيجابيةٌ تُحرِّك صاحبها إلى فعل الخير وإصلاح النفس والآخرين، لا روحانيةٌ فرديةٌ تدعو صاحبها لأن يترك الحياة وما فيها والدنيا وما عليها، فهذا خلافٌ منهج الله تعالى ورسله عليهم السلام، وهل كان عمل الأنبياء إلا معاناة الخلق؟

هل كان عملُ الأنبياء أن يأخذوا الرسالة ويقعدوا في بيوتهم، أم أن عملهم كان هو الانتشار بين البشرية لإصلاح فسادها، وتقويم عوجها؟ ما من نبيٍّ جاء إلا ودعًا إلى تقويم العوج الموجود كما قال تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ (هود: ٨٤).

هذه هي دعوة الربانيين الذين أمرنا الله تبارك وتعالى أن نكون منهم، وهي عملٌ يجمع الصَّالِحَ إلى الصَّالِحِ، واليدَ المُصْلِحَةَ إلى اليدِ المُصْلِحَةِ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، الصَّالِحُونَ والمُصْلِحُونَ في حاجةٍ لأن يَضَعَ بعضهم يده في يد

بعض، فالجاهلية المنظمة المجتمعة تحتاج إلى إسلام رباني منظم
 مجتمعة ليواجهها، الكافرون المفسدون الذين يعملون ضمن
 عصابات وجماعات لا يمكن أن يقاوموا إلا بأمة مجتمعة، يد
 بعضها على يد بعض ليكونوا كما أمر الله تعالى وعملاً بوصيه
 أنبياء ورسول الله تعالى الذين كانوا ربانيين .

قال تعالى:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ
 يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا
 رَبَّانِينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

٩ - من هم العلماء الربانيين والربانيات؟

إن المتبصر في حال أمتنا اليوم يجد أنها أحوج ما تكون إلى علماء ربانيين يرشدونها إلى طريق الحق والهدى والنجاة، خاصة في ظل هذه الفتن المتراكمة، والمحن المتلاطمة التي تعصف بالأمة الإسلامية من كل جانب.

فالسادة العلماء هم ورثة الأنبياء الذين هم على الحق أدلاء، فهم منارات الهدى ومصابيح الدجى، الذين ينيرون للناس الطريق، ليصلوا بهم إلى مدارج التوفيق. قال الإمام ابن القيم رحمه الله واصفًا لهم: "هم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء بهم يهتدي الحيران في الظلماء؛ وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب" (إعلام الموقعين [١/٩]). وصدق القائل:

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم *** على الهدى لمن استهدى أدلاء



العلماء الربانيون هم صمام أمان الأمة؛ فهم حملة الدين، والدائدون عن حماه، والمدافعون عن بيضته، يستمدُّ منهم غيرهم قوةً في زمن الأزمات، ويستنير الناسُ بهديهم في أوقات الملمات، ويتبعون آراءهم، ويصدرون عن أقوالهم.

وقد مرّت بهذه الأمة كثيرٌ من الأحداث العظام، والأمور الجسام، كان للعلماء فيها الدور الأكبر في تثبيت الأمة وإرشادها، وقيادة دفتها، ومن أهمّ تلك الأحداث غزو المغول للعالم الإسلامي.

قال العلامة المناوي رحمه الله: "لأن الميراث ينتقل إلى الأقرب وأقرب الأمة في نسبة الدين العلماء الذين أعرضوا عن الدنيا وأقبلوا على الآخرة وكانوا للأمة بدلاً من الأنبياء الذين فازوا بالحسنين العلم والعمل وحازوا الفضيلتين الكمال والتكميل" اهـ (فيض القدير [٤/٣٧٤]).

قال الشاعر:

لله قوم أخلصوا في حبه * * * فرضي بهم واختصهم خداما
 قوم إذا جن الظلام عليهم * * * باتوا هنالك سجداً وقياماً
 خص البطون من التعفف ضمرا * * * لا يعرفون سوى الحلال طعاماً

قال الإمام مالك رحمه الله: "بكى ربيعة يوماً بكاء شديداً ف قيل له: أمصيبة نزلت بك؟ فقال: "لا! ولكن استُفتي من لا علم عنده وظهر في الإسلام أمر عظيم" (الباعث على إنكار البدع لأبي شامة ص: ١٧٥). هذا كلام قاله مالك في زمانه! حيث كانت السنة ظاهرة والعلماء متوافرون؟ فكيف نقول عن حالنا في هذا الزمان؟ الذي ابتلينا فيه بترأس الجهال وابتلي الناس بضعف التمييز بين الربانيين من العلماء وأشباههم من الأدعياء؛ فوقع الخلط والخبط والتعصب والتلاعب. فما أحوجنا في هذه الأزمان إلى التمسك بغرز العلماء الربانيين الذين تجمع الأمة عليهم فيؤصلون ويعلمون ويربون سيراً على المنهج النبوي القويم عقيدة ومنهجاً وسلوكاً؛ ليأخذوا بهذه الأمة إلى الطريق المستقيم.

والربانيون هم العلماء العاملون الذين يخشون الله حق خشيته، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (٢٨) **إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ** (٢٩) **لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ** (٣٠) ﴿سورة فاطر.

فهم لا يطلبون العلم إلا لله تعالى ولا يعلمونه إلا لله تعالى، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)). يَعْنِي رِيحَهَا. أَخْرَجَهُ "أحمد" ٢/٣٣٨ (٨٤٣٨) و"أبو داود" و"ابن ماجة" ٢٥٢ و"ابن حبان" ٧٨ .

والربانيون هم أولئك الذين يعيشون مع كتاب الله تعالى تلاوة وحفظاً وتدبراً وعملاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوفِّيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠)﴾ سورة فاطر.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: اقْرَأْ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْرَأْ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَرَأْتُ سُورَةَ النَّسَاءِ، حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قَالَ: حَسْبُكَ الْآنَ، فَالْتَفَتُ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرِفَانِ.

أخرجه أحمد ١/٣٨٠ (٣٦٠٦) والبُخاري (٥٧/٦) (٤٥٨٢).
قال الحسن البصري: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة
وفي الذكر وفي قراءة القرآن فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب
مغلق.

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم: إني لا أقدر على قيام الليل
فصف لي دواء؟ قال: " لا تعصه بالنهار، وهو يقيمك بين يديه
بالليل، فإن وقوفك بين يديه في الليل من أعظم الشرف،
والعاصي لا يستحق ذلك الشرف.."

والربانيون هم أولئك الذين يتورعون عن الشبهات فلا
يأكلون إلا طيباً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي
الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ
عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ
تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩)﴾ سورة البقرة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ ،
إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا
أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ ، فَقَالَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ
الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ وَقَالَ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ، ثُمَّ ذَكَرَ : الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ، ثُمَّ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ ، يَا رَبِّ ، يَا رَبِّ ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغَدِي بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ)). أخرجه "أحمد" ٣٢٨/٢ (٨٣٣٠) والدارمي " ٢٧١٧ و"البخاري" في "رفع اليدين" ٩١ و"مسلم" ٢٣٠٩ و"الترمذي" ٢٩٨٩ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : ((أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَبِيعُ الْخَمْرَ فِي سَفِينَةٍ وَكَانَ يَشُوبُهُ بِالْمَاءِ وَكَانَ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ قِرْدٌ قَالَ فَأَخَذَ الْكَيْسَ وَفِيهِ الدَّنَانِيرُ قَالَ فَصَعِدَ الدَّرْوُ يَعْنِي الدَّقْلَ فَفَتَحَ الْكَيْسَ فَجَعَلَ يُلْقِي فِي الْبَحْرِ دِينَارًا وَفِي السَّفِينَةِ دِينَارًا حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهِ شَيْءٌ)). .. رواه أحمد (٢ / ٣٠٦ و ٣٣٥ و ٤٠٧) والبيهقي في " شعب الإيمان " (٤ / ٣٣٢ / ٥٣٠٧) السلسلة الصحيحة " ٦ / ٨٢٦ .

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ غُلَامٌ يُخْرِجُ لَهُ الْخِرَاجَ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَأْكُلُ مِنْ خِرَاجِهِ فَجَاءَ يَوْمًا بِشَيْءٍ فَأَكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ لَهُ الْغُلَامُ أَتَدْرِي مَا هَذَا فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَمَا هُوَ قَالَ كُنْتُ تَكْهَنْتُ لِإِنْسَانٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَمَا أَحْسِنُ الْكِهَانَةَ إِلَّا أَنِّي لُحِدَعْتُهُ فَلَقِينِي فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ فَهَذَا الَّذِي أَكَلْتُ مِنْهُ فَأَدْخَلَ أَبُو

بَكَرَ يَدَهُ فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ.

وجاء في بعض الروايات أنه قال: والله لو لم تخرج إلا مع روحي لأخرجتها إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به)). أخرجه البخاري (٣/١٣٩٥، رقم ٣٦٢٩)، والبيهقي (٦/٩٧، رقم ١١٣٠٧).

والربانيون هم أولئك الذين يحبون الخير لجميع الناس فلا يحقدون ولا يغشون ولا يحسدون، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ سورة الشعراء .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو. قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ. قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: ((هُوَ النَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلًّا، وَلَا حَسَدًا)). أخرجه ابن ماجة (٤٢١٦) الألباني في "السلسلة الصحيحة" ٢ / ٦٦٩.

وعن الزُّهريِّ ، عن أنسِ بنِ مالكٍ ، قالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، تَنْطَفُ حَيْثُ مَاءٌ مِنْ وَضُوئِهِ ، مُعَلَّقٌ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ مَرْتَبَتِهِ الْأُولَى ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ مَرْتَبَتِهِ الْأُولَى ، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، تَبِعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ ، فَقَالَ : إِنِّي لِأَحِيتُ أَبِي ، فَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُوَوِّبَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَحِلَّ يَمِينِي فَعَلْتَ ، فَقَالَ : نَعَمْ ، قَالَ أَنَسٌ : فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ يُحَدِّثُ : أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ لَيْلَةً ، أَوْ ثَلَاثَ لَيَالٍ ، فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ بِشَيْءٍ ، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا انْقَلَبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللَّهَ وَكَبَّرَ ، حَتَّى يَقُومَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ ، فَيُسَبِّغُ الْوُضُوءَ ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : غَيْرَ أَنِّي لَا أَسْمَعُهُ يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا ، فَلَمَّا مَضَتِ الثَّلَاثُ لَيَالٍ كِدْتُ أَحْتَقِرُ عَمَلَهُ ، قُلْتُ : يَا عَبْدَ اللَّهِ ، إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ وَالِدِي غَضَبٌ وَلَا هَجْرَةٌ ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فِي ثَلَاثِ مَجَالِسٍ : يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَطَلَعْتَ أَنْتَ تِلْكَ الثَّلَاثَ مَرَّاتٍ ،

فَأَرَدْتُ آوِي إِلَيْكَ ، فَأَنْظُرْ عَمَلَكَ ، فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَبِيرَ عَمَلٍ ،
فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَ : مَا هُوَ إِلَّا مَا
رَأَيْتَ ، فَأَنْصَرَفْتُ عَنْهُ ، فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي ، فَقَالَ : مَا هُوَ إِلَّا مَا
رَأَيْتَ ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي غِلًّا لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا
أَحْسُدُهُ عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو : هَذِهِ
الَّتِي بَلَغْتَ بِكَ ، وَهِيَ الَّتِي لَا نَطِيقُ .

أخرجه أحمد ١٦٦/٣ (١٢٧٢٧) وقال محققه شعيب
الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، ورواه الترمذي
(٣٦٩٤) و"النسائي"، في "عمل اليوم والليلة" ٨٦٣، والطبراني
والحاكم في المستدرک (٧٣/٣) وصححه ووافقه الذهبي.

لذا كان من دعاء النبي ﷺ : ((اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ
وَمَلِيكُهُ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، وَحَدَّكَ لَا شَرِيكَ
لَكَ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ
نَفْسِي ، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّكَ ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي
سُوءًا ، أَوْ أَجْرَهُ إِلَى مُسْلِمٍ)) . أخرجه أحمد ١٤/١ (٨١).

والربانيون هم أولئك الذين : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ
وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ
أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١)
وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ
عُقُوبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ
آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ
كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ
(٢٤) ﴿ سورة الرعد.

فالوفاء شيمتهم، والأمانة والصدق شعارهم، وحفظ العهد
أخلاقهم، والكرم والمروءة طبعهم، والإحسان خلقهم، والتقوى
زادهم، والورع ديدنهم، ومرضاة الله تعالى غايتهم، والفوز بالجنة
مقصدهم.

١٠ - نماذج من العلماء الربانيين والربانيات.

إن أكبر مشكلة تواجهها الأمة الإسلامية اليوم تتمثل في قلة وجود العلماء الربانيين الذين يأخذون بنواصي أفرادها إلى الخير، فمهمة العالم الرباني شاقة جداً، وهم مبتلون بتحريف النص عنهم أيضاً، وإشاعة الإشاعات والأراجيف أيضاً عنهم، فلا يكاد يسلم عالم رباني من إشاعات مفرضة تشوه تاريخه،

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، وقال الله تعالى: ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ، قال ابن عباس رضى الله عنهما: للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة، ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ، وفي الحديث قال رسول الله ﷺ : ((وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهماً، إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ فَقَدْ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ)). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ

وَالْتَّرْمِذِيُّ وَأَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهَ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:
 وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا
 سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ
 أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ
 فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحَيْتَانُ فِي الْمَاءِ
 وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ
 الْكَوَاكِبِ إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا
 دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطِّ
 وَافِرٍ)). رواه الترمذي (٢٦٤٦)

فهذا هو شرف العلم الشرعي لأنه ميراث النبي ﷺ فمن أخذه
 فقد فاز بحظ وفير وخير كثير.

فالعلم الشرعي به صلاح القلوب والعبادات والأخلاق
 والسعادة في الدنيا والآخرة ولذا لا يجوز تعلمه إلا بقصد الثواب
 والأجر من الله.

أما العلوم الدنيوية فمن طلبها لأجل المال والدنيا فليس عليه
 إثم لأن المقصود بها اصلاً إصلاح الدنيا، لكن لو تعلمها ينوي
 بتعلمها نفع المسلمين والإحسان إليهم كان له أجر على تلك
 النية الطيبة.

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَتْ طَائِفَةٌ طَيِّبَةً، قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا. وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قَيْعَانٌ لَا تَمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ)) متفقٌ عَلَيْهِ.

وإن الفقهاء أولي الفهم، كمثل البقاع التي قبلت الماء فأنبتت الكلاء، لأنهم علموا وفهموا، وفرعوا وعلموا. وأما الناقلون من المحدثين الذين لم يرزقوا الفقه والفهم، فهم كمثل الأجادب التي حفظت الماء، حفظوا ما سمعوا عن النبي ﷺ فانتفع بما عندهم، وأما الذين سمعوا ولم يتعلموا ولم يحفظوا، فهم العوام الجهلة. وقال الحسن رحمه الله: لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم.

وَمِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ: ((مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي، إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ، وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِذَا تَخَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ، لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةٌ خَرْدَلٍ)) . رواه مسلم .

والحواريون: جمع حواري، وهم خُلصان الأنبياء، أي: الذين أخلصوا في حب أنبيائهم، وخلصوا من كل عيب، وحواري الدقيق: الدقيق الذي نُحِل؛ قاله الأزهري.

وقال ابن الأنباري: هم المختصون المفضلون، وسمي خبز الحواري؛ لأنه أشرف الخبز.

وقيل: هم الناصرون لأنبيائهم؛ كما قال ﷺ: (لكل نبي من أُمَّتِهِ حَوَارِيُونَ، وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزبير) " انتهى.

ولقد أخذ الله تبارك وتعالى العهد على العلماء ليبينه للناس ولا يكتمونهم، لأن الحياة لا تستقيم إلا حين يستقيم هذا الصنف من البشر.

صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس . العلماء، والأمراء . فالعلماء يحيون القلوب ويربون الأرواح ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويأخذون بأيدي العباد إلى جادة الصواب وينيرون الطريق فيخرجونهم بشرع الله من الظلمات إلى النور، والأمراء يسوسون الدنيا بدين الله تبارك وتعالى ويدعون ويأخذون على أيدي العابثين.

لذلك قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: " **إن الله تعالى يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.**"

لأن السلطان يملك الآلة التي يضرب بها على يد العابثين والمفسدين، فالله تبارك وتعالى أنزل آيات بينات وأنزل الحديد فيه بأس شديد، فكان قوام هذا الدين كتاب هدي وسيف ينصر **﴿وَكَفَىٰ بَرِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (٣١)** سورة الفرقان

العلماء الربانيون الذين ساسوا هذه الأمة قاموا فيها مقام الأنبياء من بني إسرائيل.

قال النبي ﷺ: ((كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ،
كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَتَكُونُ
خُلَفَاءُ فَتَكْتُمُرُ، قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: فُوا بِبَيْعَةِ الْأَوَّلِ،
فَالأَوَّلِ، وَأَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا
اسْتَرْعَاهُمْ.)) رواه مسلم.

أما هذه الأمة فإن الله تعالى يبعث لها على رأس مائة عام من
يجدد لها أمر دينها لما رواه أبو داود من حديث أبي هريرة رضي
الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى
رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا)) صححه العلامة
الألباني .

فمن رحمة الله بالأمة الإسلامية أنه يتعاهدها بوجود العلماء أو
الحكام، الذين ينشرون الدين كما كان على عهد النبي ﷺ
وصحابته رضي الله عنهم .

وفي هذا الحديث يقول النبي ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ، أَي: يرسل، ويوجد ويقيض، "هذه الأمة"، أي: أمة المسلمين، وقيل: للعالم كله، "على رأس كل مائة سنة"، أي: انتهائها أو أولها، عندما يقل الدين وتهجر السنن ويكثر الجهل والبدع، "من يجدد لها دينها"، أي: يظهر ما نسي وهجر العمل به من الدين، وينشر السنن، ويحارب البدع.

أي: يأخذوا بناصية الأمة إلى جادة الصواب، يأخذها إلى الطريق الموصلة إلى الله لتسير على خطى النبي ﷺ ومن سار على خطاه من الصحابة والتابعين وأتباعهم من أمة الدين العدول الثقات، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئِسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (١٨٧) هذا الفارق بين علماء الأمة الإسلامية وبين علماء بني إسرائيل.

وقف النبي ﷺ في يوم بدر يدعو الناس إلى الإشارة عليه فقام المقداد ابن الأسود رضي الله تعالى عنه فقال: يا رسول الله، والله

لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ فَادْهَبْ أَنْتَ
 وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ (٢٤) ﴿ [المائدة] ، ولكن
 نقاتل عن يمينك وعن شمالك ومن خلفك ومن بين يديك ، ولعل
 الله تبارك وتعالى أن يريك منا ما تقر به عينك .

هذا هو الفارق بين علماء بني إسرائيل الذين أخذ الله عليهم
 العهد بالبيان والإرشاد والنصح فإذا بهم يتكبون الصراط
 المستقيم فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم قوله ﴿ لَعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ
 ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٧٨) ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ
 عَن مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة. (٧٨) ،
 . [(٧٩) .

ضرب الله تبارك وتعالى قلوبهم بقلوب بعض ، لأن الرجل كان
 يمر على الرجل فلا يقول له اتق الله حتى يكون أكيله وشريبه ،
 فضرب الله قلوبهم بقلوب بعض ولعنهم .

فلا بد أن يقوم العلماء بمهمتهم وبدورهم الأصيل لأن العلماء
 قادة هذه الأمة ولا بد أن يقولوا كلمة الحق كما أمرهم بذلك

رسول الله ﷺ ففي الحديث الذي خرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم و الطيالسي وأحمد و أبو يعلى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ خَطِيبًا فَكَانَ فِيمَا قَالَ: ((أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقِّ إِذَا عَلِمَهُ)).

قَالَ فَبَكَى أَبُو سَعِيدٍ وَقَالَ قَدْ وَاللَّهِ رَأَيْنَا أَشْيَاءَ فَهَبْنَا.
(صحيح لغيره).

أخرجه مُسَدَّدٌ بِسَنَدٍ رُوَاتُهُ ثِقَاتٌ، وَلَفْظُهُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدُكُمْ هَيْبَةَ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقِّ إِذَا رَأَاهُ أَوْ شَهِدَهُ، فَإِنَّهُ لَا يُقَرَّبُ مِنْ أَجَلٍ وَلَا يُبَاعَدُ مِنْ رِزْقٍ أَنْ يَقُولَ بِحَقِّ أَوْ يُذَكَّرَ بِعَظِيمٍ)).

وخرَّج الإمام أحمد وابن ماجه من حديث أبي سعيد، عن النبي ﷺ، قال: ((لا يحقر أحدكم نفسه))، قالوا: يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: ((يرى أمر الله عليه فيه مقال، ثم لا يقول فيه، فيقول الله له يوم القيامة: ما

منعك أن تقولَ في كذا وكذا ؟ فيقول : خشيةُ النَّاسِ ،
 فيقول الله : إِيَّايَ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشِيَ)) .

فلا بد أن يبين الحق وأن يظهر هذا الحق، وفي تاريخنا نحن
 المسلمين نماذج مشرقة من مواقف هؤلاء العلماء الربانيين الذين
 وقفوا سداً منيعاً أمام الفساد والمفسدين مهما كانت رتبة هؤلاء
 المفسدين ولو كانوا أعلى رأس في البلاد، وقفوا أمامهم وجهروا
 بالحق في وجوههم، أخذوا بأيديهم ومنعواهم أن يلغوا في دماء هذه
 الأمة أو أن يبدوا الحق باطلاً أو يقلبوا الباطل حقاً.

والنماذج في الثبات والصدع بالحق في أمتنا كثيرة جداً، وسوف
 أسوق على ذلك أمثلة من هذه النماذج من الذين صدعوا بالحق
 فيما يلي:

النموذج الأول: هو الرسول ﷺ

قال الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٢١).

لقد ضرب رسول الله ﷺ أروع الأمثلة في الثبات على الحق، والإصرار على تبليغ الدعوة، وكذلك جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام من قبله، ولرسول الله ﷺ مواقف كثيرة جداً في الثبات على الحق والصدع بالحق في سيرته العطرة، منذ أن نزل عليه أمر الله تعالى بالإنذار في قوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء (٢١٤)] ، وبالصدع في قوله تعالى ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر ٩٤] ، وبذلك مرت الدعوة الإسلامية على يد صاحبها ﷺ بثلاث مراحل هي **مرحلة الدعوة السرية** .. والتي اكتفى فيها ﷺ دعوة من رغب في الإسلام.. حيث كان اجتماعهم في السر في بيت الأرقم بن أبي الأرقم.. حتى إن عبادتهم كانت سراً أيضاً عند شعاب الجبال.. ويمكن أن يطلق على هذه المرحلة أيضاً مرحلة الدعوة الفردية.. حيث كان كل

فرد مسلم حريص على دعوة من عرف فيه الأهلية للإسلام من أقربائه.. أو ممن له عليهم سبيل..

والمرحلة الثانية هي انطلاق الدعوة إلى العلن في نطاق العشيرة.. وبدأت هذه المرحلة بقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ فجمع عندها عشيرته وبني عمومته.. وأخذ يدعوهم إلى الإسلام.. وأسلم من أسلم منهم ... وباء بالخسران الباقون..

والمرحلة الثالثة من الدعوة هي التي جاء بها الأمر صراحةً إلى النبي أن يجهر بالدعوة.. وقد بدأت هذه المرحلة بقول الله تعالى في سور الحجر: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ وعلى هذه الآية دخلت الدعوة مرحلة جديدة، إذ أخذت مساراً جديداً بالتعرض لما عليه المجتمع من عقائد وأفكار ومشاعر وعلاقات فاسدة، وذلك بنزول الآيات القرآنية الكريمة، دون أن تترك أمراً يخالف العقيدة إلا وبينت ضلاله وبطلانه، مما مثل حالة من تفاعل الدعوة مع المجتمع والعلاقات فيه، ولم يكن هذا التفاعل حواراً مع عقائد أو حضارات باطلة، أو تبادلاً لأفكار متناقضة، بل تعرضاً للأفكار والمشاعر والعادات المناقضة للعقيدة بشكل ينقضها ويبين زيفها وضلالها، دون أي احتمال لحل وسط، أو التقاء في منتصف الطريق، قال تعالى ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ

فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴿[الأنبياء ١٨] هذا هو معنى الصدع ، وهذه حقيقة التي غابت عن كثير من الناس اليوم، والتي تستوجب منا وقفة طويلة لبيان حقيقتها وتأكيد وجوبها.

فما هو معنى الصدع؟

لقد أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بهذا الأمر الجليل الثقيل: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر ٩٤] ، فقام ﷺ بهذا الواجب العظيم من واجبات الدعوة ، وهو (الصدع بالحق) ، والذي يختلف عن مجرد (ذکر الحق) الذي قد يكون سراً. مما يُبين أحد أهمّ الفروق بين (الصدع بالحق) و(ذكره).

ولا بد أن نعلم أن هناك فرقاً بين هذين الأمرين، وهما: (ذكر الحق) ، و(الصدع به). ولا يخفى عليكم أن الثاني هو الذي جاء في هذا الأمر الإلهي لنبيه ﷺ .

ولكي أوضح الفرق اللغوي بين هذين التركيبين، فإني أقول: إن الوضوح والقوة في الطرح والمفاصلة بين الإيمان والكفر كان من أبرز السمات في طريق الدعوة إلى الله تعالى لبيان وفضح

الكفر وأفكاره، وهذا نفهمه من معرفة معنى كلمة الصدع ؛ فقد جاء في لسان العرب : (الصَّدْعُ: الشَّقُّ في الشيءِ الصُّلْبِ كالزُّجاجةِ والحائِطِ وغيرهما، وجمعه صُدُوعٌ؛.. فانصَدَعَ وتصدَّعَ: شَقَّه بنصفين،... وصدَّعتُ الشيءَ: أَظْهَرْتُهُ وبَيَّنَّتهُ؛.. يصدِّعُ يفرِّقُ بين الحقِّ والباطل.. ورجل صدَّعٌ: ماضٍ في أمره. وصدَّعَ بالأمرِ يصدِّعُ صدَّعاً: أَصابَ به موضِعَهُ وجاهرَ به. وصدَّعَ بالحقِّ: تكلم به جهاراً) .

وفي تفسير ابن كثير: «يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بإبلاغ ما بعثه به وإنفاذه والصدع به وهو مواجهة المشركين به.»

وفي تفسير القرطبي: فقوله: اصدع بما تؤمر قال الفراء: أراد فاصدع بالأمر، أي أظهر دينك، ف "ما" مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر. وقال ابن الأعرابي: معنى اصدع بما تؤمر، أي اقصد. وقيل: فاصدع بما تؤمر أي فرق جمعهم وكلمتهم بأن تدعوهم إلى التوحيد فإنهم يتفرقون بأن يجيب البعض؛ فيرجع الصدع على هذا إلى صدع جماعة الكفار.

إذن الصدع لغةً في الأمور المادية هو الشَّقُّ في الأجسام الصلبة (كصدع الشيء الصُّلب كالزجاج)، ولذلك فهو كذلك في الأمور المعنوية: فلا يُقال صدَعٌ إلا بمعنى شَقَّ الشيء الملتئم الصُّلب. والملتئم: قد يكون زُكامًا من الأفكار المتوارثة التي يُسقطُ عنها التقادُّم استحقاقَ المحاكمة البرهانية العقلية، حتى يأتي الصدعُ بالحق فيُسقطُ قدسيةَ التقادم عنها، ويسمح للعقول بمحاكمتها. وقد يكون ذلك الملتئم مكوّناتٍ لتصورات مجتمعية أو مبادئ عقائدية، كما مع مشركي العرب، فيأتي الصدع: صدمةً تدعو لتحريك العقول إلى مناقشة ذلك الركام وإلى دراسة تلك المكوّنات التَّصوُّرية.

وبهذا يتبيّن الفرق اللغوي بين (الصدع بالحق) و(ذكر الحق)، وأن الصدع لا يكون صدعًا حتى يكون فيه من القوة ما يفرّقه عن مجرد الذِّكر، ويكون قادرًا على إحداث تلك الصدمة التي تشق خندقًا بين التفكير وأغشية التقليد والإلف والتسليم الأعمى.

وهذا موقف نبوي من مواقف البطولة والشجاعة والثبات على الحق والثقة بالله تعالى، إنه موقف من مواقف الصدع بالحق المفصلية في تاريخ البشرية، لرسول الله ﷺ:

فبعد أن صدع النبي ﷺ بالحق وأحدث شقاً قوياً عميقاً في عقيدة المشركين ، وأعلن موقفه من الشرك والمشركين، بدأت حملة المشركين للتصدي لدعوة الإسلام، وكانت أولى محاولاتهم إغراء رسول الله ﷺ بما يُغرى به الأكابر من الناس، ولكنه ثبت ولم يتزحزح عن دعوته، ثم لجؤوا إلى عمه أبي طالب في محاولة لمساومته عن بعض ما يدعو إليه، فما كان منه إلا أن ثبت كالجبال الشامخات ولم يتراجع عن موقفه قدر أمثلة، ثم آذوه وقتلوا أصحابه رضي الله عنهم، فلم يخشاهم بل صبر على أذاهم، وبلغ من ثباته ﷺ أنه كان يهددهم ويتوعدهم وحده على الرغم من قسوة قلوبهم، وكثرة عددهم، فكانوا يهابونه ويخشون غضبه .

فماذا فعل النبي ﷺ تجاه هذه المغريات؟

لقد وقف النبي ﷺ في قريش مُعلِّناً بقوة وثبات على الصِّفا، فَجَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فَهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ، لِبَطُونِ قُرَيْشٍ؛ حَتَّى اجْتَمَعُوا. فقال ﷺ: ((أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي، تُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيٍّ؟ قالوا: نعم، ما جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا. فقال ﷺ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ))!! فقال أبو لهبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ! أَلْهَذَا جَمَعْتَنَا؟! فَانزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ

عَنْ مَالِهِ وَمَا كَسَبَ ﴿ رواه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).

هذا هو الصدع الذي أحدثه النبي ﷺ في صفوف المشركين هذا هو الشق بقوة والثبات لقد صدع النبي ﷺ في هذا الموقف بالحق وهذه هي الخطة اللّهية التي كاد بها أبو هب الصدع النبوي بالحق!! وهذا الكيد لم يكن ليمرّ دون دفاع رباني. فلقد استحق أبو هب بجدارة كاملة أن يُنزل الله تعالى جواباً عليه، هي سورة كاملة، تصف جهوده وجهود زوجته في الصدع عن الحق الذي صدع به النبي ﷺ، فهنيئاً لأبي هب دوره البارز في محاربة الصدع النبوي بالحق، بتلك الحجة اللّهية التي استحقّ بها ناراً ذات هب!!

قال ابن كثير رحمه الله: قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نَزَلَ قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ هَبٍ (٣) وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان لم يُقيض لهما أن يُؤمنا، ولا واحد منهما، لا باطنا ولا ظاهراً، لا مُسرّاً ولا مُعلنّاً؛ فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النبوة الظاهرة. اهـ .

ولنعلم إن صورة أبي لهب تتكرر في كل زمان ومكان وفي كل عصر ومصر لمن يقفون أمام دعوة العلماء الربانيين في الإصلاح ومقاومة الفساد فتكون من كاتب يسخر ويستهزأ بالدين وبمن يتمسكون بسنة سيد المرسلين، أو قناة فضائية تبث السموم والهجوم على ثوابت هذا الدين، أو إذاعة مغرضة، أو وسائل إعلامية ضالة مضلة - تعبد الدينار والدرهم صباح مساء - تُغيب الحقائق، تلبس الباطل لباس الحق، وتصور الإسلام وكأنما هو أسد كاسر وذئب غادر، وعندما تقوم القنوات الإسلامية بالرد عليهم تتعالى الأصوات وتطالب بإغلاق القنوات الإرهابية ؛ فهذه القنوات الإسلامية لم يطب لأهل البدع استمرارها فحاولوا التضييق عليها من خلال التشويش على بثها إلى أن صدرت القرارات والأوامر بإيقاف هذه القنوات حتى تبث المسلسلات الهابطة والأغاني وأن تخرج المرأة على شاشاتها وأن تحتوي برامجها على المعازف والغناء ، وحال هؤلاء كحال قوم لوط الذين قالوا: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ (سورة النمل - ٥٦).

هذه هي الحقيقة التي ينبغي أن نتعلمها أن قصة أبي لهب تتكرر في شخصيات تحارب الإسلام، وبيت أبي لهب يتكرر في بيوتات وأحزاب وطوائف ودول تنابذ الدين (قد أنزل الله في أبي لهب وفي زوجته هذه السورة، ليكون مثلاً يعتبر به من يعادي ما أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ، مطاوعة لهواه وإيثاراً لما أَلْفَه من العقائد والعوائد والأعمال، واغتراراً بما عنده من الأموال، وبما له من الصولة أو المنزلة في قلوب الرجال، وأنه لا تغني عنه أمواله ولا أعماله شيئاً، وسيصلى ما يصلى ..

إن على من يعادي الدعوة ويقف أمام طريقها أن ينتظر مصرعاً كمصرع أبي لهب وما ربك بظلام للعبيد.. وما هي من الظالمين ببعيد..

هذا موقف من مواقفه ﷺ بصدّعه بالحق، سوف يقتبس من حكمتها من أراد السير على طريق المصلحين على هدى وبصيرة.

وأما ثباته صلى الله عليه وسلم أمام المغريات

فهذا نموذج من ثباته في وجه الإغراءات والترغيب:
 حاول كفار قريش صدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دعوته من خلال ترغيبه وإغرائه بالمال والمناصب والزعامة والملك، حيث روى جابر بن عبد الله -رضي الله عنه- أن قريشاً أرسلت عتبة بن ربيعة الذي كان يُعرف بينهم بالهدوء ورزانة الرأي؛ ليعرض على النبي صلى الله عليه وسلم ما يصدّه به عن دعوته، فلما جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر مكانته في قريش وعلو نسبه، ثم عرض عليه أموراً، وطلب منه أن يختار منها، حيث قال: "إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا فلا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطبّ، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ".

وبعد أن فرغ من كلامه ما كان من النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن قرأ عليه قول الله تعالى: ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، [سورة فصلت] إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، [فصلت ١٣] فثبت صلى الله عليه وسلم في وجه الإغراءات،

وفشل المشركون فيما كانوا يسعون إليه.

ثباته في وجه الاضطهاد والإيذاء: لجأ المشركون إلى

أسلوب التهديد والإيذاء، حيث روى عمرو بن العاص -رضي الله عنه- أن أشراف قريش اجتمعوا يوماً في الحجر، وذكروا فيما بينهم أن محمد ﷺ شتم آبائهم، وسفه أحلامهم، وعاب دينهم، وسب آلهتهم، وبينما هم كذلك إذ أقبل النبي ﷺ فاستلم الركن، ثم مرّ بهم طائفاً بالبيت، فغمزوه ببعض ما يقول فتمعر وجهه الشريف، ثم مضى، فلما مرّ بهم بالثالثة غمزوه بمثلها فقال: ((يا معشر قريش أما والذي نفسي بيده ما أرسلت إليكم إلا بالذبح))، وأشار بيده إلى حلقه فأخذ القوم كلمته، حتى ما منهم رجل إلا كأمّما على رأسه طائرٌ واقعٌ. [هذا الحديث رواه أحمد في المسند ١١/٦٠٩، وحسنه الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١٩/٦)، وكذا الشيخ الألباني في "صحيح الموارد" (١٤٠٣)].

وأما ثبات النبي ﷺ في الحروب والمعارك

فقد وصف الصحابة -رضي الله عنهم- ثبات النبي ﷺ في الحروب والمعارك، حيث قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (لقد رأيتنا يوم بدرٍ ونحن نلوذُ برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلى العدوِّ وكان من أشدِّ الناس يومئذٍ بأساً)، [رواه أحمد وابن أبي شيبة

وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر رحمه الله [وقد وصف أنس بن مالك - رضي الله عنه - شجاعة الرسول ﷺ في أصعب المواقف، حيث قال: (لَقَدْ فَرَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَاَنْطَلَقَ النَّاسُ قَبْلَ الصَّوْتِ، فَاسْتَقْبَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ سَبَقَ النَّاسُ إِلَى الصَّوْتِ، وَهُوَ يَقُولُ: لَنْ تُرَاعُوا لَنْ تُرَاعُوا وهو على فرسٍ لأبي طلحة عريٍّ ما عليه سرجٌ، في عنقه سيفٌ) رواه البخاري.

فما أحوجنا اليوم إلى فهم ما نحن فيه، وما تمر به أمتنا من أوقات عصيبة تتطلب منا جميعاً قوة وصبراً على مجريات الأحداث الجسام التي نعيشها، ولكيلاً نخطئ طريقنا السوي نؤكد أهمية وضرورة مراجعة سيرة رسول الله ﷺ لنحفظ على أنفسنا بإذن الله تعالى الثبات على الحق، فأعداء الدين والأمة ماضون في التشويه بالدعايات الكاذبة المفتراة على الإسلام والمسلمين، وهي تعمل على أشدها في الصد عن سبيل الله ودينه مستغلة كل الوسائل الخبيثة والطرق الملتوية، ترغيباً وترهيباً!

وإنه لمواجهة هذا نحتاج إلى قوة إيمان، ويقين وثقة بأن النصر حليف المؤمنين، وأن العاقبة للمتقين.. هذا ضرورة، كي لا يتسرب اليأس والقنوط والاستسلام إلى القلوب والهزيمة للنفوس. ولنعلم أن أساليب ووسائل أعداء الدين والأمة من الطغاة والعتاة

المتبعة في حربهم تكاد تكون متطابقة تماما، بل هي ذاتها التي واجهها الرسول ﷺ يواجهها أصحاب الحق في الحاضر فهي متشابهة في كل زمان ومكان، فمن أساليب التشويش والتشهير التي وجهت إلى الرسول ﷺ: السخرية والتحقير، والاستهزاء، والتكذيب، والتضحيك، قصدوا بها تخذيل المسلمين، وتوهين قواهم المعنوية، فرموا النبي ﷺ بتهم هازلة، وشتائم سفيهة، فكانوا ينادونه بالجنون ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾، ويتضحكون: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ، وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ، وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ، وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ، وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾.

لقد عاش ﷺ حياة البسطاء ، قريبا من الناس ، يجوع ويشبع ، ويغنى ويفتقر ، حتى قالت عائشة رضي الله عنها : " تُوْفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا فِي بَيْتِي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ ، إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفِّ لِي ، فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ ، فَكَلَّتُهُ فَفَنِي " متفق عليه .



النموذج الثاني: الصحابة رضي الله عنهم (١)

إن المتأمل في التاريخ يجد أنه ما من دين ظهر وانتشر -سواءً أكان حقاً أم باطلاً- إلا كان وراءه فئة تؤمن به، وتعمل له، وتمثله واقعاً في حياتها؛ ليقوم ذلك الدين على أكتافهم، وليكونوا أنموذجاً واضحاً لأتباعه؛ يسترشدون بهم، ويطمئنون من جهة تطبيق ذلك الدين وتحقيقه.

ولذلك.. عندما أنزل الله عز وجل دينه في هذه الأرض بشرائعه المختلفة، جعل لكلٍ شريعة من الشرائع رسولاً كريماً يبلغ ويكون قدوة، وفئة تؤمن وتعمل وتمثل؛ لتكون عاملةً على إظهار دينها شيئاً فشيئاً، دالةً على صحته وإمكان تطبيقه، وهيئة فئات تحمل همّ هذا الدين والعمل له..

ولكن.. عندما يدبُّ الضعف في تلك الفئة المؤمنة العاملة -على اختلاف أزمائها- سواءً من جهة العلم أو العمل، فإن ذلك

(١) راجع صفحة (٨١) ذكرت فيها الصفة الثالثة للربانيين وكيف كان صبر وثبات الصحابة رضي الله عنهم فقد ضربوا أروع الأمثلة في الصبر والثبات على الحق.

الضعف ينعكس تلقائياً على ظهور ذلك الدين وأتباعه.. حتى يضمروا أو يتلاشى.

وكان من حكمة الله عز وجل أن جعل في هذه الأمة المباركة، والشريعة الخالدة الأبدية، فئة تؤمن بدينه، وتعمل له، وتمثله واقعاً عملياً في حياتها ما دام هذا الدين في الأرض، لا يعترهم الضعف، ولا يسيطر عليهم اليأس، يقول النبي ﷺ : ((لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَهُمْ ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ)) متفق عليه.

ثبات وشجاعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه :

عن عروة بن الزبير، قال: سألت ابن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ، قال: بينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقا شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه، عن النبي ﷺ وقال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ الْآيَةَ ﴾ [غافر: ٢٨] رواه البخاري.



- وعن محمد بن عقيل بن أبي طالب، قال: (خطبنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقال: أيها الناس، أخبروني بأشجع الناس، قالوا: لو قلنا أنت يا أمير المؤمنين، فقال: أما إني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه، ولكن أخبروني بأشجع الناس؟ قالوا: لا نعلم، فمن؟ قال: أبو بكر الصديق، إنا لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريشاً فقلنا: من يكون مع النبي ﷺ لا يهوي إليه أحد من المشركين؟ فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله ﷺ، لا يهوي إليه أحد إلا هوى إليه، وهذا أشجع الناس، قال علي: فلقد رأيت رسول الله ﷺ أخذته قريش فهذا يجؤه، وهذا يتلته، وهم يقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً، قال: فوالله ما دنا منه إليه أحد إلا أبو بكر، يضرب هذا، ويجأ هذا، ويتلته هذا، وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، ثم رفع علي بردة كانت عليه فبكى حتى أخضل لحيته، ثم قال علي: أنشدكم الله، أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ قال: فسكت القوم، فقال: ألا تحببوني؟ والله لساعة من أبي بكر خير من ملء الأرض مثل مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكرم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه).

ثبات وشجاعة عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

— عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: (لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لم تعلم قريش بإسلامه، فقال: أي أهل مكة أنشأ للحديث؟ فقالوا: جميل بن معمر الجمحي، فخرج إليه وأنا معه أتبع أثره، أعقل ما أرى وأسمع، فأتاه فقال: يا جميل، إني قد أسلمت، قال: فوالله ما رد عليه كلمة حتى قام عامداً إلى المسجد، فنادى أندية قريش، فقال: يا معشر قريش، إن ابن الخطاب قد صبأ، فقال عمر: كذب ولكني أسلمت وآمنت بالله، وصدقت رسوله، فثاوروه، فقاتلهم حتى ركدت الشمس على رؤوسهم، حتى فتر عمر وجلس، فقاموا على رأسه، فقال عمر: افعلوا ما بدا لكم، فوالله لو كنا ثلاث مائة رجل لقد تركتموها لنا أو تركناها لكم...



نموذج من النساء الربانيات حبيبة رسول الله ﷺ أم المؤمنين رضي الله عنها

لقد اخترت هذه الأم العظيمة من بين النساء الربانيات، لأنها من أروع النماذج التي ينبغي على كل امرأة مسلمة، سواء كانت زوجة، أو أمًا، أو مربية، أو داعية إلى الله تعالى، أن تتأسى بها، لما لها من أثر عظيم وفضل كبير على الدعوة الإسلامية، فهي الباذلة لنفسها ونفيسها في سبيل رسالة الإسلام، فقد أظهرت مقداراً هائلاً من الصبر والصلابة.

والتجلد أمام رياح الجاهلية التي كانت تهب من كل جانب لإطفاء نور الوحي وإخماد مشاعل الهداية.

فهي خير نساء هذه الأمة بلا منازع، وهي أم لكل مسلم ومسلمة اصطفاها الله تعالى لأفضل رُسُلِهِ ﷺ، وكفاها شرفاً أنها كانت في السابقين الأولين إلى الإسلام؛ فهي أول من آمن به ﷺ من النساء.

وكانت رمزاً للفضيلة، ومثالاً للإخلاص والنزاهة، كانت الزوجة المثالية التي تقف بجانب زوجها في المواقف الصعبة، تحيط به إحاطة السوار بالمعصم، وبذلت أموالها بسخاء من أجل دعوته،

وسهرت من أجل راحته مما جعلها ترتقي إلى مشارف العظمة وتحوز على شرف التاريخ. ألم يقيم الإسلام بماها.

قال عنها رسول الله: ((إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا)) رواه مسلم.
 قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم عند قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((رُزِقْتُ حُبَّهَا)): ((فيه إشارة إلى أن حبها فضيلة حصلت)).

إنها السيدة الكريمة الفاضلة أمنا خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قُصَيِّ، القرشية الأَسَدِيَّة، زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأول من صَدَّقَتْ ببعثته مطلقاً، كانت تُدعى قبل البعثة بـ «الطاهرة». كانت موسرة كثيرة المال، وقد رغبت في الزواج من رسول الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قبل البعثة؛ تزوجها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ابن خمس وعشرين سنة كانت قبله عند أبي هالة بن النباش بن زرارة التميمي حليف بني عبد الدار، وبقيت مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن أكرمه الله برسالته، فأمنت به ونصرته، فكانت له وزير صدق، فهي ممن كمل من النساء فقد كانت عاقلة جليلة دينة مصونة كريمة من أهل الجنة، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يثني عليها ويفضلها على سائر نساءه رضي الله عنهن ويبالغ في تعظيمها، فلم يتزوج امرأة قبلها، وكل أولاده منها إلا إبراهيم

رضي الله عنه فإنه من سرّيته مارية رضي الله عنها كما لم يتزوج **صلى الله عليه وسلم** عليها امرأة قط، ولا تسرى إلى أن قضت نحبها رضي الله عنها فكانت وفاتها قبل الهجرة بثلاث سنين وولدت خديجة، رضي الله عنها، من رسول الله **صلى الله عليه وسلم**، أولاده كلهم إلا إبراهيم.

ومن أعظم مواقف ثباتها مساندة النبي **صلى الله عليه وسلم**، ما كان منها عند بدء الوحي، وما صنعته من تقوية قلب النبي **صلى الله عليه وسلم**، لتلقي ما أنزل الله عليه. ((فقال لها **صلى الله عليه وسلم**: ((لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي)) فَقَالَتْ خَدِجَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِجَةَ وَكَانَ امْرَأً تَنْصَرَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِجَةُ : يَا ابْنَ عَمِّ ، اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ : يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ **صلى الله عليه وسلم** خَبَرَ مَا رَأَى ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدَعًا ، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ **صلى الله عليه وسلم**: ((أَوْ مُخْرِجِي هُمْ)) ، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ

رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمَكَ أَنْصُرَكَ
نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةً أَنْ تُؤَيِّ، وَفَتَرَ الْوَحْيِ)). رواه
البخاري - بدأ الوحي.

كانت رضي الله عنها، نعم الزوجة فحَقَّفَ اللهُ بذلك عن رسوله
ﷺ، فكان لا يسمع شيئاً يكرهه من الرد عليه، فيرجع إليها إلا
تثبته وَهُوَّونُ عليه أمر الناس.

لذلك كان ﷺ، يذُكُّرُهَا بخير دائما حتى بعد وفاتها...، قالت
عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : "
كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا ذَكَرَ خَدِيجَةَ أَتَنَى عَلَيْهَا فَأَحْسَنَ الثَّنَاءَ ، قَالَتْ
: فَغَرْتُ يَوْمًا ، فَقُلْتُ : مَا أَكْثَرَ مَا تَذُكُّرُهَا حَمْرَاءَ الشَّدَقِ قَدْ
أَبَدَلَكِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا خَيْرًا مِنْهَا ، قَالَ ﷺ : ((لا والله ما
أبدلني الله عزَّ وجلَّ خَيْرًا مِنْهَا قَدْ آمَنْتُ بِي إِذْ كَفَرَ بِي
النَّاسُ ، وَصَدَّقْتَنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ ، وَوَأَسْتَنِي بِمَا هَا إِذْ
حَرَمَنِي النَّاسُ ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي
أَوْلَادَ النِّسَاءِ)) . رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٤٨٦٤) ط
الرسالة) ، وصححه محققو المسند.

قالت عائشة رضي الله عنها: لم يتزوج النبي ﷺ، على خديجة رضي الله عنها حتى ماتت، قالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيتُ خديجة قط، ولا غرت على امرأة من نساءه أشد من غيرتي على خديجة، وذلك من كثرة ما كان يذكرها.

فمن أبي موسى، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: ((كَمَلٌ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا: آسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ)) رواه البخاري (٣٤١١) ومسلم (2431).

ذكر ذلك النبي ﷺ لبيان أفضلية هؤلاء النساء على جميع نساء العالمين، من السابقين واللاحقين، وليس أفضليتهن على من سبقهن من النساء أو من كنَّ في زمانهن فقط، وذلك أنهن حُزْنَ من المزايا والخصال ما لم يجتمع لامرأة، لا سابقة ولا لاحقة.

فمریم بنت عمران هي الصديقة التي نفخ فيها الروح الأمين لتنجب واحدا من أولي العزم من الرسل، وصفها الله عز وجل بقوله تعالى: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانُ الْإِسْلَامِ وَابْتِغَاءُ مَرْضَاتِ اللَّهِ إِنَّهَا إِذْ قَالَتْ يَا مَلَأِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ الْقَانِتِينَ ﴾ التحريم/١٢. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ ﴾

عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿ آل عمران/ ٤٢ .

وآسية امرأة فرعون قتلها فرعون شهيدة بعد أن سامها سوء العذاب، وذلك لإيمانها برب موسى وهارون، وضرب الله عز وجل بها المثل فقال سبحانه: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ التحريم/ ١١ .

وأما خديجة وعائشة فخير أمهات المؤمنين، وزوجتا خير الخلق نبينا محمد ﷺ في الدنيا، وزوجتاه في الجنة أيضا.
وأما فاطمة رضوان الله عليها، فهي بنت النبي محمد ﷺ، وهي سيدة نساء أهل الجنة.

فأي فضل يمكن أن تحوزه امرأة بعد ذلك، حتى تسامي الخيرات المذكورات في فضلهن، وعالي مقامهن؟!!

ويدل على أن مقصود الحديث هو تفضيل المذكورات في الحديث على سائر نساء الأرض حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: ((خَيْرُ نِسَائِهَا مَرِيْمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ)) رواه البخاري (٣٤٣٢) ومسلم (2430).

أي: خير نساء أهل الدنيا في زمانها هي مريم ابنة عمران، وخير نساء هذه الأمة المسلمة هي السيدة خديجة بنت خويلد.

بل هن أيضا أفضل نساء الجنة: عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: ((خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ خُطُوطٍ، قَالَ: تَدْرُونَ مَا هَذَا؟ فَقَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَجْمَعِينَ)). رواه أحمد في "المسند" (٤٠٩/٤) وصححه الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (6/178).

وبقي النبي الكريم، ﷺ، وفيها لها، يُثني عليها دائما، يحب من يحبها.

فقد كانت تستأذن عليه هالة بنت خويلد أخت خديجة، فيذكره صوتها صوت خديجة وحديثها الطيب وأيامها المباركة، فيهش لها، وترتاح نفسه لذلك، وتشرق أسارير وجهه الشريف، ﷺ.

وكان ﷺ، دائم الذكر لها، والإشادة بفضائلها، ومن ثم الترحم

عليها، بل والإحسان إلى كل من يمتُّ لها بصلة.

وقد ظلت مكانة السيدة خديجة رضي الله عنها، في منزلة سامية عند الرسول ﷺ، وقد بشرها بالجنة مراراً.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: ((أتى جبريل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله: هذه خديجة قد أتت معها إناءً فيه إدام، أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه، ولا نصب)). رواه البخاري.

ومن حديث عبد الله بن أبي أوفى عن إسماعيل قال: قلت لعبد الله بن أبي أوفى، رضي الله عنه: بشر النبي ﷺ، خديجة؟ قال: ((نعم بيت من قصب لا صخب فيه، ولا نصب)).

وفي ذلك منقبتان عظيمتان لأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها: **الأولى:** إرسال الرب جل وعلا سلامه عليها مع جبريل وإبلاغ النبي ﷺ لذلك، وهذه خاصة لا تعرف لامرأة سواها.

الثانية: البشرى لها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

وقوله ﷺ: من قصب قال ابن التين: المراد به لؤلؤة مجوفة

واسعة كالقصر المنيف.

ومعنى قوله ﷺ: **لَا صَخَبَ فِيهِ، وَلَا نَصَبَ الصَّخَبِ:** الصياح والمنازعة برفع الصوت، والنصب: التعب.

قال السهيلي: (لذكر البيت معنى لطيف؛ لأنها كانت ربة بيت قبل المبعث، ثم صارت ربة بيت في الإسلام منفردة به، فلم يكن على وجه الأرض في أول يوم بعث النبي ﷺ بيت إسلام إلا بيتها، وهي فضيلة ما شاركها فيها أيضاً غيرها، قال: وجزاء الفعل يذكر غالباً بلفظه وإن كان أشرف منه، فلهذا جاء في الحديث بلفظ البيت دون لفظ القصر.

وقال الحافظ ابن حجر: (وفي البيت معنى آخر لأن مرجع أهل بيت النبي ﷺ إليها لما ثبت في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣] قالت أم سلمة: لما نزلت دعا النبي ﷺ فاطمة وعلياً والحسن والحسين فجللهم بكساء فقال: ((اللهم هؤلاء أهل بيتي)) الحديث أخرجه الترمذي وغيره.

وقد أبدى السهيلي لنفي هاتين الصفتين **لَا صَخَبَ فِيهِ، وَلَا نَصَبَ** حكمة لطيفة فقال: (لأنه **ﷺ** لما دعا إلى الإيمان أجابت خديجة رضي الله عنها طوعاً فلم تحوجه إلى رفع صوت ولا منازعة ولا تعب، بل أزالته عنه كل تعب وآنسته من كل وحشة وهونت عليه كل عسير فناسب أن يكون منزلها الذي بشرها به ربها بالصفة المقابلة لفعالها).

ومن كثرة ذكر الرسول، **ﷺ**، لخديجة قالت السيدة عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها:

ما غرتُ على أحد من نساء النبي **ﷺ**، ما غرتُ على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي **ﷺ**، يُكثِرُ ذِكْرَهَا، وربما ذبح الشاة ثم يُقَطِّعُهَا أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فرمما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟ فيقول: «إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد».

وخديجة هي أول من أسلم بإجماع المسلمين، لم يتقدمها رجل ولا امرأة، وهذه منقبة عظيمة لأُم المؤمنين لا يدانيها فيها فضل. وهي أول من تزوج رسول الله **ﷺ**، وهي أول من صلى مع

رسول الله ﷺ، وكانت الصلاة هي ركعتان في الغداة وركعتان في العشي، وذلك قبل أن تُفرض الصلوات الخمس في ليلة الإسراء. وهي أول من أنجبت الأولاد لرسول الله ﷺ، وهي أول من بشرها الرسول ﷺ، بالجنة من أزواجه، وهي أول من أقرأها ربها السلام، وهي أول صديقة من المؤمنات، وهي أول زوجات النبي ﷺ، لحوقاً برها.

فلقد توفيت، رضي الله عنها، قبل الهجرة بثلاث سنوات في مكة، ولها من العمر خمس وستون سنة.

ولقد نزل الرسول ﷺ، في حُفرتها وأدخلها القبر بيده الشريفة في الحُجُون، وَوَجَدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ، لَفَقْدَهَا، وَتَرَكْتَ وَفَاتَهَا فِي نَفْسِهِ أَثْرًا عَمِيقًا، فَلَقْدَ كَانَتْ سَكْنًا لِلنَّفْسِ، وَرَاحَةً لِلرُّوحِ، وَفِي نَفْسِ الْعَامِ تَوْفِي عَمِّهِ أَبُو طَالِبٍ قَبْلَ خَدِيجَةَ، فَأَطْلَقَ النَّبِيَّ ﷺ، اسْمَ عَامِ الْحُزْنِ عَلَى ذَلِكَ الْعَامِ لِشِدَّةِ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الشَّدَائِدِ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

ولقد عاشت السيدة خديجة مع رسول الله ﷺ، أربعاً وعشرين سنة وأشهرًا لم تقل له أف قط.

ولذلك ظل، عليه الصلاة والسلام، وفيًا لها بعد وفاتها كل الوفاء، وقد كان النبي، ﷺ، وفيًا لكل من يستحق الوفاء، فكيف بالسيدة خديجة منبع الوفاء، ومعدن العرفان والفضائل كلها!

وأروع دليل على وفائه لها هو ما حدث في غزوة بدر الكبرى، إذ أسر أبو العاص بن الربيع صهر الرسول ﷺ، وزوج ابنته زينب ابنة زوجته الوفية خديجة، فأرسلت زينب فداءً لزوجها أبي العاص قلادة كانت قلدها بها أمها خديجة ليلة زفافها فلما رآها الرسول ﷺ، رَقَّ لها رقة شديدة وتذكر خديجة وقال لأصحابه: ((إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطَلِّقُوا هَا أَسِيرَهَا وَتَرُدُّوْا عَلَيْهَا مَتَاعَهَا فَافْعَلُوا)) قالوا: نعم.

فأطلقوا أبا العاص، وردوا على زينب قلادتها، وأخذ النبي ﷺ على أبي العاص أن يخلي سبيلها إليه، فوعده ذلك وفعل. أخرج أبو داود والواقدي. هذا وقد جاء في فضله عن النبي ﷺ أنه قال: ((أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَنْكَحْتُ أَبَا الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ. فَحَدَّثَنِي فَصَدَّقَنِي)).

رواه البخاري، وفي رواية أخرى زيادة: وَوَعَدَنِي فَأَوْفَى لِي .



جاءت عجوزٌ إلى النبي ﷺ وهو عندي فقال لها رسولُ الله ﷺ: من أنت؟ قالت: أنا جثامةُ المزنِيَّةُ فقال: بل أنتِ حسَّانةُ المزنِيَّةُ كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟ قالت بخيرٍ بأبي أنت وأمي يا رسولَ الله فلما خرجتُ قلتُ: يا رسولَ الله تُقبِلُ على هذه العجوزِ هذا الإقبالَ فقال: ((إنها كانت تأتينا زمنَ خديجةَ وإنَّ حسنَ العهدِ من الإيمانِ)).

وفي صحيح مسلم: عن عائشة كان رسولُ الله ﷺ إذا ذبح الشاة يقول: ((أرسلوا إلى أصدقائِ خديجةَ))، فقال: فذكرت له يومًا، فقال: ((إني لأحبُّ حبيبها)).

ومن هذه السيرة العطرة لهذه الأم الربانية نأخذ هذه العبر والدروس:

- ١ - فضيلة سبِّقِ أمتنا خديجة، رضي الله عنها، للإيمان بالنبي، ﷺ، وقد قيل قديما: «**الفضلُ للمتقدِّم**».
- ٢ - أحرص على إنفاق المال في خدمة دينك والدفاع عن رسولك ﷺ فنعَمَ المال الصالح للعبد الصالح.
- ٣ - مشروعية جواز إظهار رغبة المرأة، أو وليها في تزويجها من الرجل الصالح.
- ٤ - هذا دور المرأة والزوجة والمربية والداعية ففي أمتنا خديجة

أروع النماذج من مواقف المرأة الصالحة في مساندة زوجها، وتثبيته على الحق.

٥- الصُّورُ المشرقة من مكارم الأخلاق؛ من صفات أنبياء الله ورسله، وعباد الله الصالحين الربانيين.

٦- وجوب الاستعانة بالشيخ وأهل الفضل، واستشارتهم في الشؤون كلّها.

٧- أشدُّ الناس ابتلاءً: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل..

٨- حُسْنُ الثناء على من أسدى المعروف واجب إسلامي، واعتراف بالفضل لأهله.

٩- الغيرة حرام، والرجوع عنها فضيلة، كما رجعت عنها عائشة، رضي الله عنها.

١٠- حرمة الغيبة والنميمة بالكتاب، والسنة، والإجماع، وهي من جملة الكبائر.

١١- المبشرون والمبشرات بالجنة: صفتهم في الكتاب والسنة.



ثبات وشجاعة ريحانة النبي الحسين بن علي رضي الله عنه:

إنه الصحابي الجليل ريحانة نبي الأمة ﷺ الحسين بن علي بن أبي طالب، الهاشمي القرشي العدناني أبو عبد الله السبط الشهيد، ابن فاطمة الزهراء، المولود في السنة الرابعة من الهجرة النبوية. قال صاحب كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة في تعريفه رضي الله عنه: ريحانة النبي ﷺ، وشبيهه من الصدر إلى ما أسفل منه، وقد أذن النبي ﷺ في أذنه حين ولد، وهو سيد شباب أهل الجنة، وخامس أهل الكساء. وزاد الحافظ أبو نعيم على ذلك فقال: وابن سيدة النساء، أبوه الذائد عن الحوض، وعمه ذو الجناحين، غذته أكف النبوة، ونشأ في حجر الإسلام، وأرضعته ثدي الإيمان.

فهو رضي الله عنه صاحب الشرف الأعلى والمكان الأسمى، الذي لا يعلوه نسب ولا يدانيه شرف ولا منزلة، ولم لا يكون كذلك من كان جده محمد ﷺ، وجدته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وأبوه علي وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ وأخوه

الحسن.

إنه الكريم الشريف الحسيب النسيب الذي حاز المكارم من كافة أطرافها وأضاف إليها المحامد بشتى صورها من تقوى وورع وكرم وشجاعة وزهد وزيادة عبادة.

فقد كان رضي الله عنه فاضلاً كثير الصوم والصلاة والحج والصدقة وأفعال الخير جميعها.

فعن الزبير بن بكار قال: حج الحسين رضي الله عنه خمساً وعشرين حجة ماشياً، وإن النجائب لتقاد معه. فلم يكن حجه ماشياً عن قلة ذات اليد وإنما رغبة في الأجر وتعظيماً للبيت، وأخذاً بقاعدة شرعية "الأجر على قدر المشقة".

ومما يزيدنا حباً وتقديراً له رضي الله عنه محبة النبي ﷺ له، فإلى جانب مقام القرابة ومنزلة الصحبة فهناك المحبة النبوية التي نلاحظها فيما رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني، الحسن والحسين. وعند الترمذي من حديث أنس: أن النبي ﷺ كان يدعو الحسن والحسين فيشمهما ويضمهما إليه". وروى البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "هما ريحانتاي من الدنيا" قال

الحافظ ابن حجر العسقلاني: شبههما ﷺ بذلك لأن الولد يشم ويقبل. وإنما بك يا سيدي يا رسول الله لمقتدون ولهما محبون، ولمبغضهما مبغضون، فليس منا من لا يحب من تحب، ولا يكره لمن تكره.

شجاعته وجرأته

ومما يشهد لجرأته وشجاعته وإتقانه لفنون القتال والفروسية كثرة مشاركاته في الفتوحات، والمعارك التي خاضها المسلمون في زمانه سواء ما كان منها في الشمال الإفريقي أو المشرق فقد كان رضي الله عنه في الجيش الذي قصد جرجان بقيادة سعيد بن العاص الأموي، وكذلك مع الجيش الذي قصد إفريقية مع عبد الله بن أبي السرح، كما شارك مع الجيش الذي غزا طبرستان، وكان معه في هذا الجيش من الصحابة أخوه الحسن، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم أجمعين.

وشارك رضي الله عنه في الجيش الذي غزا القسطنطينية سنة إحدى وخمسين في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وكان أمير الجيش يزيد بن معاوية. فأكرم به من بطل في جيش، وفارس من فرسان المسلمين.

يضاف إلى ذلك صور خالدة وموقف عظيمة محمودة من حسن السيرة وسمو الأخلاق ونقاء السريرة منها ما روي عنه رضي الله عنه من مواقف مشهورة، وأقوال ماثورة في الثناء على أصحاب رسول الله ﷺ والانتصار لهم.

أتاه نفر من أهل العراق فقالوا - أي قولاً سيئاً - في أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم فلما فرغوا قال: ألا تخبروني : أنتم المهاجرون الأولون ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أولئك هم الصادقون ﴿الحشر: ٨﴾ قالوا: لا ، قال: فأنتم ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ؟ [الحشر: ٩] قالوا: لا، قال: أما أنتم فقد تبرأتم أن تكونوا من أحد هذين الفريقين، ثم قال: أشهد أنكم لستم من الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]. اخرجوا فعل الله بكم..

استشهاده رضي الله عنه:

لقد كانت بيعة يزيد بن معاوية بالخلافة قاصمة الظهر، ومؤججة الفتنة، والباعثة على عودة الخلاف واستئناف الشجار بين الأمة، لما كان فيها من مخالفة للشروط التي ارتضاها الحسن بن علي رضي الله عنه مع معاوية رضي الله عنه حين تنازل له عن الخلافة، وفيها أن تكون الخلافة من بعده شورى بين المسلمين، ولكن هذه المعاهدة والمسألة خرقت بالعهد الذي عهد به معاوية لولده يزيد، وتمزقت بالبيعة التي أخذت له بعد والده.

وعند ذلك لم يجد الحسين الشهيد رضي الله عنه بدءاً من الخروج على الخليفة المزعوم يزيد، مؤيداً موقفه بهذا الخروج بأمرين هامين لا يجوز التغاضي عنهما ولا التفريط بهما:

أولهما: عدم التزام معاوية رضي الله عنه بشرط الصلح مع الحسن رضي الله عنه والتي من ضمنها أن يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين.

وثانيهما: أنه رأى في توريث معاوية الحكم من بعده لابنه يزيد مخالفة واضحة لمنهج الإسلام في الحكم.

يضاف إلى ذلك أن سيرة يزيد بن معاوية ومكانته في الأمة لا تؤهله أن يتقدم إلى الخلافة مع وجود أعلام من الصحابة وأبناء

الصحابة هم أحق منه فيها.

ولكن مما ينبغي ذكره هنا أن مواقف بعض الصحابة وأعيان التابعين لم تؤيد الحسين رضي الله عنه في هذا الخروج، وكان ممن نصحه بذلك: أخوه محمد بن الحنفية، وابن عمه عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر. وكان يقول في ذلك: "غلبنا الحسين بن علي بالخروج، ولعمري لقد رأى في أبيه وأخيه عبرة.

ولقد رأى رضي الله عنه من الفتنة وخذلان الناس ما كان ينبغي له ألا يتحرك ما عاش، وأن يدخل في صالح ما دخل فيه الناس، فإن الجماعة خير"

لكن كل ذلك لم يثنه رضي الله عنه عما أراد لكثرة ما جاءه من وفود أهل العراق، التي تعدّه بالبيعة، والمناصرة والتأييد، وكذلك لكثرة الكتب والرسائل التي تطالبه بالسير إلى الكوفة التي فيها من المناصرين له والكارهين لبني أمية وخليفتهم الجديد، ما سيضع حداً للمتطاولين على مقام الخلافة والغاصبين لحق آل البيت عليهم السلام، ووعدهم له إن سار إليهم سيجد القوة والمنعة، والنصر والنصرة والتمكين، ومن أجل ذلك سار من الحجاز إلى العراق، ولكن هيهات هيهات.. فقبل أن يصل إليهم ويدخل ديارهم، حصلت أمور وتبدلت مواقف واشترت ذمم وقتل من



قتل وخان من خان في أحداث جسام يطول المقام بذكرها،
 وصدق الشاعر الفرزدق حين قال له وهو المحب الناصح: "ارجع
 سوف تأتي قوماً قلوبهم معك وسيوفهم عليك" وبعدها كانت
 الفاجعة.

في اليوم العاشر من محرم سنة إحدى وستين من الهجرة النبوية،
 يوم ولكنه لا كالأيام، إنه يوم الفاجعة العظيمة والمصيبة الكبرى،
 يوم عدت فيه عصائب من أهل الشر، وقطعان بشرية يملؤها
 الحقد والحسد والبغض والبغضاء والضغينة الحالكة السوداء على
 ريحانة رسول الله ﷺ، وسيد أهل البيت في زمانه، ففجعت الأمة
 بالتجرؤ على هذا السيد المهيب والبطل الشهيد في أرض في
 العراق يقال لها كربلاء، وأي بلاء أعظم من أن يقتل سبط رسول
 الله ﷺ الحسين بن علي بن أبي طالب ظلماً وزوراً وبهتاناً لأنه لم
 يبايع ليزيد بن معاوية بن أبي سفيان بالرغم من أنه بذل الكثير من
 العروض والحلول لاتقاء إراقة الدماء، ودفع مثل هذه الواقعة
 والمصيبة عن الأمة، فقد عرض الرجوع من حيث أتى إلى المدينة
 المنورة فمنع من ذلك، وعرض التوجه إلى يزيد ليحل الأمر معه
 ويجنب الأمة الصدام والصراع وإراقة الدماء، ولكن لم يُمكن من
 ذلك بل أرادوا أن يحملوه على أمر فيه ذلة وانكسار ورضوخ
 للباطل والاستبداد.. ولكن هيهات هيهات للحسين وأمثال

الحسين ممن رضع الإيمان والتقوى والشجاعة والشهامة على صدر أمه الزهراء فاطمة رضي الله عنها بنت محمد ﷺ وتربي في بيت الكرم والسؤدد والعزة بيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أن يرضى بغير ما يرضاه طلاب الحق، وأهل الحق، وهنا كان لا بد أن يسطر في التاريخ وللتاريخ أن الظلم والاستبداد والاستعلاء والباطل مهما قوي واشتد واستعدى بالجند والخييل والحديد والعدة فإنه لن يقدر على النيل من الحق - وحاشا لابن بنت رسول الله ﷺ أن يبايع تحت تهديد السلاح - فتصدى رضي الله عنه لجموع ابن زياد من الآلاف المؤلفة ببضع وسبعين رجلاً من آل البيت الكرام العظام الأشراف.

فلما أصبح الصباح من ذلك اليوم، وعزم على المقاتلة التي لا مفر منها مع هؤلاء العتاة الفجرة الظلمة الذين لا يريدون إطفاء نار الفتنة ولا حقن الدماء المسلمة المؤمنة.

نظم أصحابه، وكان معه اثنان وثلاثون فارساً، وأربعون راجلاً، فجعل زهير بن القين في ميمنته، وحبيب بن مظاهر في الميسرة، وأعطى رايته العباس بن علي، وبدأت المعركة سريعة وكانت مبارزة في بداية الأمر، ثم اشتدت المعركة وجوبه جيش عمر بن سعد قائد جيش ابن زياد بمقاومة شديدة من قبل أصحاب الحسين، فقد اتسمت مقاتلتهم بالفدائية، ولم يعد لهم أمل بالحياة، ولم

يشارك رضي الله عنه في البداية بالقتال بل كان أصحابه يدافعون عنه، ولما قتل أصحابه لم يجرؤ أحد على منازلته أو محاولة قتله، فكان جيش عمر بن سعد يتدافعون عن ذلك وكل فرد يخشى أن يبوء بقتله، ويتمنون أن يستسلم، يقول عبد الله بن عمار واصفاً حال الحسين في أرض المعركة: رأيت الحسين حين اجتمعوا عليه يحمل على من على يمينه حتى اندعروا عنه، فوالله ما رأيت مكسوراً قط قد قتل أولاده وأصحابه أربط جأشاً منه، ولا أمضى جناناً منه، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله. وما زال الوضع كذلك حتى إذا قُتل أكثر من حوله انطلق نحو عدوه يقاتلهم بشجاعة نادرة وعزيمة صادقة وجرأة عجيبة وعندها خشي شمر بن الجوشن من انفلات زمام الأمور، فصاح في الجيش وأمرهم بقتله فحملوا عليه وضربه زرعة بن شريك التميمي، ثم طعنه سنان بن أنس النخعي واحتز رأسه الطاهر الشريف، وقُتل معه في هذا اليوم اثنان وسبعون رجلاً كان منهم سبعة عشر شاباً من آل أبي طالب منهم خمسة من إخوته رحمهم الله تعالى ورضي عنهم، وقتل من عدوه أخزاهم الله ثمان وثمانون رجلاً.

وفي استشهاده في هذا المكان من أرض العراق معجزة من معجزاته ﷺ، حيث أخبر: "أن الحسين سوف يقتل بشرط العراق". وهذا مروى في كثير من المصنفات الحديثية منها المصنف

لابن أبي شبيبة، والبزار والمسند وغيرها.

قال صلى الله عليه وسلم " قام من عندي جبريل قبل فحدثني أن الحسين يقتل بشط الفرات " رواه أحمد وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

لقد ترك هذا اليوم باستشهاد الحسين بن علي رضي الله عنه جرحاً غائراً، وألماً وحرناً وثلماً فظيعة في الأمة الإسلامية، لم تندمل رغم مرور السنين وتقلب العصور، ولا تزال قلوب المسلمين كل المسلمين تتألم وتحزن وتتعجب كيف تجرأت عصابة فاجرة باغية على سيد شباب أهل الجنة، وريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأراقت دمه الطاهر، وأزهقت نفسه الزكية في صراع سياسي ما كان ينبغي له أن يصل إلى ما وصل إليه هذه الفتنة بعد أن وُئدت وإذكاء الشر بعد أن كان قد هدأ على يد الحسن بن علي عليه السلام. الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: **إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصَلِّحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**. رواه أحمد والبخاري بنحوه.

"قال ابن خالدون عهد معاوية إلى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة " انتهى من "مقدمة ابن خلدون" (ص ١٠٦).

وقال محب الدين الخطيب رحمه الله في تعليقه على "العواصم من القواصم" (ص ٢٢٩) "عدل عن الوجه الأفضل لما كان يتوجس من الفتن والمجازر إذا جعلها شورى، وقد رأى القوة والطاعة والنظام والاستقرار في الجانب الذي فيه ابنه " انتهى.

والحاصل أن معاوية رضي الله عنه قد فعل في ذلك ما يراه الأصلاح لحال الأمة وقت اختلافها وحصول الاضطراب في صفوفها، ورأى أن تحصيل مقام الاجتماع ودرء الفتنة، أولى من الوفاء بالشرط الذي شرطه عليه الحسن، رضي الله عنه، عند تنازله عن طلب الخلافة، وبيعته له؛ وقد جاءت الشريعة بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها.

ثم إن غاية ما يقال في هذا الأمر: أن معاوية رضي الله عنه، وهو خليفة المسلمين، اجتهد في هذه النازلة؛ فإن كان قد أصاب فيه: فله أجران، وإن كان قد أخطأ، فله أجر واحد، إن شاء الله، وما وقع له في ذلك أو في غيره من نقص أو قصور أو تقصير، فهو في محل العفو من الرحمن الرحيم، وأصحاب النبي ﷺ، أولى الناس بمقام العذر والعفو من الله جل جلاله.

تابعي ينكر على الحاكم ويمنع بدعة في يوم عيد.

وهذا موقف من مواقف الثبات على الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أحد التابعين عندما رأى مروان بن الحكم يبدل سنة رسول الله ﷺ في العيد فقدم الخطبة على الصلاة وبهذا الموقف ثبت سنة رسول الله ﷺ في تقديم الصلاة على الخطبة وهذا ما عليه سلف الأمة.

وهذا الموقف يبين أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا ينكرها إلا جاهل أو منافق، أو غيرهما من أعداء الدين الذين يطعنون في هذه الشعيرة العظيمة التي بها تكون حماية المجتمع من الفرق والانحلال، وبه ترتفع الأمة، ويكون لها التمكين والنصر، والنجاة من عذاب الله وعقابه، وبالضد يكون الضد، والله المستعان.

وفيه أن الإنكار العلي على الحاكم واجب وأن الإنكار العلي قضاء لهذا الواجب.

فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ)). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

هَذَا الْحَدِيثُ خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ رِوَايَةِ قَيْسِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَمِنْ رِوَايَةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ رَجَاءٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَعِنْدَهُ فِي حَدِيثِ طَارِقٍ قَالَ: أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْحُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ، فَقَالَ: الصَّلَاةُ قَبْلَ الْحُطْبَةِ، فَقَالَ: قَدْ تَرِكَ مَا هُنَالِكَ، فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَمَا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ ثُمَّ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ.

قال مالك: والسنة أن تقدم الصلاة قبل الخطبة، وبذلك عمل رسول الله ﷺ وأبو بكر، وعمر، وعثمان صدرا من خلافته. وهذا الحديث قاعدة من قواعد الدين، وظاهره: أن الإنسان يلزمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب الاستطاعة.

وحديث أبي سعيد فيه دلالة على حرص الصحابة على إنكار المنكر، ووجه ذلك أن أبا سعيد أيّد فعل الرجل، وقال: "أما هذا فقد قضى ما عليه"

وقال النووي رحمه الله في شرح صحيح مسلم: هو من أعظم قواعد الإسلام.

(أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة: مروان)؛ أي: خالف المشروع في ذلك؛ حيث إن المتواتر يوم العيد أن الصلاة قبل الخطبة، وأول من قدم الخطبة على الصلاة مروان بن الحكم، أحد خلفاء بني أمية، وقيل: أول من قدمها عمر بن الخطاب، وقيل: عثمان بن عفان، وقيل: إنه الزبير، وقيل: معاوية رضي الله عنهم، والصواب أنه مروان، وأن هؤلاء الصحابة لم يثبت عنهم ذلك، كما قال القاضي عياض وغيره، حيث قال: "ما حُكي عن عمرَ وعثمان ومعاوية لم يصحَّ".

ثبات الإمام أحمد بن حنبل أمام فتنة خلق القرآن.

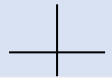
كان الخليفة المأمون العباسي وهو الذي أظهر الفلسفة والقول بخلق القرآن يقول: لولا مكانة يزيد بن هارون . وهو من أكابر علماء السلف . لولا مكانة يزيد بن هارون لأظهرت القول بخلق القرآن

فقالوا له: ومن يزيد بن هارون؟

يعني ماذا يصنع رجل واحد بين هذه الآلاف المؤلفة؟

فقال لهم المأمون: يستطيع أن يشوش علينا العامة.

انظر !!، رجل واحد صلب في دين الله تعالى أوقف محنة وفتنة كان سيدعى لها على المنابر، فلما أطلت هذه الفتنة برأسها واستعلت واستحكمت وقف الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه موقفاً ذكره له التاريخ حتى قال المؤرخون: إن الله تبارك وتعالى أيد هذا الدين برجلين . بأبي بكر الصديق في يوم الردة، وبأحمد بن حنبل يوم فتنة القول بخلق القرآن .



ولما حمل الإمام أحمد إلى بغداد ليضرب بالسياط ضرباً يهد الفيلة وجد آلاف البشر يحيطون بالمقر الذي تم التحقيق معه فيه يحملون الأقلام والدفاتر، يقف عشرات الآلاف في انتظار الكلمة التي سيدلي بها أحمد بن حنبل، لو قال القرآن مخلوق لأصبحت هذه القاعدة التي يكبر عليها الصغير ويشيب عليه الكبير، ولكنه رضي الله تعالى عنه وقف صلباً في دين الله تعالى حتى تم رفع هذه الفتنة وانتصر أهل السنة على أعدائهم من المعتزلة الصادين عن سبيل الله عز وجل.

وابان هذه الفتنة كان كبير الوزراء رجل معتزلي اسمه " أحمد بن أبي دؤاد "، هذه الفتنة استمرت في عهد الثلاثة الخلفاء . المأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكل .، فلما كان عهد الواثق جاء أحمد بن أبي دؤاد وكانوا يمتحنون الناس في المساجد والمدن بالقول بخلق القرآن فحمل رجل إلى الخليفة يرصف في الأغلال والقيود فلما دخل لتضرب عنقه لأنه رفض القول بخلق القرآن قال له أحمد بن أبي دؤاد: دعني فلأناظره يا أمير المؤمنين، فقال: ناظره فقال أحمد بن أبي دؤاد للرجل: ما تقول في القرآن؟ فقال له هذا الشيخ: ما أنصفتني، اجعل السؤال لي.

فقال: لك السؤال.

فقال له: ما تقول أنت في القرآن؟

قال: أقول القرآن مخلوق

قال: هذا قول علمه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر والخلفاء الراشدون.

فقال أحمد بن أبي دؤاد: هذا قول لم يعلمه رسول الله ﷺ ولا

الخلفاء الراشدون

فقال له الرجل: يا لكع وابن لكع، قول لم يعلمه رسول الله ﷺ

والخلفاء الراشدون علمته أنت؟!!

فقال الرجل: رد السؤال إلى حاله. أي أعد المسألة.

فقال له الشيخ: ما تقول في القرآن؟

فقال أحمد بن أبي دؤاد: مخلوق

فقال له: أهذا قول علمه رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون؟

فقال أحمد بن أبي دؤاد: علموه ولم يحدثوا به الناس.

فقال له الشيخ: أفلا وسعك ما وسعهم من السكوت.

فلما سمع الخليفة هذا الكلام أعجبه فدخل بيته واستلقى على

ظهره ووضع ساقاً على ساق كما يقول أبناؤه، وظل يردد

الكلام " هذا كلام علمه رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون . علمته أنت . أفلا وسعك ما وسعهم " ثم خرج من فور فأنهى فتنة القول بخلق القرآن ومنع هذا القول وكرم الشيخ وأمر له بدابة ومال وحمل معززاً مكرماً .

هذا الرجل كان داخلاً لتضرب عنقه، ومع ذلك ثبت في سبيل الله تبارك وتعالى، في سبيل إظهار دين الله عزوجل تهون الحياة، يهون القتل، يهون السجن، لكن دين الله تبارك وتعالى لا بد أن يكون في الصدارة، لذلك جاهر هؤلاء العلماء عبر عهودهم وعصورهم جاهروا بالحق أمام كل ظالم كائناً من كان أسلوبهم أو طريقتهم في البطش والتنكيل بأهل العلم والدين .



وهذا هو العالم الرياني: العز بن عبد السلام

لما جاء الملك أيوب- وكان ملكاً على مصر- في احتفال رسمي للدولة، وهو قاعد على الكرسي شامخاً، وحوله الناس يقبلون الأرض، ودخل العز فصرخ وقال: يا أيوب ! تذكر إذا قال الله عز وجل لك: ألم أملكك الأرض ثم تبيح شرب الخمر في الحانة الفلانية، وتترك الدار الفلانية للدعارة والزنا؟! فغضب الذين حول الملك أيوب كيف يناديه بأيوب ولا يقول له: يا أمير المؤمنين! أو يا أيها الأمير! أو يناديه بالكنية؟

فقال أيوب : وأين ذاك يا سيدي -يقول للعز- ؟

قال: في الحانة الفلانية والحانة الفلانية.

قال: يا سيدي! هذا أنا لم أفعله، إنما هذا كان من زمان أبي.

قال: أنت من الذين يقولون : **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ** [الزخرف: ٢٣]؟

فأمر أيوب بإبطال هذه الحانات وما فيها من المنكرات.

قال له أبو الحسن البادي- وقد انتشرت الواقعة في الديار المصرية-: ألم تهب الرجل؟! قال: يا بني! إني استحضرت هيئة الله

عز وجل فرأيت السلطان قدامي كالقط.

كيف يمكن أن يستحضر بهذه السرعة إلا إن كان هذا الرجل مدرباً على استحضر النية الصالحة من كثرة إدماها، والعز بن عبد السلام هذا مثل قريب، ولو ضربت الأمثلة في القرون الفاضلة لرأيت العجب.

وفي عهده أرسل المغول رسلاً إلى القاهرة تطلب منها التسليم دون قيد أو شرط، وكان المغول على أبواب مصر بعد أن اجتاحوا مشرق العالم الإسلامي، لكنّ قطز رفض هذا التهديد وأصر على المقاومة والدفاع، وكان الشيخ "العز بن عبد السلام" وراء هذا الموقف، يهيب الناس للخروج إلى الجهاد.

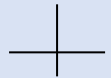
واحتاج السلطان إلى أموال للإنفاق على إعداد المعركة، وحاول فرض ضرائب جديدة على الناس، لكن "العز بن عبد السلام" اعترض على ذلك وقال له: "قبل أن تفرض ضرائب على الناس عليك أنت والأمراء أن تقدموا ما تملكونه من أموال لبيت مال المسلمين، فإذا لم تكف هذه الأموال في الإعداد للمعركة، فرضت

ضرائب على الناس.”

واستجاب السلطان لرأى “العز بن عبد السلام”، وقام بتنفيذه على الفور. وخرج المسلمون للقاء المغول في معركة “عين جالوت” وكان النصر حليفهم.

هكذا كانوا، العلماء الربانيون هم دعائم هذه الأمة، هم الذين حموا هذه الأمة، هم الذين صدوا عوادي المعتدين على أمة الإسلام، هم الذين حفظوا دين الله تبارك وتعالى، لذلك كانت لهم أعظم المنزلة عند جميع المسلمين.

لهم حقوق عظيمة لأنهم قاموا بدين الله تعالى، ضحوا في سبيل الله عز وجل، أفنوا أعمارهم لخدمة هذا الدين.



وهذا هو العالم الرباني شيخ الإسلام بن

تيمية رحمه الله تعالى ، هذا الرجل الذي ورث علوم السلف وخاض غمار معارك على كافة الأصعدة في سبيل الله تبارك وتعالى، لما جاء التتار ونزلوا إلى بلاد الشام وكان قاذان أو غازان ملك التتار ملكاً مسلماً لا يعرف شيئاً عن الإسلام واجتاح البلاد وأحرق القرى وذبح المسلمين حتى إن الجنود من ميادين المعارك فذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية إلى معسكر قاذان فأغلظ له القول وقال له اتق الله إن آباءك وأجدادك كانوا كفاراً ووفوا بالعهود وأنت ظلمت الناس وسفكت دماءهم ، فلما قدم له ملك التتار طعاماً قبض يده ولم يأكل منه شيئاً فقال : لما لا تأكل ؟

قال: كيف آكل من طعامك وأنتم سرقتم طعام الناس من الأسواق؟ وطالبه أن يرحل وأن يفك حصاره فاستجاب له قاذان؛ لأنه خرج في سبيل الله ، سمع كلام رجل يعمل لله تبارك وتعالى ، حين فر الجنود من ميدان المعركة وكان الجنود تابعين للجيش المصري رحل ابن تيمية من الشام إلى مصر وقال لسلطين المماليك : إما أن ترتبوا جيشاً يدافع عن الشام وإما أن نرتب نحن جيشاً يدافع عن بلادنا ، ثم إنه ذهب بنفسه وأعد الجند وخرج في معركة شطح الشهيرة التي كسر فيها التتار كسرة لم

يرفعوا بعدها رأساً في الديار الشامية ، قال الرواة : وكان ابن تيمية يقف مقاتلاً في أول الجيش فقيل له يا إمام تنحى جانباً ، قال : إني أريد أن أنال أشرف الميزات بأن أموت مقبل غير مدبر، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

ويقول عنه ابن عبد الهادي: والأحوال التي عاش فيها شيخ الإسلام ابن تيمية تشهد بأنه كان متحلياً باليقين والمشاهدة التي بعثت فيه صفة الافتقار والاضطرار والعبودية والإنابة وقد روي أنه إذا أشكلت عليه مسألة أو صعب عليه فهم آية التجأ إلى جامع في مكان موحش ووضع جبهته على التراب وردد قوله: يا معلم إبراهيم فهمني.

ويقول الذهبي: لم أر مثله في ابتهاله واستغاثته وكثرة توجهه. ويقول ابن تيمية: إنه ليقف خاطري في المسألة أو الشيء أو الحالة التي تشكل عليّ فاستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل حتى ينشرح الصدر وينجلي إشكال ما أشكل.

وكان إذا صلى الفجر يجلس في مكانه حتى يتعالى النهار جداً
يقول هذه غدوتي لو لم أتعد هذه الغدوة سقطت قواي.

ومع عبادته ومكانته العلمية كان متواضعاً هاضماً لنفسه منكراً
لذاته يقول ابن القيم: كان كثيراً ما يقول ما لي شيء ولا مني شيء
ولا في شيء. وإن مدحه أحد في وجهه قال: والله إني إلى الآن
أجدد إسلامي كل وقت وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً.

يقول ابن القيم: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله
روحه - يقول: العارف لا يرى له على أحد حقاً، ولا يشهد له
على غيره فضلاً ولذلك لا يعاتب ولا يطالب ولا يضارب.

كما كان شيخ الإسلام ابن تيمية زاهداً في الدنيا مقبلاً على
الآخرة يقول زميله في الدراسة ومعاصره الشيخ علم الدين
البرازلي: وجرى على طريقة واحدة من اختيار الفقر والتقلل من
الدنيا ورد ما يفتح عليه.

ويقول عنه الحافظ ابن فضل الله: كان يتصدق حتى إذا لم يجد
شيئاً نزع بعض ثيابه فيصل به الفقراء. رحمه الله تعالى.



وهذا العالم الرباني: أحمد محمد شاكر

في حكاية حكاها لنا الشيخ العلامة، آخر أعيان المحدثين في الديار المصرية، وشيخ الأشبال أحمد محمد شاكر رحمه الله تعالى وطيب ثراه، يقول وهو يخاطب أحد الأدباء الذين وصفوا النبي ﷺ بكلمتين نابيتين، ولعلكم قرأتم القصة في (كلمة الحق) كتاب صدر لشيخ أحمد شاكر رحمه الله.

يقول: إن السلطان فؤاد كان يصلي الجمعة في العابدين، فاستحضروا الشيخ محمد المهدي خطيب مسجد عبدان؛ لأنه كان خطيباً مفوهاً، وكان السلطان يجب أن يصلي وراءه دائماً، دعت الأوقاف ونقلته إلى مسجد آخر حتى يخطب الجمعة، وصادف في هذه الفترة أن طه حسين عميد الأدب العربي، أتى بالدكتوراه في اللغة العربية من فرنسا، فشل في أن يأخذها في بلاد العرب فأخذها في بلاد الأعاجم.

فأراد الخطيب محمد المهدي أن يثني على الملك فؤاد بمناسبة أنه قادم يصلي الجمعة، فقال يمتدح الملك فؤاد : ما عبس وما تولى لما جاءه الأعمى.

الأعمى: هو طه حسين ، ما عبس فيه ولا تولى، بل هش له وبش، وأرسله إلى فرنسا يحضر الدكتوراه.

وبعد أن صلوا الجمعة قام الشيخ **محمد شاكر** والد الشيخ **أحمد شاكر** - وكان وكيل الجامع الأزهر - وقف وقال: أيها الناس! صلاتكم باطلة والخطيب كافر، فأعيدوا الصلاة؛ حدث هرج ومرج والسلطان واقف، وهو يقول: أيها الناس! صلاتكم باطلة وخطيبكم كافر. وبعد ذلك إمام مسجد عابدين رفع إلى السلطان الفتوى يأمره بصلاة الظهر، وكان هذا الرجل - **محمد المهدي** - له ظهر وله مستشارون، فأقنعوه أن يرفع شكوى ضد الشيخ **محمد شاكر**.

الشيخ **محمد شاكر** أفتى بهذا لأن في قول الخطيب تعريض بمقام النبي ﷺ، أي: أن الملك **فؤاد** صنع أفضل مما صنع النبي ﷺ؛ فإنه لما جاء ابن **أم مكتوم** عبس وتولى، ولما جاء **طه حسين** إلى الملك **فؤاد** ما عبس ولا تولى، قال: هذا تعريض في مقام النبي ﷺ ولا يجوز وإن كان الخطيب يعتقد ذلك فهو كافر.

وأرسل الشيخ **محمد شاكر** إلى مستشرقين أجانب ممن لهم خبرة بدلالات الألفاظ على المعاني، وأراد أن يستقدمهم ليقول لهم: هل استخدام الخطيب لهذه العبارة فيها تعريض بالمقام النبوي أم لا؟ ولم يرجع لشيخ من شيوخ الأزهر حتى لا يقال: انحازوا له.

فلما علم أن القضية في النهاية ستحدث فتنة وخسراناً

فيها **محمد المهدي** وقد أذله الله، قال الشيخ **أحمد شاکر** : وأقسم بالله لقد رأيت هذا بعيني، طال الزمان بالرجل **محمد المهدي** - والذي كان من أشهر خطباء مصر، حتى إن الملك **فؤاد** كان يحرص على الصلاة عنده - فلقد رأيتته خانعاً ذليلاً فراشاً لأحد المساجد يتلقى نعال المصلين، فتواريت عنه وهو يعرفني وأنا أعرفه؛ حتى لا يراني، فلست مشفقاً عليه فلم يكن يوماً موضعاً للشفقة.

هكذا كانوا ، كانوا يصدعون بالحق ولا يخافون في الله تبارك وتعالى لومة لائم ، لم يجاهدوا فقط في المساجد والمعابد وإنما جاهدوا في ميادين القتال الحربية ، خرجوا في سبيل الله جل وعلا حتى نصر الله عزوجل هذه الأمة ، فهذا الصنف من الناس العلماء الربانيون، هم الذين يكفلون لهذه الأمة أن تحيا حياة رغبة ، أن تحيا حياة آمنة مطمئنة ؛ لأنهم قاموا لله بحقه وأعلنوا وصدعوا بهذا الحق على رؤوس الأشهاد ، لذلك أثنى النبي ﷺ على طلاب العلم وبين أن الملائكة تضع أجنحتها على سبيل التحية لطالب العلم رضاً بما يصنع ، لأن هؤلاء ينصعون لنا نهضتنا ، يحافظون على ديننا ، يدرسون شرع الله عزوجل ويربون عليه البشر فكان هؤلاء العلماء هم صمام أمان هذه الأمة عبر العصور..

تمضي قافلة العلماء جيلاً بعد جيل في كل البلاد وفي كل العصور،
تذكر هؤلاء الأئمة المجددون المنافحون والمدافعون عن شرع الله
تبارك وتعالى الباذلون أرواحهم ودماءهم في سبيل عزة ونصرة هذا
الدين الجليل العظيم.

وهذا **الإمام محمد بن إبراهيم آل الشيخ** رائد
النهضة العلمية المعاصرة في العالم الإسلامي، هذا الرجل كان مفتياً
لليدار السعودية وكان الملك سعود بن عبد العزيز هو الملك آنئذ
وكان ملكاً غير حازم وعنده مخالقات فاستشاط الإمام محمد بن
إبراهيم غضباً وقرر بصفته مفتياً أن يخلع هذا الملك، وهذا شيء
لا يعرف في عهدنا المعاصر " **المفتي يخلع الملك!!** " فجمع الرجل
أسرة آل سعود وأخبرهم أنه سيخلع الملك واتفق الناس على
ذلك وقام الإمام محمد ابن إبراهيم وكان الرجل ضريراً ببصره منير
قلبه وبصيرته، فقال له على مسمع من الجميع: يا سعود قد
عزلناك فأنت معزول، قم يا فيصل، فقام الملك فيصل رحمه الله
فبايعه الناس بالملك.

" **قد عزلناك فأنت عزول!!** " ، بكلمتين عزل الملك ، رأيتم



عندما يكون الإمام إماماً والشيخ شيخاً تستقيم الحياة ، أما عندما تحولوا الشيوخ إلى موظفين أو متسولين أو منافقين من هنا وهناك تفسد الحياة كما نرى.

أين الذين قال للملك: " **قد عزلناك فأنت معزول** " من الذي قرأ يوماً في احتفالية إذاعية ﴿كتاب أنزلناه﴾ ثم سكت، ثم استأنف قارئاً ﴿مبارك فاتبعوه لعلكم تفلحون﴾ **مبارك** فاتبعوه!! ويقف ثم يعيد **مبارك** فاتبعوه!! أي اتبعوا مبارك لعلكم تفلحون. أرايتم التلاعب بكتاب الله وبدين الله تبارك وتعالى وسبقه في ذلك قارئ آخر قال في احتفالية أيضاً ﴿ولكم فيها **جمال**﴾ ثم يعيد مرات ومرات ((**ولكم فيها جمال**)) والناس يصرخون الله أكبر.

أمثال هؤلاء المتسولون بدين الله تعالى يذهبون إلى مزبلة التاريخ، وأما أمثال أولئك من العلماء الربانيين حملتهم الأمة فوق رأسها وعاشوا في وجدانها؛ لأنهم أساس نهضتها وسر حضارتها، صدعوا بالحق في المواقف التي كانوا يتعرضون فيها لإزهاق أرواحهم؛ لكنهم ضحوا في نفوسهم في سبيل مبادئهم.



وهذا نموذج آخر **وهو العلامة المفتي ابن عاشور** الذي وقف أمام حاكم تونس أبورقيبة الذي كان يحكم تونس قبل ابن علي ، هذا أبورقيبة أظهر الإلحاد وأصدر القوانين التي تساوي في الميراث بين الرجل والمرأة وحرم الحجاب، وضيق على المسلمين، وحرم تعدد الزوجات، وجعل الطلاق أمام القاضي فغير في دين الله وأصدر القوانين المخالفة لشرع الله تعالى، وكانت هذه القوانين في مجملها فرنسية الأصل والمنشأ، ثم إنه أراد التطاول على شرع الله تعالى فاستدع المفتي الشيخ بن عاشور رحمه الله تعالى فقال له : أريدك الآن أن تذهب إلى مبنى التلفاز وأن تلقي بياناً تقول فيه إن الصيام في رمضان يعطل حركة الإنتاج ولذلك أدعوكم إلى الفطر في رمضان تأملوا ... ، ما هذا الجبروت؟! ، يأمر الشيخ بأن يذهب يأمر الشعب بالإفطار وعدم صيام رمضان!!؟ هذا شيء غريب وعجيب.

فذهب الرجل إلى مبنى التلفزيون ، وتم بث خطبته على الهواء بأن المفتي بن عاشور سيلقي بياناً ، فخرج بن عاشور رحمه الله تعالى فقال : إن الحبيب أبو رقيه أمرني أن أقول لكم إن الصيام يعطل الإنتاج ، وأنا أقول لكم : قد كفر الحبيب بورقيبة بدين الله تبارك وتعالى ، فسيق الرجل إلى المشنقة ، لكنه رُفِعَ مع السابقين من الصادعين بالحق في سبيل الله تبارك وتعالى ، فقد حياته ولكنه

حافظ على مبدأه ، حافظ على منهجه ، حافظ على دينه ، لأنه يعلم أن هذه أمانة سيسأل عنها يوم القيامة أمام الله تعالى ، ماذا يكون موقفه يا ترى لو أنه وقف أمام الله تعالى فقال أنا حرمت الصيام ، أو أبحت الربا ، أو أبحت الاختلاط، أو أبحت التبرج ، أو داهنت الظلمة، أو هادنت الفجرة ، أو حرمت ما أحل الله تعالى وحللت ما حرم الله تعالى من غير علم أو على غير هدى من الله عزوجل ؟

أين هؤلاء العلماء من أولئك الصنف من البشر الذين حرفوا دين الله تبارك وتعالى والذين وقفوا يداهنون الظلمة الفجرة الذين حاربوا دين الله تبارك وتعالى وأمروا الناس بطاعتهم والخضوع لهم وحللوها ما حرم الله تعالى وحرموا ما أحل الله تعالى.

يأتي رجل بعد أربعة عشر قرناً من الزمان يحل الربا والعلماء جيل من بعد جيل يجرمون الربا تحريماً واضحاً صريحاً عملاً بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية، وهذا الرجل يقول للناس أن الفوائد البنكية ليست ربا، والبنوك الآن ماذا تفعل؟ أنهم يأخذون الأموال لتشغيلها وتعطيكم منها نسبة وغير ذلك من الكلام

المخالف لدين الله تبارك وتعالى، هذه البنوك اسمها لمن يعرف علم الاقتصاد " **تجار الديون** " البنك ما هو إلا تاجر ديون يأخذ مالك ومال هذا ومال هذا ويتعامل بالربا ويرمي للناس الفتات من الحرام الملعون فاعله على لسان النبي ﷺ .

جاء هذا بعد هذه القرون التي عرف فيها حرمة الربا ليحلل للناس الربا، ويأتي آخر على وسائل الإعلام الهدامة، ليقول للناس إن النقاب عادة جاهلية وليس من الإسلام، هل النقاب الجاهلي يرضى عنه النبي ﷺ حتى يقول للمرأة المنتقبة التي أهلت بحج أو عمرة لا تنتقب المحرمة ولا تلبس القفازين، أي أنه أقر بالنقاب وبالقفازين؛ فلو كان النقاب والقفاز من الجاهلية لنهى عنه النبي ﷺ في الحج وفي غير الحج.

ألم تكن أمهات المؤمنين جميعهن منتقبات، أكان يرضى النبي ﷺ بأخلاق الجاهلية وثياب الجاهلية أن تمارس في بيته وعلى نساءه ونساء المؤمنين، فبدلاً من أن يقول إنه عادة جاهلية كان أليق به أن يقول: اختلف العلماء في حكم لبس النقاب كما هو معروف وشائع عند أهل العلم في أنه هل هو واجب أو مستحب

ولكن هذا المفتري اخترع قولاً ثالثاً، قال: النقاب ليس من الإسلام وهو عادة جاهلية.

وقال آخر من هؤلاء الذين يفترون على الله تعالى الكذب يقول الفتاة التي ترتدي المايوه البكيني أفضل عند الله من الفتاة التي ترتدي النقاب ... بخ بخ .. حسبنا الله ونعم الوكيل.

لابسة البكيني أفضل عند الله من التي لبست النقاب.. هكذا كانوا.. يفترون على الله الكذب.

تأملوا هؤلاء الشيوخ الذين حرفوا الأمة عن مسارها وتم تسليط الأضواء عليهم، ولماذا التف الناس حول الشيوخ المباركين الذين يدعون إلى منهج أهل السنة والجماعة وخرج الناس وراءهم بالآلاف؟ لأن هؤلاء علموا الناس علماً صحيحاً، قالوا الحق وأنكروا الباطل، هؤلاء لم يكونوا على وتيرة الموظفين الرسميين.

فلا بد أن يعود العلماء إلى دورهم الطبيعي في قيادة هذه الأمة علماء الأمة الذين قادوا الأمة عبر العصور تفتقدهم الأمة الآن، تفتقد جموعهم، أما الآحاد فموجودة في هذه الأمة، لا يخلوا عصر بحمد الله من قائم لله بحق.

وإن الأمة الإسلامية تعاني من مشاكل عديدة وعميقة. والعلماء مُعَوَّلٌ عليهم كثيرا في الإصلاح والنهوض ففاقد الشيء لا يعطيه. وكما قيل قديما:

يا علماء الدين يا ملح البلد... من يصلح الملح إذا الملح فسد

وبعد عرض هذه النماذج المشرقة أقول: إن الأمة اليوم في أمس الحاجة إلى المؤمن القوي في عقيدته.. القوي في عبادته. القوي في تعلمه.. القوي في دعوته... القوي في دفاعه.. القوي في صدعه بالحق ووقوفه أمام سيل الشبهات والشهوات، والفتن والمغريات.. إذا تكلم كان قويا واثقا، وإن ناقش كان قويا واضحا، وإذا عمل كان قويا ثابتا، يأخذ تعاليم دينه بقوة، وينقلها إلى غيره بقوة، ويتحرك ويدعو في مجتمعه بقوة.. لا وهن ولا تمع.. ولا ضعف ولا تصنع، عملاً بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾
وبقول النبي ﷺ: ((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز..))

والمطلوب: أن نعمل بقول الله تعالى خذوا ما آتيناكم بقوة، فتأملوا قول الله تعالى إلى بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ

وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿البقرة: ٦٣-٦٤﴾ . قال العلامة السعدي رحمه الله: "أي: واذكروا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ وهو العهد الثقيل المؤكد بالتخويف لهم، برفع الطور فوقهم وقيل لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجد واجتهاد، وصبر على أوامر الله، ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي: ما في كتابكم بأن تتلوه وتعلموه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله تعالى وسخطه، أو لتكونوا من أهل التقوى" (أ. هـ. من تفسير السعدي).

قال ابن كثير في تفسيره: "وقال أبو العالية، والربيع بن أنس: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي بطاعة. وقال مجاهد: بقوة: بعمل بما فيه. وقال قتادة ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ القوة: الجد وإلا قذفته عليكم.

وعلى المسلمين اليوم أن يأخذوا القرآن بقوة، وأن يعتصموا به، وأن يوثقوا استمسакهم به، تنفيذاً للأمر السابق: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ وتنفيذاً للأمر الرباني في قوله

تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وتنفيذاً للأمر الله تعالى في قوله: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۚ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣] . ،

والسؤال الآن: ما المراد بالقوة التي أمرنا الله تعالى بها؟
إن كلمة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ في الآية نكرة مُنَوَّنة، والتنوين مع التوكيد هنا يدل على العموم والشمول، أي أن الكلمة تشمل جميع مظاهر القوة ومجالاتها، وصورها وألوانها.

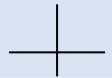
إنها تشمل قوة العلم والفهم، لأن من عرف معاني القرآن، وفهم حقائقه، وتعلم أحكامه؛ يعرف طبيعة هذا القرآن ومقاصده.. يعرف مهمته ودوره، في حياة الفرد والأمة، وكلما ازداد علمه بالقرآن؛ ازداد تعلقه به وحياته معه.

وتشمل قوة الوعي والبصيرة، فالقرآن يرتقي بمداركنا وتصوراتنا، ويشحذ عقولنا وأفكارنا، ويفتح آفاق الوعي عندنا، وينير بصائرنا، وشتان بين أصحاب البصائر المنيرة الذين يتعاملون مع القرآن الكريم بوعي وإشراف، وبين آخرين "سدج" لا يعرفون عن القرآن إلا أنه قرآن عظيم!!

وتشمل قوة العزيمة والإرادة والهمة، في حمل هذا القرآن، فبعد الفهم الصادق لأحكام القرآن، وبعد الوعي المتألق بهذا القرآن؛ تأتي قوة النفس المؤمنة التي تحمل هذا القرآن، فالقرآن كتاب ثقيل في مهمته وأثره، ولا يحمله إلا الإنسان الثقيل في عزمته وهيمته، وفي إرادته وطاقته!

تشمل قوة الاستقامة والاستمساك والعمل، والتنفيذ والتطبيق، بأن يحكم القرآن حياة الفرد والأمة، وأن يكون الواقع المعاش انعكاساً لأحكام القرآن..

وتشمل قوة الدعوة والحركة والمواجهة، لأن دعوة الآخرين إلى هذا القرآن واجبة، فعلى الأمة المسلمة المنبثقة عن القرآن أن تدعو إلى هذا القرآن، وأن تتحرك بهذا القرآن، وأن ترفع راية القرآن، وأن تنحاز إلى هذا القرآن، وأن تواجه أعداء القرآن، وأن تجاهدكم بهذا القرآن.. وصدق الله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾



١١ - حكم دخول العلماء الربانيين على السلاطين.

إن المتأمل لمواقف العلماء تجاه قضية المجيء إلى السلاطين وغشيان مجالسهم تصيبه الدهشة بادئ الأمر، ويشعر باختلافهم في المنهج ويستريب من المواقف المتباينة من العلماء نحو الحكام... وما ذاك إلا لخفاء قواعد مهمة كان أهل العلم يترسمونها، صاغت هذه القواعد مواقفهم، وصقلت تجربتهم، فأبقتها الأيام، وسجلها التاريخ، وتقبلها الحكام .

وهذه المسألة شغلت علماءنا كثيراً، منذ عصر الصحابة والتابعين.. وقد احتدم الخلاف وتباين فيها واحتد النقاش حولها، خاصة بعد أن كثر الحديث عن الحكام الظلمة وأمرء الجور..

ولقد حدث بعض الاختلاف عند السلف في كيفية التعامل مع هذه القضية الحساسة.. فمنهم من اجتهد وأصاب فله أجران، ومنهم من اجتهد فأخطأ فله أجر واحد.. فهم دائرون في فلك الاجتهاد .

لكن ينبغي أن يعلم أنه بالرغم من وجود هذه الاختلافات إلا

أن هناك أصولاً وأساليب مشتركة اعتمدها العلماء في دعوتهم مع الحكام .

قال الحارث المحاسبي (١) :

"الأصل الذي بنوا به طريقتهم ، التزام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالصدق ، وتقديم العلم على حظوظ النفوس ، والاستغناء بالله عن جميع خلقه ."

وإن الدخول على السلاطين والإكثار منه هو في حد ذاته بلاء وابتلاء، وهنا يأتي دور المصالح والمفاسد.. وهنا تتمحص النوايا.. وهنا ينبغي أن يتأمل العالم والمحاسب النصوص والآثار المرهبة في الدخول على السلاطين، وكل ما ساقه الإمام السيوطي رحمه الله (ت: ٩١١هـ) في كتابه: " ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين " يعتبر من هذا الباب .

فمن ذلك ما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: " مَنْ بَدَأَ جَفَاً وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيِّدَ غَفَلَ وَمَنْ أَتَى أَبْوَابَ السُّلْطَانِ افْتُنَّ ، وَمَا أَزْدَادَ عَبْدٌ مِنَ السُّلْطَانِ قُرْبًا إِلَّا أَزْدَادَ مِنْ اللَّهِ بُعْدًا) . (رواه أحمد

(١) (عرف بذلك لكثرة محاسبته لنفسه).

بإسنادين رواة أحدهما رواة الصحيح، وحسنه السيوطي في الجامع وذكره شيخ الإسلام في الاقتضاء. قال الألباني رحمه الله: [حسن صحيح].

(وفي صحيح الترغيب والترهيب).

وفي رواية لأبي داود: ((وَمَنْ لَزِمَ السُّلْطَانَ افْتُنَّ ، وَمَا ازْدَادَ عَبْدٌ مِنَ السُّلْطَانِ دُنُوًّا إِلَّا ازْدَادَ مِنْ اللَّهِ بُعْدًا)) أخرجه أبو داود (٣/١١١ ، رقم ٢٨٦٠).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ ، جَفَا ، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيْدَ ، غَفَلَ ، وَمَنْ أَتَى أَبْوَابَ السُّلْطَانِ افْتُنَّ)) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حديث حسن. قال الألباني رحمه الله: [صحيح لغيره] (السلسلة الصحيحة: ٣/٢٦٧ ، وفي صحيح الجامع: ٦١٢٤).

قال ابن المبارك - رحمه الله - : " من بخل بالعلم ابتلي بثلاث: إما موت يذهب علمه، وإما ينسى، وإما يلزم السلطان فيذهب علمه " وقال أبو حازم (سلمة بن دينار): " إن خير الأمراء من أحب العلماء، وأن شر العلماء من أحب الأمراء . "

لكن هل كل السلاطين داخلون في هذا المعنى من التحذير والترهيب أم أن المراد بذلك هو السلطان الجائر الظالم الذي استباح بيضة المسلمين واستحل دمائهم ولم تعصم عنده أموالهم يقول ابن عبد البر - رحمه الله - مبيناً هذا المعنى ومجيباً لهذا التساؤل بعد أن أورد الأحاديث والآثار الواردة في النهي عن المجيء إلى السلاطين : " معنى هذا كله في السلطان الجائر الفاسق، وأما العدل منهم الفاضل فمداخلته وعونه على الصلاح من أفضل أعمال البر ، ألا ترى أن عمر بن عبد العزيز إنما كان يصحبه جلة العلماء " وقال علامة الأندلس ابن حزم وهو ينصح العالم في رسالته (مراتب العلوم) : " وإن ابتلي بصحبة سلطان فقد ابتلي بعظيم البلايا ، وعرض للخطر الشنيع في ذهاب دينه وذهاب نفسه ، وشغل باله ، وترادف همومه .. " وهذا كلام عالم من أئمة الناس بأخلاق الملوك وصفاتهم .

ومن الأمور المقررة عند أهل السنة والجماعة أن الحكام داخلون تحت ولاية العلماء، وذلك أن واجب الحكام أن يحكموا وفق الشريعة الإسلامية، والعلماء هم المرجع في بيان الشريعة الإسلامية وتوضيح أحكامها، فكان الحكام من هذه الناحية داخلون تحت سلطان ولاية العلماء وخاضعون لطاعتهم فيما

يبينونه من الأحكام الشرعية .

ومن الأقوال المشهورة في بيان هذا عبارة أبي الأسود الدؤلي الذي قال: " لَيْسَ شَيْءٌ أَعَزَّ مِنَ الْعِلْمِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُلُوكَ حَكَامَ عَلَى النَّاسِ، وَالْعُلَمَاءَ حَكَامَ عَلَى الْمُلُوكِ " (الحث على طلب العلم" (ص ٥٣).

ومن النقول التي توسعت في بيان هذه العلاقة بين العلماء والحكام ما قرره الأمام ابن القيم رحمه الله، بعد حكايته للقولين في تفسير أولي الأمر أنهم العلماء أو الأمراء، فقال :

"والتحقيق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم ، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء ، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم ، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول ، فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء. ولما كان قيام الإسلام بطائفتي العلماء وكان الناس كلهم لهم تبعاً، كان صلاح العالم بصلاح هاتين الطائفتين وفساده بفسادهما، كما قال عبد الله بن المبارك وغيره من السلف: (صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس، قيل من هم؟ قال: الملوك والعلماء)(١)

(١) **تنبيه** لا يصح حديث: "صنفان من أمتي إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس: السلطان، والعلماء." [حديث موضوع]

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: (١)

هل دخول العلماء الربانيين إلى قصور هؤلاء الأمراء ومجالسهم، هو مجرد فتنة ومذلة للعلم والعلماء، وخدمة رخيصة للحكام الظالمين؟ وهو ما نُقل عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه، فيخرج ولا دين له. قيل له: ولم؟ قال: لأنه يرضيه بسخط الله."

— أم أن من حق العالم — ومن واجبه — أن يدخل عليهم وينصحهم، ويتعاون معهم، ويعطيهم مما عنده، وينال هو أيضا مما عندهم، كما ورد عن الإمام مالك أنه قيل له: إنك تدخل على السلطان وهم يظلمون ويجورون! فقال: «يرحمك الله، فأين التكلم بالحق؟»

ومن العلماء الذين بالغوا في العناية بمسألة التعامل مع السلاطين والولاة، وتشددوا فيها: الإمام أبو حامد الغزالي. وقد كتب في (الإحياء) بابا مطولا: "فيما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة وما يحرم، وحكم غشيان مجالسهم والدخول عليهم

أخرجه تمام الرازي في "فوائده" (١٥١٦)، و أبي نعيم في "الحلية" (٩٦/٤)، و في "فضيلة العادلين" (٣٦)، و ابن عبد البر في "جامع بيان العلم" (١١٠٨).

(١) من سلسلة "رسالة العلماء ورثة الأنبياء للريسوني" (بتصرف).

والإكرام لهم"، قال في أوله:

"اعلم أن لك مع الأمراء والعمال الظلمة ثلاثة أحوال:

—الحالة الأولى، وهي شرها: أن تدخل عليهم،

—والثانية، وهي دونها: أن يدخلوا عليك،

—والثالثة، وهي الأسلم: أن تعتزل عنهم، فلا تراهم ولا

يروئك..."

وأنقل فيما يلي واقعة نموذجية حية، تظهر وتوضح الخلاف القديم الذي كان قائماً - ولا يزال - حول دخول العلماء على الأمراء، وغشيانهم قصورهم ومجالسهم... وقد أوردها القاضي عياض في ترجمته لأبي بكر الباقلاني:

"قال أبو عبد الله الأزدي، وغيره: كان الملك عضد الدولة فناخسرو بن بويه الديلمي، يحب العلم والعلماء. وكان مجلسه يحتوي منهم على عدد عظيم في كل فن، وأكثرهم الفقهاء والمتكلمون. وكان يعقد لهم للمناظرة مجالس. وكان قاضي قضاته، بشر بن الحسين، معتزلياً.

فقال له عضد الدولة يوماً: هذا المجلس عامر بالعلماء، إلا أنني لا أرى فيه عاقداً من أهل الإثبات - يعني مذهبهم - والحديث يناظر؟ فقال له قاضيه: إنما هم عامة، أصحاب تقليد ورواية،

يروون الخبر وضده، ويعتقدونهما جميعاً. ولا أعرف منهم أحداً يقوم بهذا الأمر، وإنما أراد ذمّ القوم، ثم أقبل يمدح المعتزلة. فقال له عضد الدولة: محال أن يخلو مذهب طبق الأرض من ناصرٍ، فانظر أي موضع فيه مناظر، يكتب فيه فيُجلب.

فلما عزم عليه قال القاضي: أخبروني أن بالبصرة شيخاً وشاباً، الشيخ يعرف بأبي الحسن الباهلي - وفي رواية بأبي بكر بن مجاهد - والشاب يعرف بابن الباقلاني.

فكتب الملك من حضرته يومئذ يشير إلى عامل البصرة، ليعثهما. وأطلق مالاً لنفقتهما من طيب ماله. فلما وصل الكتاب إليهما، قال الشيخ وبعض أصحابه: هؤلاء قوم كفرة فسقة - لأن الديلم كانوا روافض - لا يحل لنا أن نطأ بساطهم، وليس غرض الملك من هذا إلا أن يقال إن مجلسه مشتمل على أصحاب المخابر كلهم، ولو كان خالصاً لله، لنهضت.

قال القاضي (يقصد الباقلاني): فقلت له: هكذا قال ابن كلاب والمحاسبي، ومن في عصرهم: إن المأمون فاسق، لا نحضر مجلسه، حتى سيق أحمد بن حنبل إلى طرسوس، وجرى عليه بعده ما عُرف. ولو ناظروه لكفوه عن هذا الأمر، وتبين لهم ما هم عليه

بالحجة.

وأنت أيضاً أيها الشيخ تسلك سبيلهم، حتى يجري على الفقهاء ما جرى على أحمد، ويقولوا بخلق القرآن، ونفي الرواية؟ وها أنا خارج إن لم تخرج. فقال الشيخ: أما إذا شرح الله صدرك لهذا، فاخرج...”

فهاهنا رأيان وتقديران مختلفان في المسألة:

— **الأول**: يمثله الشيخ الجليل أبو الحسن الباهلي، وآخرون قبله. ويرى أصحابه أن هؤلاء الحكام فسقة فاسدون، ولا يريدون بدعوة العلماء وتقريبهم إلا الدعاية لأنفسهم وتعزيز مشروعيتهم وتحسين صورتهم...

— **الثاني**: يمثله تلميذه أبو بكر الباقلاني، ويتبنى مبدأ الحضور الفاعل والمشاركة الإيجابية والتدافع مع المذاهب والأفكار المخالفة، وأن ذلك له أثره وفائدته الملموسة، بخلاف سياسة المقعد الفارغ، التي لا تأتي بشيء، ولا تزيد الطين إلا بلة.

وبقي مسلك **ثالث** ليس وارداً في هذه الواقعة، هو مسلك طائفة من “العلماء”؛ لا هم يعتزلون هرباً من الفساد والمفسدين،

ولا هم يحضرون لأجل نصره الحق ومدافعة الباطل. بل يحضرون ويتهافتون، ويبدلون التملق والتزلف، لأجل مكاسبهم ومناصبهم...
ولا شك أن هذا هو أسوأ الخيارات، وأبعدها عن مقام العلم والعلماء.

مسألة نصيحة العلماء للأمرء

ما زال الدفاع عند بعض العلماء، حول تقديم النصيحة لولي الأمر، وأنها يجب أن تكون سرا بينك وبينه، وأن الجهر بها فتنة ورياء وسوء أدب...

وما زال دعاة النصيحة السرية يعكفون على صورة واحدة، ساكنة لا تتغير ولا تتحرك، يجسسون عندها أنفسهم وأنفاسهم، وهي الواردة في حديث ضعيف يقول: ((مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِسُلْطَانٍ بِأَمْرٍ فَلَا يُبْدِ لَهُ عِلَانِيَةً، وَلَكِنْ لِيَأْخُذَ بِيَدِهِ فَيَخْلُوَ بِهِ، فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَلِكَ، وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي

عَلَيْهِ لَهُ.)) (١)

وبناء عليه وعلى فهمهم له، فليس على العلماء إلا أن ينتظروا فرصة لقاء السلطان: في المسجد، أو في السوق، أو في المطار، لكي يأخذ أحدهم بيده ويخلو به وينصحه... فَمَنْ تَأْتَى له ذلك فقد أدى الذي عليه، ومن لم يتأت له ذلك، فقد كفى الله المؤمنين القتال.

علاقة العلماء بالأمرء في الواقع المعاصر

الحديث عن العلاقات واللقاءات المباشرة بين أشخاص العلماء والفقهاء، وأشخاص السلاطين والأمرء، أصبح اليوم تقريبا غير ذي موضوع. فالسائد اليوم - وإن لم يكن وليد اليوم - هو علاقة أشخاص بمؤسسات، أو علاقة مؤسسات بمؤسسات. فقد

(١) هذا الحديث اختلف فيه أهل العلم بين مصحح ومضعف، وهو سبب هذا الاختلاف بينهم في حكم النصيحة للسلطان والدخول عليه اخرجه احمد في (مسنده ح (15369/3/403)، والطبراني في مسند الشاميين ح1843، ٤٥٣/٥/٩٥١، والحاكم في المستدرك (5271/12/180)، والبيهقي في السنن الكبرى/٨/١٦٤، والطبراني في المعجم الكبير ح (14415/12/344)، وابن ابي عاصم في (السنة ح909، ٩١١، ١٠٣/٣/٩١٠، وكذلك في الأحاد والمثاني ح ٨٠٦ (2/492)، والقاسم بن سلام في الاموال ح1٠٩/١/٩٨.

تكون العلاقة الشخصية منعدمة أو شبه منعدمة، ولكن العلاقة مع المؤسسات، أو بين المؤسسات، أو عبر المؤسسات، تكون على أشدها وفي أقصى درجاتها.

فوليُّ الأمر، أو الأمير، أصبح اليوم يعبر عنه بالدولة، أو الحكومة، ويتجسد في شبكة من مؤسسات الدولة وأجهزتها، المركزية والمحلية، وهي بالمئات أو بالآلاف. ويتجسد وليُّ الأمر كذلك في مناصب عديدة ذات صلاحيات مختلفة. والمنصب تجد فيه اليوم فلانا، وغدا تجد فيه فلانا آخر. ولكن المنصب هو المنصب.

فالعالم - وغيره - إنما يتعامل اليوم مع هذا الواقع؛ يتعامل مع دولة ممثلة في "نظام حاكم"، وفي مؤسسة حكومية، وفي سياسات وقوانين، ومجسدة في منصب وزير، أو مستشار، أو مدير، أو رئيس، أو محافظ، أو عميد، أو ضابط...

اليوم، حين نتساءل ونتباحث ونتناقش في مسألة العلاقة بين العالم والحاكم، يجب أن نستحضر هذا الواقع الجديد، لا أن نستحضر علاقات وروابط ثنائية للشيخ الفلاني بالأمير الفلاني، أو علاقةً لصاحب فضيلة أو سماحة، مع صاحب فخامة، ولا علاقةً السلطان الفلاني بالعلماء وأرباب المحابر والعمائم. فهذه

الأنماط أصبحت متلاشية متوارية.
لا نجد اليوم حاكما يزور عالما، أو يدعوه إليه، ثم يقول له:
حدثني، أو عِظني، أو كيف ترايني؟
ولا نجد أمراء أو سلاطين يفتحون أبواب قصورهم للعلماء
والمفكرين، ويدعونهم فرادى وجماعات، للمناظرة العلمية، أو
للمشاورة السياسية، أو لطلب فتاوى فقهية.
نعم قد يدعوهم اليوم لأغراض دعائية أمام الكاميرات ولبضع
لحظات، وحتى هذا قلما يفعلونه. ومنهم من لا يفعله أبدا.
فالدخول على السلاطين والأمراء، أصبح اليوم دخولا إلى
مؤسسات الدولة. والعلاقة اليوم هي علاقة مع الدولة ومؤسساتها
ومشاريعها. والنقد والنصيحة اليوم لا يتوجهان بالضرورة إلى
السلطان والأمير، بل يتوجهان إلى كيانات معنوية ومؤسسات
جماعية وأشخاص غير معينين. وأداء واجب النقد والنصح
والتعبير والبيان، أصبح له ألف طريق وطريق.

وفي ظل هذا التغير والتنوع، يبقى الثابت في حق العالم، هو أن
يكون حاضرا غير غائب ولا مغيب، وأن يكون فاعلا مرفوعا، لا
مجرورا ولا حرف جـر. وأن يكون ناصحا أميناً لولاة الأمور

ومؤسساتهم ومشاريعهم، سواء كان قريبا منهم أو بعيدا عنهم،
وسواء كان معهم في حالة وئام أو حالة صدام. واجبه: أن يبين
ولا يكتف، وأن يوضح ولا يُبهم، وأن يقول الحق لا يخاف في الله
لومة لائم.

ولا شك ولا ريب أن معاضدة الإمام الحق ومناصرته من البر
الذي يترتب عليه نصره الإسلام والمسلمين.

يدل على ذلك ما رواه عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي
ﷺ قال: ((وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةً يَدِهِ، وَثَمْرَةَ قَلْبِهِ،
فَلْيُطِعْهُ إِنْ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخِرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ
الْآخِرِ)) رواه مسلم.

قال أبو يعلى: (وإذا قام الإمام بحقوق الأمة وجب له عليهم
حقان الطاعة والنصرة ما لم يوجد من جهته ما يخرج به عن
الإمامة)

وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنْ مِنْ
إِجْلَالِ اللَّهِ تَعَالَى: إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ
الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ
الْمُقْسِطِ)) رواه أبوداود وحسنه ابن حجر في المشكاة.

هذا بشرط أن يكون الإمام من أئمة العدل، أما أئمة الجور والفسق فلا يعانون على فسقهم وظلمهم، وقد قال مالك رحمه الله فيما رواه عنه ابن القاسم أنه قال: (إن كان الإمام مثل عمر بن عبد العزيز وجب على الناس الذب عنه والقتال معه، وأما غيره فلا، دعه وما يراد منه ينتقم الله من الظالم بظالم، ثم ينتقم من كليهما).

بل إذا رأى المسلم أنه لا فائدة من الدخول عليهم ومناصحتهم أو خاف على نفسه فتننتهم فعليه اعتزالهم، وترك الدخول عليهم، والحذر من موافقتهم على باطل، يدل على ذلك ما يلي:

حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إِنَّهُ سَيَكُونُ أُمَرَاءُ فَمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ فَصَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ وَلَيْسَ يَرُدُّ عَلَيَّ الْحَوْضَ وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ وَهُوَ وَارِدٌ عَلَيَّ الْحَوْضَ))
الترمذي، رقم: ٢٢٥٩. (صحيح لغيره صحيح الترغيب

والترهيب).

نجد في هذا الحديث أن الرسول ﷺ قد أخبرنا عن هذا من الانحراف الذي ستقع فيه الأمة في هذا الجانب. ظلم الحكام لبعض الرعية وكذبهم: وهذه المستويات تشمل: الحاكم، وظيفة الحكم، والفكر السياسي.

وروي عن حذيفة رضي الله عنه قال: (إياكم ومواطن الفتن، قيل: وما هي؟ قال: أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير، فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه).

وقال ابن تيمية رحمه الله في كتاب الإيمان: (وقد قال غير واحد من السلف: أعوان الظلمة من أعانهم ولو أنه لاق لهم دواة أو برى لهم قلمًا. ومنهم من كان يقول: بل من يغسل ثيابهم من أعوانهم، وأعوانهم هم أزواجهم المذكورون في الآية).

يقصد قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢].

الدخول عليهم بقصد مناصحتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، كما دل عليه الحديث: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَيُّ

الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: ((كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ إِمَامٍ جَائِرٍ)). رواه الامام احمد في مسنده برجال اثبات رجال الشيخين البخاري ومسلم.

وَالْمُرَادُ بِالْكَلِمَةِ مَا أَفَادَ أَمْرًا بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيًا عَن مُنْكَرٍ مِنْ لَفْظٍ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ كَكِتَابَةٍ وَنَحْوَهَا (عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ) أَي ظَالِمٍ. فالمنكر على الحاكم الظالم ظلمه من أعلى درجات الشهداء قال عليه السلام: ((سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله)) (السلسلة الصحيحة).

والمقصود بالجهاد في هذا الحديث هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحو ذلك من عبادات اللسان، ولذلك قال: كلمة الحق والكلام إنما يؤدي باللسان! وهذا ليس من الخروج على الأئمة، وإنما هو من النصح لهم، كما قال رسول الله ﷺ: ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَيِّمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ)). رواه مسلم.

وإنما كان ذلك من أعظم الجهاد، لما فيه من المخاطرة بالنفس وتوطئتها على تحمل الأذى في ذات الله تعالى، قال الخطابي في معالم السنن: إنما صار ذلك أفضل الجهاد، لأن من جاهد العدو



وكان متردداً بين رجاء وخوف لا يدري هل يَغلب أو يُغلب، وصاحب السلطان مقهور في يده، فهو إذا قال الحق وأمره بالمعروف فقد تعرض للتلف وأهدف نفسه للهلاك، فصار ذلك أفضل أنواع الجهاد من أجل غلبة الخوف. اهـ.

وهذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليس من الخروج على الأئمة، بل إن تغيير المنكر باليد إذا لم يكن بالسيف وإقامة القتال فليس من الخروج عليهم، إذا لم تترتب عليه فتنة، بل اقتصر خطره على صاحبه ولم يتعده إلى أهله أو أصحابه وجيرانه ونحوهم.

وبعد عرض أقوال ومواقف العلماء والمحتسبين حيال موضوع الدخول على الحكام والسلاطين وجدت أن مواقفهم متباينة وسبب هذا التباين يرجع إلى ثلاثة أمور :

أ - اختلاف الفترة الزمنية أو الرقعة الجغرافية من بلد لآخر وفي ذلك أسهم مؤسس علم الاجتماع وعالم نقد التاريخ عبد الرحمن بن خلدون الذي حاول في مقدمته المشهورة أن يضع الأسس المهمة التي تساعد على تفهم الدول وتقلباتها وأسباب

اضمحلالها، فقد نبه إلى ناحية مهمة وهي :
تبدل أحوال الناس وتطورهم من حالة إلى حالة في كثير من العادات والتقاليد أو طريقة التفكير وتناولهم للأمور ، أي : يجب أن تفهم طبيعة العصر الذي عاش فيه فلان أو قامت فيه الدولة الفلانية ، وأن لا تقيس عصر مضى - بعصرك الذي تعيش فيه - في كل شيء ، فالبيئة العلمية التي تكون في عصر ما ، هي التي تساعد على ظهور علماء مجتهدين ، والذي يظن أنه يجب أن يكون بيننا الآن من أمثال هؤلاء العلماء دون أن يكون هناك بيئة علمية فهو واهم ، وقس على ذلك البيئة الجهادية التي بدأها عماد الدين زنكي وابنه نور الدين والتي كان من نتائجها صلاح الدين الأيوبي .

ب - اختلاف طبيعة الحاكم والبيئة المحيطة به :

إن لاختلاف طبيعة الحاكم ومدى التزامه بالشرع الأثر البالغ في تقريب أهل العلم وجعل ذلك دافعاً لمجالستهم ومناصحتهم . فقد ترزق الأمة بحاكم كعمر بن عبد العزيز ، يحكم بالعدل ويقرب العلماء ويحفظ الرعية ويحافظ على بيت مال المسلمين فقد ورد في سيرته أنه قال لعمر بن مهاجر : " إذا رأيتني قد ملت عن الحق فضع يديك في تلبابي ، ثم هزني ثم قل : يا عمر ما تصنع "



وقد تبتلَى الأمة بحاكم ك (محمد بن إسماعيل الخزرجي) المتوفى سنة ٧٦٣ هـ لما استولى على السلطة بالأندلس فكان لئيم الخلق، سيء السيرة، حتى أنه من عجائب ما يحكى عنه (أن امرأة رفعت إليه أن دارها سرقت ، فقال : إن كان ذلك ليلاً بعد ما قفل باب الحمراء علي وعلى حاشيتي فهي والله كاذبة إذ لم يبق هناك سارق !!) .

يقول إبراهيم بن أدهم: (كل ملك لا يكون عادلاً فهو واللص سواء، وكل عالم لا يكون تقياً فهو الذئب سواء، وكل من ذل لغير الله فهو الكلب سواء) .

فالحكام في أمّس الحاجة إلى من يذكرهم بالله تعالى، ويصارعهم بأخطائهم ويرشدهم إلى الخير. وهكذا كان الخلفاء فقد كان يقال للخليفة: يا أمير المؤمنين أعزك الله، ويا عمر أصلحك الله . وفي المقابل فإن الحاكم إذا اتسعت الجفوة بينه وبين العلماء الربانيين كان ذلك سبباً في شقائه بل وشقائه الأمة المسلمة التي يتولاها ، وهذا بالفعل ما كان حاصلاً عند هجوم المغول على الدولة الخوارزمية حيث كان السلطان خوارزم شاه معرضاً عن نصح العلماء والتشاور معهم ، بل إن الأمر عنده تعدى ذلك إلى التضييق على العلماء ، ووضع بعضهم تحت الإقامة الجبرية ،

ونفي البعض الآخر وتغريبه ، فلما غزا المغول دولتهم أصبح المسلمون كالأيتام على موائد اللئام ، فلما طغت شهوة الحكم وقدمت على مصلحة الأمة أفسدت كل محاولات العلماء ، ولا أدل على ذلك ما قام به الإمام محيي الدين ابن الجوزي عندما أرسله الخليفة العباسي المستعصم بالله إلى السلطان جلال الدين منكبرتي بعد استباحته لإحدى مدن المسلمين ، فلما دخل ابن الجوزي عليه وجد السلطان جلال الدين يبكي وبين يديه المصحف ، محاولاً خداع ابن الجوزي ، فصاح ابن الجوزي في وجهه وقال له : (تقرأ في المصحف وتبكي ، وأنت تفعل بالمسلمين ما تفعل ، لقد قتلت عشرين ألف مسلم ، وسببت نسائهم ، وفعلت ما فعلت ؟) .

ج - اختلاف طرق وأساليب العلماء

والمحتسبين من حيث الشدة واللين، والحزم والتساهل :

قال الشافعي - رحمه الله - : (أعز الأشياء ثلاثة: الجود من قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يرجى أو يخاف) .
فمن علماء السلطان من لا يزيدوا السلطان الحاكم إلا خبالاً، ولا يهدوهم إلا سواء السبيل، فبدل أن ينفقوا أوقاتهم في إحياء الأمة من رقادها، أنفقوها في الكيد لقرين، أو التسابق في طريق الوشاية عند السلطان !!

وهؤلاء يقول الفضيل بن عياض: (إذا رأيت العالم يتردد على أبواب السلاطين فاعلم أنه لص).

بل وصل الأمر عند بعضهم أن تجرأ بالكذب على رسول الله ﷺ من أجل إرضاء الحاكم، كما فعل غياب بن إبراهيم النخعي إذ دخل على المهدي، وأمامه حمام يلعب به فقال له: " عن فلان عن فلان أن النبي قال: (لا سبق إلا في نصل أو خف أو حافر أو جناح) فزاد أو جناح فأمر له المهدي ببدره - أي صرة من المال - فسود هذا الموقف قرطاس تراثنا الإسلامي !

وكان كذلك مقاتل بن سليمان البلخي، من كبار العلماء بالتفسير، يتقرب إلى الخلفاء بوضع الأحاديث المكذوبة التي تروقهم؛ فالعقوبة الإلهية أحياناً قد لا تكون خسفاً ولا صيحة ولا طوفاناً - والعياذ بالله - بل تكون حرماناً من العلماء الربانيين الذين يقولون كلمة الحق لا تأخذهم في الله لومة لائم .

ومن العلماء من لا يدخل على السلطان حتى يؤذن له في كاف

الخطاب، وتاء المواجهة، ويتخلص من مزاحمة الكناية ومضايقة التعريض ويركب جدد القول من غير تقية ولا تحاش ولا انحياش، متلبس بكريم الخلق، تارك لما كره الله، لا تأخذه في الله لومة لائم، فيه الرحمة بالمخالف والرفق في الأمر والنهي، أخذ بقوله تعالى: " وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبيننه للناس... " الآية .

سفيان الثوري: قاطع مجالس السلاطين واعتزلها، وتفرغ للحديث ولطلبته، وقابله أنموذج آخر من المحدثين هو محمد بن شهاب الزهري، فقد دخل على خلفاء بني أمية، ومع دخوله لم يعط الدنية لدينه فيها هو يقف كالجبل أمام الخليفة هشام بن عبد الملك كما ذكر ذلك الذهبي في السير لما قال له: من الذي تولى كبره منهم؟ فقال: هو عبد الله بن أبي، قال: كذبت هو علي بن أبي طالب، فقال الزهري: أنا أكذب (لا أبا لك) فو الله لو نادى مناد من السماء إن الله أحل الكذب ما كذبت، حدثني سعيد وعروة وعبيد وعلقمة بن وقاص عن عائشة أن الذي تولى كبره عبد الله بن أبي .

فيا علماء ويا محتسبون: الإسلام اليوم في أمس الحاجة إلى مواقفكم، تلك المواقف التي تشبه مواقف الرعيل الأول حيث صارت الباطل فصرعته .

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رَسُولَهُ وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ سورة المائدة الآية ٦٧ .

ويقول الغزالي رحمه الله في الإحياء: "فهذه كانت سيرة العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين؛ لكونهم اتكّلوا على فضل الله تعالى أن يجرسهم، ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة، فلما أخلصوا لله النيّة؛ أثر كلامهم في القلوب القاسية، فليّنها، وأزال قساوتها. وأما الآن؛ فقد قيّدت الأطماع ألسن العلماء؛ فسكّتوا، وإن تكلموا؛ لم تساعد أقوالهم أحوالهم، فلم ينجحوا، ولو صدّقوا وقصدوا حقّ العلم؛ لأفلحوا. ففساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حبّ المال والجاه، ومن استولى عليه حب الدنيا؛ لم يقدر على الحسبة على الأراذل، فكيف على الملوك والأكابر"

(إحياء علوم الدين ٣٥٧/٢).



١٢ - كيف أكون عبداً ربانياً وأمة ربانية؟

إن من أعظم وأنفع الطرق التربوية هي طريقة الإسلام في تربية العباد تربية ربانية، ويراد بالربانية أمران:

١- ربانية المصدر.

٢- ربانية الغاية.

وإذا كان ربانية المنهج تعني أنه منهج سماوي وضعه خالق الإنسان؛ إذاً هو منهج لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، منهج يدلُّ به جبريلُ على الأمين، وهذا المنهج الرباني لا يعني تعطيل لجهود البشر عن الاجتهاد والتفكير في هذا الكون والمعرفة بأسراره؛ بل العكس فالقرآن يأمر ويحض على التدبُّر والتفكير والتعقُّل، فهو يضع أمام البشرية حقائق وأصول وصور العبادات، وأنماط المعاملات والصفات التي ينبغي أن يكون عليها الإنسان، أما ما يتعلق بالعلم وتطبيقاته، ووسائل النهوض بالمجتمع وطرق المعيشة، فهي متروكة للبشر ما دامت لا تخرج عن المبادئ والأصول التي وضعها القرآن .

لذلك؛ فإن المنهج القرآني لا يقف حجر عثرة في سبيل تقدُّم

البشرية وازدهارها، كما هو حال الديانات الوضعية والرسالات المحرّفة، بل يحث على الاجتهاد ويضع له معايير، ويلوم ويذم عدم إعمال العقل والتفكير في الكون الفسيح، لذلك فلن تجد البشرية الرشد ولا الهدى ولا الراحة ولا السعادة إلا حين ترد الفطرة البشرية إلى الربانية. وإذا نظرنا في تاريخ البشرية لوجدنا أن المنهج القرآني قد تسلّم قيادة البشرية بعد ما فسدت الأرض وظهر الفساد قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وانظروا إلى المجتمع الجاهلي، الذي كانت تشيع فيه مكاره الأخلاق، والفرقة وروح العصبية، والنزعة القبلية التي كانت تُؤدي إلى القتال، وما كانوا عليه من التخلف العقلي الذي أدّى بهم إلى السجود لحجر لا يضر ولا ينفع، فحينما تسلّم المنهج القرآني القيادة لهذا المجتمع تحولوا - في مدة زمنية قليلة جداً - من مجتمع جاهلي إلى مجتمع يكاد يتصف بالمثالية، وكفه به شرف أن أدّى به الحال أن يقود البشرية ما يقرب من ألف عام في ظل هذا المنهج الرباني.

فلقد سقطت أمام هذا المنهج الفريد كل المناهج التي وضعها الإنسان لتربية الإنسان على مرّ العصور، وتهافتت البشرية على هذا المنهج الرباني القويم؛ فدخل الناس في دين الله أفواجًا، ليتخلّوا عن الظلم والقهر والفساد والاستبداد الذي ألمّ به من المناهج الوضعية، وعندما تخلى المسلم اليوم عن منهجه الرباني وتطلع إلى المناهج الوضعية؛ تخلّف وتأخر عن ركب الحضارة، وأُطلق على دوله **دول العالم الثالث** وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: ((يا أيها الناس! إني قد تركتُ فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي)) (أخرجه الترمذي: [٣٠٨/٢]، وأخرجه الطبراني: [٢٦٨٠]، وأخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة - ٣٥٥/٤).

ويتبع الإسلام في أسلوبه لتربية العبد الرباني منهجاً مكوناً من ثلاث تدرّجات، إذا خطاها الإنسان وصل إلى الربانية التي يرضاها الله تعالى لعباده، وتأتي الخطوات التي رسمها الإسلام لتربية الفرد كما يأتي:



الأول: العلم الصحيح، فإنه لا يكون عمل دون علم صحيح يبعث على العمل، والله تعالى يقول: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، [سورة محمد ١٩] فكان العلم قبل أي خطوة يخطوها الإنسان نحو ربه.

كما ينبغي لمن يريد أن يتصف بالربانية وأن يكون عبداً ربانياً أن يكون على فقه بمقصد طلب العلم، فإذا جلس يطلب العلم أو رحل في تحصيله والجلوس بين يدي العلماء فينبغي له أن يعلم أن طلب العلم ليس غاية لذاته مع فضله، بل هو وسيلة للعمل وتربية النفس وحسن الصلة بالله، وإلا فما معنى قول الرسول ﷺ: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَوْلَاءِ الْأَرْبَعِ)) (١)؟! وما معنى أن يُسأل المرء عن علمه: ماذا عمل به؟! فأسأل نفسك هل نفعتك علمك أم لا؟! هل عملت بعلمك أم لا؟! وانظر إلى قلبك ولسانك فأنت أعلم بحالك.

(١) الترمذي، كتاب الدعوات، باب حدثنا أبو كريب، برقم ٣٤٨٢، وأبو داود، كتاب الوتر، باب في الاستعاذة، برقم ١٥٤٩، والنسائي، كتاب الاستعاذة، الاستعاذة من الشقاق والنفاق، برقم ٥٤٧٠، وأحمد، ١١ / ١٢٠، برقم ٦٥٦١، وابن أبي شيبة، ١٠ / ١٩٢، وعبد الرزاق، ١٠ / ٤٣٩، وصححه العلامة الألباني في صحيح سنن أبي داود، برقم ١٣٨٤ - ١٣٨٥، وفي صحيح الجامع، برقم ١٢٩٧.

قيل لمالك: ما تقول في طلب العلم؟ قال: حسن جميل، ولكن انظر الذي يلزمك من حين تصبح إلى أن تمسي فالزمه.

الثاني: الإيمان والعمل الصالح، وهما أمران مقرونان ببعضهما، فإن كان الإيمان هو المحرك والمحفز للعمل، فإن العمل يأتي في الدرجة الثانية ويصدق الإيمان ويدل عليه، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، [سورة العصر] ولقد تدرج الإسلام في بناء الربانية عند الفرد حين تدرج بناء المفاهيم والمراحل للتربية، فقسّمها إلى ثلاثة أقسام:

الأول الإسلام: وهو الانقياد والطاعة لله تعالى، ويعرّف على شكلين هما: إذا أطلق مفرداً غير مقترن بالإيمان فيكون كلّ الدين من أصول وفروع، سواء كانت اعتقادات أو أقوالاً أو أفعالاً. أن يطلق مقروناً بالاعتقاد ويراد به الأعمال والأقوال الظاهرة.

الثاني الإيمان: وهو التصديق، ويعرّف كذلك على شكلين هما: إن كان غير مقترن بالإسلام فيقصد به حينها الدين

كله. إن كان مقترناً بالإسلام فيقصد به حينها الاعتقادات الباطنة وهي أركان الإيمان.

الثالث الإحسان: وهو إجادة العمل على أكمل وجه، ولقد فسره النبي ﷺ بتحسين الظاهر والباطن على حدّ سواء بغية رضا الله تعالى. ولقد ذكرت تلك المفاهيم وتفسيرها على لسان النبي ﷺ في الحديث الذي يذكر نزول جبريل -عليه السلام- أمام الصحابة ليعلمهم أمور دينهم، وهو: (وقال: يا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتُحُجَّ الْبَيْتَ، إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ، يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ). [رواه مسلم].

فخلاصة قول النبي ﷺ أن يبدأ المسلم بالعيش بأركان الإسلام الخمسة، فهذه هي المرتبة الأولى، ثم إذا طبقها والتزم بها وداوم على ذلك بلغ المرتبة الثانية، ثم إذا استحضر العبد بأعماله الصالحة مشاهدة الله تعالى له كل حين بلغ مرتبة الإحسان، وهي أعلى المراتب التي قد يصلها العبد في علاقته مع ربه وهي مرتبة الربانية، فقد جعل الله تعالى درجة الإحسان أعلى درجات الدين، فهي فوق الإيمان والإسلام؛ لأن الإحسان يبلغ بصاحبه مدارج اليقين، حتى إنه من شدة يقينه كأنه يرى الله تعالى، واليقين محله القلب، وسُلمه التفكير، فكلما تدبر العبد الآيات القرآنية، وتفكر في الآيات الكونية ازداد يقينه، وبقدر إهماله لعبادتي التدبر والتفكير يضعف يقينه، ثم يضعف إيمانه، حتى تكون العبادة مجرد حركات يؤديها بدنه، ولا يشعر بها قلبه، مع أن العبادة في الأصل ترسخ الإيمان وتزيد اليقين وتؤثر في صاحبها؛ ولذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وكانت آيات القرآن إذا تليت تزيد الإيمان، وسوف أبين ذلك بمشيئة الله تعالى عن الحديث عن الوسائل المعينة إلى درجة الربانية .



١٣ - الوسائل المعينة للوصول إلى درجة الربانية لا الرهبانية:

من نعم الله - تبارك وتعالى - على هذه الأمة أن جعل ملتها حنيفيةً سمحةً، جعلها أمةً وسطاً، فهي أمةً وسطاً في كل شيء، ليست رهبانيةً كالتى ابتدعتها النصارى، ولا ماديةً كالتى مال إليها اليهود فقست قلوبهم، ولكنها شريعةً ربانيةً، تفخر هذه الأمة بأنها أُمَّةٌ رَبَّانِيَةٌ لا رهبانية ولا دنيوية.

لكنَّ بعضَ الناسِ أساءَ فهمَ معنى الرِّبَانِيَّةِ في هذه الشريعة، ففهم الرِّبَانِيَّةَ مثلما فهم النصارى الرهبانية، فهمها ذكراً وأوراداً وقراءةً وتلاوةً وتسبيحاً وعبادةً واعتزالاً عن الناس، ورأى أنه إذا قام ليله مسبِّحاً عابداً تالياً للقرآن ذاكراً للرحمن، مشغولاً بإصلاح نفسه، معنياً بتوثيق صلته بربه، من غير أن يكون لذلك أثرٌ في الحياة رأى أنه بهذا حقَّق معنى الربانية، وشاع بين الناس ذلك الحديثُ الموضوعُ المكذوب: **“عبدى أطعنى تَكُنْ عبداً ربانياً**

تقول للشيء كن فيكون” (١) ، وظنُّوا - هداهم الله - أن العبدَ إذا اشتغل بالأوراد والتسبيحات والأذكار وصرف وجهه عن الناس والأخطار والمنكرات وترك الدنيا لأهلها كما يقولون، واعتزل بنفسه يُناجِي ربه.. أنه بذلك يبلغ أن يكون وليَّ الله الذي يُحَقِّق ما يُريد، ويفعل ما يشاء، ويقول للشيء كن فيكون.. هكذا فهم بعضُ الناس معنى الربانية.

فليست هذه هي الوسائل المشروعة والمعينة على الوصول إلى الربانية، إنما الوسائل المشروعة هي: طاعة الله سبحانه وتعالى بما شرع ، وبما بين لنا رسول الله ﷺ وهي كثيرة، وهي سبيلٌ للتقرب منه وتقوية الصلة به؛ فالعبادات كلها تحملُ صاحبها على حب الخالق والالتجاء إليه، فيهدي بذلك لأنوارها، ويحصل على ثمار القيام بكل واحدةٍ منها، وإنَّ من أهمِّ المعينات في طريق السائرين إلى الله تعالى الراغبين في الوصول إلى الربانية ما يلي:

(١) جاء في فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء: هذا الحديث لم نعثر عليه في شيء من كتب السنة، ومعناه يدل على أنه موضوع، إذ أنه ينزل العبد المخلوق الضعيف منزلة الخالق القوي سبحانه، أو يجعله شريكا له، تعالى الله عن أن يكون له شريك في ملكه.

واعتقاده شرك وكفر؛ لأن الله سبحانه هو الذي يقول للشيء: كن، فيكون، كما في قوله عز وجل: { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }.

الصلاة:

تعدّ الصلاة أساس كل العبادات وأفضلها؛ فهي صلة للعبد بربه دون وسيط، وكلّما حافظ عليها هذا العبد ازداد قرباً وحبّاً لله تعالى، ويجب أن يكون أعظم حرصه على الفرائض منها ثمّ الاستزادة من النوافل بعد ذلك وهي كثيرة.

فلا وسيله معينه للوصول إلى الربانية أعظم من الصلاة والقيام لله تعالى، فهو مركبة السائرين إلى الله عز وجل التي تقرّبهم وتدنيهم من حبيبهم ومولاهم، فلا ينبغي أن تفوتنا ليلة دون قيام حتى لا يتعثر سيرنا إلى مولانا ويسبقنا إليه غيرنا.

كانت امرأة أبي محمد حبيب الفارسي توقظه بالليل وتقول له: قم يا حبيب، فإن الطريق بعيد وزادنا قليل، وقوافل الصالحين قد سارت بين أيدينا، ونحن قد بقينا.

ومن التصورات الخاطئة التي تقف عقبة في طريق الوصول إلى الربانية ما يتصوره البعض: أن كثرة المشاغل والأعباء الدعوية والدنيوية تستدعي منه راحة طويلة بالليل، فيقضى ليله لا يستيقظ إلا على صلاه الفجر هذا إن استيقظ، وهذا تصور خطأ، بل عليه أن يجعل له قسطاً من القيام؛ لأن قيام الليل هو أفضل معين لتحمل أعباء النهار قال الله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ

الليل هي أشد وطأً وأقومُ قِيلاً (٦) ﴿ سورة المزمل .

والغرض أن ناشئة الليل هي: ساعاته وأوقاته، وكل ساعة منه تسمى ناشئة، وهي الآتات. والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة؛ ولهذا قال: ﴿ **هي أشد وطأً وأقومُ قِيلاً** ﴾ أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش.

قال عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ رحمه الله: ثم ذَكَرَ الْحِكْمَةَ فِي أَمْرِهِ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَقَالَ: ﴿ **إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ** ﴾؛ أي: الصلاة فيه بعد النوم ﴿ **هي أشد وطأً وأقومُ قِيلاً** ﴾؛ أي: أقرب إلى تحصيل مقصود القرآن، يتواطأ على القرآن القلب واللسان، وتقل الشواغل ويفهم ما يقول ويستقيم له أمره. وهذا بخلاف النهار؛ فإنه لا يحصل به هذا المقصود؛ ولهذا قال: ﴿ **إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا** ﴾. [تيسير الكريم الرحمن: ٨٩٣].

فإذا أقبل العبد على الله تعالى بالصلاة، واران أن يزداد ربانية وقرباً من الله تعالى أنتقل إلى عبادة أخرى تعينه وتكون سبباً في الوصول إلى الربانية، وهذه العبادة هي الصيام.

الصيام:

إن الرباني ينشغل بتزكية نفسه، ومن أعظم ما تزكوا به النفوس الصيام فلقد كان السلف الصالح صفوة الصائمين ونُخبة القائمين، وقد بات الصوم شعارهم وأنيستهم وحلاوتهم، كانوا في صيامهم أهل الذكر والقرآن، وأصحاب الشكر والامتنان، صاموا بخشوع وإخبات لما سمع الصحابة . رضي الله عنهم . قول الله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وقوله سبحانه: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١].

فَهُمُوا من ذلك أن يجتهد كل واحد منهم، أن يكون هو السابق لغيره إلى هذه الكرامة والمُسارع إلى بلوغ هذه الدرجة العالية وكان الصيام هو الطريق الموصل إلى الربانية.

فما هو الفرق بين الصيام وغيره من العبادات؟

إن غير الصيام من العبادات كالصلاة هي عبادات يأتي المسلم فيها بأعمالٍ وأقوالٍ مشروعة، ويُقِيمُ هذه الأعمالِ والأقوالِ النيةَ والخشوع والتدبُّر.

والمُتأمل في الصيام يجد أنه بدلاً من أن يأتي المسلم فيه بأعمالٍ وأقوالٍ كغيره من العبادات، يمتنع فيها عن عمل شيءٍ من المفطرات، بينما ليس مطلوباً من المسلم أن يأتي بأيّ عملٍ جسدي أو قولي كجزءٍ من الصيام! إذن.. فالصيام عبادةٌ امتناعيةٌ تركيئةٌ، يمتنع فيها المسلم عن مجموعة من المباحات، على خلاف باقي العبادات التي يأتي فيها المسلم بمجموعةٍ من الأفعال التعبديّة.

هذا من ناحية الجسد الذي يمتنع ويُمسك، فما بال الروح والقلب؟ إن الصيام هو تدريب للمسلم أن ينشغل فقط بالخشوع وإحساس القرب من الله عز وجل دون أن يأتي بأي فعل تعبدي مُتعلق بالصيام! ولكن هل يوجد خشوعٌ بدون أفعال تعبديّة تكون محلاً له؟! نعم، وهذه هي غاية الصيام العُظمى وهي القرب من الله والخشوع له خشوعاً يُزهرُ ويثمر ويحلو بمرور الزمن فقط على الصائم. إنه ينغمس في عبادة روحية وقلبية تجعله يشعر كل لحظة بمراقبة الله له! وهذا القرب والخشوع لا يقطعه أي عمل عبادي كالصلوات المفروضة أو عمل عادي كعمل الموظف في وظيفته

وعمل الزوجة على رعاية أبنائها، وعليه فإن الغاية الكبرى من هذا الخشوع المستمر هي اتقاء إغصاب الله في أي صغيرة أو كبيرة، أو بمعنى آخر هي التقوى التي توصل العبد إلى أن يكون ربانياً قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فالصيام هو من أجلّ العبادات التي يجد العبد أثرها في نفسه؛ فالصوم مدرسة الصبر، به تضعف شهوات النفس فيسهل التحكم بها، وثمرته تقوى الله عزّ وجلّ.

يُرَوِّضُ المسلم نفسه على الحياة الربانية بصيام رمضان كل عام. الحياة الربانية التي ينبغي خلالها على المسلم أن يحيا خشوعاً لله ربّ العالمين، يستشعر في كل لحظة فيها جبروته وعظمته وعفوه ورحمته. وتعدّ الحياة الربانية بهذا الوصف هي التقوى بعينها، فمن يجعل حياته كذاك، يسير على الطريق المستقيم الذي ارتضاه الله تعالى لعباده لا يضل ولا يغضب ربه.

والصوم هو من الطرق المعينة على التفكُّر؛ فالصوم يوقظ
الفكرة ويضعف جذوة الشهوات، وبالمداومة عليه ينسكب على
النفس سكينه تمنح صاحبها صفاءً يعينه على دخول جولات
التفكُّر، بخلاف إذا ما أكثر من الطعام والشراب؛ فيتثاقل عن
الطاعة وتُسد أمامه أبواب التفكُّر، ومن هنا قال بعضهم: "إذا
امتألت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء
عن العبادة."

فإذا أقبل العبد على الله تعالى بالصيام، واران أن يزداد ربانية
وقرباً من الله تعالى أنتقل إلى عبادة أخرى تعينه وتكون سبباً في
الوصول إلى الربانية، وهذه العبادة هي التفكُّر.



التفكر:

يُعتبر التفكر من أيسر الطرق وأسهلها للتعرف على الله عزّ وجلّ، وله أبوابٌ عديدة منها: التفكر في أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العلى، والتفكر في النعم التي منحنا إياها، والتفكر في هذا الكون الفسيح والمخلوقات التي فيه، وكلّ ذلك ليس إلا دليلاً على عظمة الخالق وكماله.

التفكر عبادة شريفة

إن التفكر والتدبر من أعمال القلوب العظيمة، وهو مفتاح الأنوار، ومبدأ الاستبصار، وهو شبكة العلوم، ومصيدة المعارف والفهوم.

والتفكر في خلق الله تعالى يزيد الإيمان في القلب ويقويه ويرسخ اليقين، ويجلب خشية الله تعالى وتعظيمه، وكلما كان الإنسان أكثر تفكراً وتأملاً في خلق الله وأكثر علماً بالله تعالى وعظمته كان أعظم خشية لله تعالى كما قال سبحانه:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾

[فاطر: ٢٨]

والتفكر لغة: مأخوذ من مادة (ف ك ر) والتي تدل: على

تردد القلب في الشيء، يقال تفكر إذا ردد قلبه معتبراً، فالتفكر هو تصرف القلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب..

والتفكر في معناه الاصطلاحي الشرعي: هو إعمال العقل في أسرار ومعاني الآيات الشرعية والكونية عن طريق التأمل والتدبر وملاحظة وجه الكمال والجمال ومشاهدة الدقة وحسن التنظيم والسنن الكونية والتماس الحكمة والعبرة من وراء ذلك. وأنفع الفكر هو الفكر في مصالح المعاد.. وفي دفع مفسده، والفكر في مصالح الدنيا وفي دفع مفسدها، وطرق الاحتراز منها، والفكر في آلاء الله ونعمه وأمره ونهيه وطرق العلم به وبأسمائه وصفاته من كتابه وسنة نبيه وما والاهما، وهذا الفكر يثمر لصاحبه المحبة والمعرفة فإذا فكر في الآخرة وشرفها ودوامها وفي الدنيا وخستها وفنائها، ويثمر له ذلك الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا، وكلما فكر الانسان في قصر الأمل وضيق الوقت، أورثه ذلك الجد والاجتهاد وبذل الوسع في اغتنام الوقت.

حقيقة التفكر هو رياضة القلب

أن التفكر يلين القلب، ويشرح الصدر، ويهيئ النفس للعبادة، فيقبل عليها صاحبها بمحبة وخشوع، ويجد فيها لذة وراحة قال



وهب بن منبه رحمه الله تعالى: "ما طالت فكرة أمرئ قط إلا فهم، ولا فهم أمرئ قط إلا علم، ولا علم أمرئ قط إلا عمل."

ويعتبر التفكير سياحة نورانية ورياضة إيمانية؛ ينطلق فيها القلب في وعي، والعقل في يقظة معاً بعيداً في ساحات الإيمان بلا قيد من جواذب الأرض وقيود الشهوات؛ ليجتمعاً على التقاط الحكمة والمعرفة وتحقيق معاني الإيمان والترقي في درجات العبودية.

والتفكير فرصة عظيمة لاكتشاف مساحة بعيدة شديدة العمق في النفس الإنسانية يصعب الوصول إليها في غير تلك الأجواء النفسية الصافية التي تمتزج فيها أنوار التدبر مع صفاء النفس حتى تصل إلى حقائق العبودية بما فيها من ضعف وعجز وذلة وعوز، ومشاهدة كمالات الربوبية بما فيها من: كمال وجمال وجلال. وهو يبدأ بعمليات سهلة بسيطة؛ يلتفت فيها القلب إلى عظيم الآيات المبهرة وعظيم قدرة الله تعالى في خلقه، وجلاله في فعله وتدبيره، في عملية يسيرة لا تحتاج في بدايتها لكبير مجاهدة، ترتقي إلى درجات أعلى في معانيها وأعمق في تأثيرها، لا يتمكن من الوصول إليها إلا بنوع من المجاهدة، ولا يستطيعها إلا من

رُزق بحظ من البصيرة وقِسْط من السموِّ الروحي، وفيها يتجاوز المؤمن بنور بصيرته نور بصره، ويتجاوز ظواهر الأشياء إلى حقائقها، ويرى فضل المنعم من وراء النعم، ويشاهد عظيم قدرة الله في كل حركة وسكنة في الكون، ويجمع من عجائب آيات الكون والنفس وعظيم حكمة الشرع؛ فينصب من جميعها شواهد على جلال أسماء الله وصفاته وعظيم قدرته وحكمة تقديره.

التفكر أمر الله تعالى به عباده

ولشرف التفكر وعظيم قدره: أمر الله سبحانه بالتفكر في كتابه العزيز، وأثنى على المتفكرين بقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران من الآية: ١٩١]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد من الآية: ٣]. ونعى سبحانه على الغافلين عن النظر والتدبر في كونه، فقال عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

والتفكر بمعناه الواسع ودوائره المتعددة التي تشمل النظر في آيات الله الكونية، والتفكر في آيات الله المقروءة في كتابه الكريم، والتدبر في عظيم فعل الله وبديع تدبيره وسنن الله في كونه، يُعدُّ في وسائل التزكية وخطوات التربية وسيلة هامة وخطوة كبيرة لبناء نفس مزكّاة، وبدونه تتحول النفوس إلى نسيج هشّ، والعقول إلى مستودعات خاوية، وتغيب عن القلب حقيقة العبودية.

وقد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٩١) آل عمران

وقال عطاء انطلقت يوماً أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت: يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول رسول الله ﷺ: ((زر غيباً ؛ تزدد حباً))، قال ابن عمير: فأخبرنا بأعجب شيء رأيتيه من رسول الله ﷺ، قال فبكت، وقالت: كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي ثم قال:

ذريني أتعبد لربي عز وجل فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه حتى أتاه بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.. فقال: لقد أنزلت عليّ الليلة آيات وويل لمن قرأها ولم يتدبر فيها أو كما قال ﷺ **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾** وويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها. [رواه ابن حبان وصححه الألباني في الصحيحة.]

وعن محمد بن واسع أن رجلاً من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبي ذر فسألها عن عبادة أبي ذر فقالت: "كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر."
وقال ابن عباس: "ركعتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة بلا قلب."
وقال بشر: "لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل."
وقال الحسن: "تفكير ساعة خير من قيام ليلة."



وقال الفضيل: "الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك".
 وقيل لإبراهيم إنك تطيل الفكر فقال: "الفكرة مخ العقل".
 وكان سفيان بن عيينة كثيراً ما يتمثل بقول القائل: "إذا المرء
 كانت له فكرة؛ ففي كل شيء له عبرة".
 وقال الحسن: "من لم يكن كلامه حكمة فهو لهو، و من لم يكن
 سكوته تفكيراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو".
 وقيل في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ
 فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ الأعراف ١٤٦، قال : أمنع قلوبهم
 التفكير في أمري.

مجالات التفكير:

مجالات التفكير كثيرة ومتعددة منها ما يلي:

أولاً: لتفكر في آيات الله الكونية. بأن يشاهد الانسان
 جمال وروعة خلق الله تعالى من الجبال والبحار والأشجار والأنهار
 والسهول والطبيعة الخلابة ويلاحظ تعاقب الليل والنهار وجريان
 الشمس والقمر وفق نظام بديع لا يتخلف ولا يضطرب على مر
 الزمان.

قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا
وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ
اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾
(٦٢) سورة الفرقان.

ثانياً: التفكير في الآيات الشرعية

التفكر في الآيات الشرعية في آي القرآن الكريم: بأن لاحظ
بلاغة القرآن وفصاحته وحسن تنظيم الكلام ومناسبته لأغراض
الكلام ومقام السياق وإعجازه وحسن عرضه لقضايا التوحيد
والتشريع والسلوك والآداب.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ
إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل ٤٤.

ثالثاً: التفكير في تكوين الإنسان

التفكر في تكوين الانسان بأن يشاهد تنوع الأعضاء وحسن
تنسيقها وبديع صنعها ودقتها وكبير فائدتها وانسجامها في العمل

فيتأمل في القلب والشرايين والأعصاب ووظائف العقل وإعجاز حاسة النطق والسمع والبصر واللمس والذوق وما يجري في هذه النفس من الدم والماء والإنزيمات التي تضمن حياته وتؤثر على تصرفاته.

قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ الذاريات ٢١.

رابعاً: التفكير في طبيعة النفس

التفكير في طبيعة النفس البشرية؛ بأن يتأمل في نزعات النفس والرغبات التي خلقه الله تعالى عليها، من حب الدنيا والرئاسة والتملك، وحب الاعتداء والاستيلاء على ملك الغير وحب الخلود. ويتأمل في غريزة حب العمارة فلو كان جميع الخلق زاهداً لما عمرت الأرض.

قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ الاحزاب ٧٢.

خامساً: التفكير في الكائنات الحية

التفكير في الكائنات الحية حيث خلقها الله وجعلها تعيش وفق نظام دقيق وعام وشامل حيث أنشأها على اختلاف نوعها ولغايتها

وطبيعتها وتكفل برزقها وتسييرها وهداها لمصالح عيشها وكفايتها فلم يعجزه ذلك مع كثرتها وتنوعها وكلما زادت أحدث الله سببا جديدا في الرزق.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ هود ٦ فالله تكفل بالرزق ويعلم أين يأوي كل حيوان وأين يموت.

سادساً: التفكير والتأمل

التفكير والتأمل في نشأة خلق الكائنات على اختلاف طبائعها ووظائفها وتصنيفها وبيئتها سواء كانت كائنات دقيقة لا ترى بالعين أو ظاهرة أو بحرية أو بريه أو برمائية وسواء كانت أحادية الخلق أم مركبة..

قال الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ النور ٤٥ .

وقال الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي

ذَلِكَ لآيَةٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿النحل ١٠ ، ١١ .

سابعاً: التفكير في حال الدنيا

التفكر في حال الدنيا وسرعة زوالها وعظم فتنها وتقلب أحداثها وتداول أيامها وحال أهلها اللاهثين وراء سراجها العابدين لها المفتونين بزينتها ثم تنكرها لهم وجحودها إياهم ومآلهم فيها إلى الخسارة والهوان والههم والحسرة في الحياة والممات

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿يونس ٢٤

ثامناً: التفكير في أحوال الأمم السابقة

التفكر في أحوال الأمم السابقة والشعوب البائدة والحضارات المندثرة كيف وجدوا وتكاثروا ومكن لهم وعمروا الأرض واغثروا بعددهم وعدتهم وأمواهم وكيدهم ثم جاءتهم الرسل يدعوهم للحق

فاستكبروا فنزل عليهم العذاب فأبادهم عن بكرة أبيهم وبقيت آثارهم شاهدة على كفرهم وعجزهم وزوالهم.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ الروم ٩.

ثمرات التفكير

وللتفكير والتدبر ثمار وفوائد كثيرة، فإن الانسان إذا قام بعملية التفكير في جميع خلق الله تعالى وآلائه استفاد أموراً:

- ١ - سعة علم الله وخبرته بخلقه وأحوالهم وما يصلح لهم.
- ٢ - سعة قدرة الله ودقة إتقانه للمخلوقات.
- ٣ - سعة رحمة الله وإحسانه على خلقه.
- ٤ - عظيم حكمة الله وحسن تقديره للكائنات.
- ٥ - افتقار الانسان وتذلل الله وعجزه وقلة حيلته فهو أداة صغيرة في هذا الكون العظيم المسخر له.

٦ - عظم حق الله تعالى وفضله على خلقه.

وبتحقق هذه الأمور والمعاني تنتج فائدة وثمره التفكير الكبرى في هدفين:

أولاً: أن يستقر في قلبه عظم الخالق وغناه وتفرده بالخلق والتدبير وتكفله برزقهم....

فكل ذلك يجعله يقر ويعترف بتفرد الخالق بالعبادة فيخضع له ويتأله له وينصرف له بالعبادة وحده دون ما سواه.
قال قتادة: (من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة).

ثانياً: أن يحدث ذلك له زيادة الإيمان فإنه إذا تعرف على كمال صفات الرب وجماله وجلاله من علم وقدره وحكمة وحسن عاداته ورحمته بالخلق وقيامه بمصالحهم وحلمه عليهم على مر الزمان وإنزال الرحمة عليهم مع كونهم يعصونه بالليل والنهار زاد إيمانه في قلبه لمشاهدته عظم الخالق فكلما زاد اليقين زاد الإيمان ولهذا كان العلماء أخشى الله من عباده.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ

اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿ فاطر ٢٨ .

ومن التفكير المحمود النظر والتأمل والتدبر في مقاصد الشارع في أحكامه وعلل التشريع والتماس الحكمة التي بنيت عليه الأوامر والنواهي الشرعية فإن هذا الباب عظيم النفع ومن أعمل فكره فيه واستفرغ جهده وكان أهلا تكون لديه ملكة فقهية وقدرة على الاستنباط وإعمال القياس الصالح في موضعه وزال عنه كثير من إشكالات العلم واعتراضات الجهال.

ومن أعظم ما يعين العبد على التفكير الخلوة عن الخلق واعتزالهم والبعد عن شواغل الدنيا وعلائق الترف ومجالس اللهو بحيث يكون القلب مستجمعا للفكرة محلا صالحا للعبارة تؤثر فيه الحكمة. ومع بيان فضل هذه العبادة وعظيم أثرها في زيادة الإيمان واليقين والتأله إلا أن كثيرا من الناس اليوم غافلا عنها معرضا عن العمل بها لشغله بالدنيا وقلة علمه وطول أمله ودخوله في الأمانى الكاذبة قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ يونس ٩٢ .



ومن أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في التأمل في أسماء الله وصفاته، وجنته وناره، ونعيمه وعذابه، وآخرفته وآلائه وآياته المسطورة في كتابه والمنثورة في كونه وما خلق سبحانه وتعالى، وما ألد هذه المجالس وما أحلاها وما أطيبها لمن رزقها، وقال الشافعي رحمه الله: استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر.

وكان الشافعي رحمه الله : من أقوى الناس عقلاً وأجودهم استنباطاً، ومن القلائل الذين مروا في الأمة الإسلامية بهذه المنزلة، وقال أيضاً: صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور والعزم على الرأي سلامة من التفريط والندم والفكر يكشفان عن الحزم والفتنة و مشاوره الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة ، ففكر قبل أن تعزم وتدبر قبل أن تهجم وشاور قبل أن تقدم. وقال أيضاً : الفضائل أربع، إحداها الحكمة وقوامها الفكرة والثانية العفة وقوامها التغلب على الشهوة والثالث القوة و قوامها التغلب على الغضب ، والرابعة العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس.

إن التأمل في مطلع الشمس ومغيبها، والتأمل في الظل الممدود ينقص بلطف ويزيد، والتأمل في العين الوافرة الفوّارة والنبع الروي، والتأمل في النبتة النامية والبرعم الناعم والزهرة المتفتحة والحصيد الهشيم، والتأمل في الطائر السابح في الفضاء والسماك السابح في الماء والدود السارب والنمل الدائب، التأمل في صبح أو مساء، في سكون الليل أو في حركة النهار، إن التأمل في كل ذلك يحرك القلب لهذا الخلق العجيب، ويشعر العبد بعظمة الخالق تبارك وتعالى، قال جل وعلا: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ الشورى ٢٩،

وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا... ﴾ الفرقان ٦١.

وهذه المجرات المنطلقة، والكواكب التي ترحم الفضاء وتخرق عُباب السماء، معلقة لا تسقط، سائرة لا تقف، لا تزيغ ولا تصطدم، قال تعالى:

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مِنْ نَازِلٍ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا

اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٨﴾. يس ٣٨ : ٤٠
 فمن الذي سير أفلاكها؟! ومن الذي نظم مسارها وأشرف على مدارها؟! ومن أمسك أجرامها ودبر أمرها؟! ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ الانعام ٩١ .
 وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾. فاطر (٤١).

فإن الناظر في الكون وآفاقه يشعرُ بجلال الله وعظمته، الكون كله عاليه ودانيه، صامته وناطقه، أحيائه وجماداته، كله خاضع لأمر الله، منقاد لتدبيره، شاهد بوحدانيته وعظمته، ناطق بآيات علمه وحكمته، دائم التسبيح بحمده، قال تعالى:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ الاسراء (٤٤).

وأخرج البخاري ومسلم (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَخْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إصْبَعٍ وَالْأَرْضِينَ عَلَى إصْبَعٍ ،

وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ
 عَلَىٰ إِصْبَعٍ ، فَيَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ . فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ بَدَتْ
 نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ ثُمَّ قرأ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ وَمَا
 قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا
 يُشْرِكُونَ ﴿ الزمر ٦٧ .

وكما أن دوائر التفكير ومجاريه متنوعة، فكذا الوارد من أنوار
 التفكير شديد التنوع؛ فالعبد إذا سرح في رياض الأسماء والصفات
 وتأمل آثار صفات جلال الرب وكماله، ينشرح صدره ويدوب
 حياءً وحباً؛ لما يرى من واردات أنوار الإحسان والعفو والستر
 والرحمة، ويقشعر قلبه خوفاً ويدوب خشيةً عندما يطيل النظر في
 معاني أسماء البطش والقهر والجبروت.

وتتصاغر إليه نفسه عند تذكُّر ذنوبه والتأمل في حال نفسه
 وعظيم تقصيره، مع تذكُّر عظيم نعم الله عليه وواسع عطائه
 وفضله وجميل آياته في خلقه وتقدير رزقه وتدبير أموره؛ فيستشعر
 القلب عظيم المنة، ويلهج اللسان بالشكر والثناء على المنعم

وهذه العبادة تعينه على عبادة أخرى وهي تدبر كلام الله تعالى. فإذا أقبل العبد على الله تعالى بالتفكير، واران أن يزداد ربانية وقرباً من الله تعالى أنتقل إلى عبادة أخرى تعينه وتكون سبباً في الوصول إلى الربانية، وهذه العبادة هي التدبر.

التدبر أصل صلاح القلب

إن القرآن هادي البشرية ومرشدها ونور الحياة ودستورها، ما من شيء يحتاجه البشر إلا وبينه الله تعالى فيه نصاً أو إشارة أو إيماءً، علمه مَنْ عَلمه، وجهله من جهله. ولذا اعتنى به صحبُ الرسول ﷺ وتابِعوهم تلاوة وحفظاً وفهماً وتدبراً وعملاً، وعلى ذلك سار سائر السلف، ومع ضعف الأمة في عصورها المتأخرة تراجع الاهتمام بالقرآن وانحسر حتى اقتصر الأمر عند غالب المسلمين على حفظه وتجويده وتلاوته فقط بلا تدبر ولا فهم لمعانيه ومراداته، وترتب على ذلك ترك العمل به أو التقصير في ذلك، "وقد أنزل الله تعالى القرآن وأمرنا بتدبره، وتكفل لنا بحفظه، فانشغلنا بحفظه وتركنا تدبره.

قال ابن القيم رحمه الله: قراءة آية بتفكير وتفهم خير من قراءة

ختمة بغير تدبر وتفهم وأنفع للقلب وأدعى في حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن".

أولاً منزلة التدبر في القرآن الكريم:

١- قال الله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩]. في هذه الآية بين الله تعالى أن الغرض الأساس من إنزال القرآن هو التدبر والتذكر لا مجرد التلاوة على عظم أجرها. قال الحسن البصري: "والله! ما تدبّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل". (تفسير ابن كثير، ٦٤/٧).

٢- قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ... ﴾ [النساء: ٨٢]. قال ابن كثير: "يقول الله تعالى آمراً عباده بتدبر القرآن وناهيماً لهم عن الإعراض عنه وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ... ﴾ (تفسير ابن كثير، ٣/٣٦٤، ط: طيبة)، فهذا أمر صريح بالتدبر والأمر للوجوب.

٣- قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ

تِلَاوَتِهِ أَوْلَيْكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴿ [البقرة: ١٢١].

روى ابن كثير عن ابن مسعود قال: "والذي نفسي بيده! إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقراه كما أنزله الله". (تفسير ابن كثير، ٤٠٣/١) وقال الشوكاني: "يتلونه: يعملون بما فيه" (فتح القدير، ١٣٥/١) ولا يكون العمل به إلا بعد العلم والتدبر.

٤- قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٍّ وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة: ٧٨]. قال الشوكاني: "وقيل: (الأماني: التلاوة) أي: لا علم لهم إلا مجرد التلاوة دون تفهم وتدبر" (فتح القدير، ١٠٤/١)، وقال ابن القيم: "ذم الله المحرفين لكتابه والأمين الذين لا يعلمون منه إلا مجرد التلاوة وهي الأماني". (بدائع التفسير، ٣٠٠/١).

٥- قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠]. قال ابن كثير: "وترك تدبره وتفهمه من هجرانه". (تفسير ابن كثير ١٠٨/٦) وقال ابن القيم: "هجر القرآن أنواع... الرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه". (بدائع التفسير ٢٩٢/٢).

ثانياً: ما ورد في السنة في التدبير:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَقَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ)). (رواه مسلم، ح/٢٦٩٩). فالسكينة والرحمة والذكر مقابل

التلاوة المقرونة بالدراسة والتدبير. أما واقعنا فهو تطبيق جزء من الحديث وهو التلاوة أما الدراسة والتدبير فهي - في نظر بعضنا - تؤخر الحفظ وتقلل من عدد الحروف المقروءة فلا داعي لها.

٢- روى حذيفة رضي الله عنه: "أنه صلى مع النبي ﷺ ذات ليلة فكان يقرأ مترسلاً إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ". (رواه مسلم، ح/٧٧٢) فهذا تطبيق نبوي عملي للتدبير ظهر أثره بالتسبيح والسؤال والتعوذ.

٣- عن أبي ذر رضي الله عنه قال: "صلى رسول الله ﷺ ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۗ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾" [المائدة: ١١٨]. (رواه أحمد، ح/٢٠٣٦٥) فهذا رسول الله ﷺ يقدم التدبير على كثرة التلاوة، فيقرأ آية واحدة فقط في ليلة

كاملة.

٤- عن ابن مسعود قال: "كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن". (رواه الطبري في تفسيره، ١/٨٠) فهكذا كان منهج النبي ﷺ في تعليم الصحابة القرآن: تلازم العلم والمعنى والعمل؛ فلا علم جديد إلا بعد فهم السابق والعمل به.

٥- لما راجع عبد الله بن عمرو بن العاص النبي ﷺ في قراءة القرآن لم يأذن له في أقل من ثلاث ليالٍ وقال: ((لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثٍ)).^(١) (ورواه أحمد وأبو داود بلفظ: لم يفقه) فدل على أن فقه القرآن وفهمه هو المقصود بتلاوته لا مجرد التلاوة.

٦- وفي الموطأ عن أنس بن مالك رضي الله عنه "أن النبي

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦٤/٢) حديث (٦٥٣٥)، أبو داود في كتاب «الصلاة» باب «في كم يقرأ القرآن» حديث (١٣٩٠)، والترمذي في كتاب «القراءات» باب «ما جاء أن القرآن أنزل على سبعة أحرف» حديث (٢٩٤٩)، وابن ماجه في كتاب «إقامة الصلاة والسنة فيها» باب «في كم يستحب يختم القرآن» حديث (١٣٤٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٥/٣) حديث (٧٨٥). وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، وذكره ابن مفلح في «الأداب الشرعية» (٢٨١/٢) وقال: «أخرجه أحمد وابن ماجه وأبو داود والترمذي بسند صحيح.»

صلى الله عليه وسلم صلى بالناس صلاة يجهر فيها، فأسقط آية فقال: « يا فلان! هل أسقطت في هذه السورة من شيء؟ قال: لا أدري، ثم سأل آخر واثنين وثلاثة كلهم يقول: لا أدري، حتى قال: ما بال أقوام يتلى عليهم كتاب الله فما يدرون ما تلي منه مما ترك؟ هكذا خرجت عظمة الله من قلوب بني إسرائيل فشهدت أبدانهم وغابت قلوبهم؛ ولا يقبل الله من عبد حتى يشهد بقلبه مع بدنه».

ثالثاً: ما ورد عن السلف في التدبير:

١ - روى مالك عن نافع عن ابن عمر قال: "تعلم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزوراً". (نزهة الفضلاء، تهذيب سير أعلام النبلاء، ١/٣٥/أ) وطول المدة ليس عجزاً من عمر ولا انشغالاً عن القرآن؛ فما بقي إلا أنه التدبير.

٢- عن ابن عمر رضي الله عنه قال: "كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة ونحوها ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرؤون القرآن، منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل به. وفي هذا المعنى قال ابن مسعود: إنا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسهل علينا العمل به، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن

ويصعب عليهم العمل به". (الجامع لأحكام القرآن، ١/٣٩ - ٤٠ وانظر مجلة المجتمع عدد ١٢١٦).

٣- قال الحسن البصري: "إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، وما تدبّر آياته إلا باتباعه، وما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً وقد - والله! - أسقطه كله ما يرى القرآن له في خلق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نفس! والله! ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة متى كانت القراء مثل هذا؟ لا كثر الله في الناس أمثالهم". (الزهد ٢٧٦ وانظر مفاتيح للتعامل مع القرآن للخالدي، ص ٤٦).

٤- وقال الحسن أيضاً: "نزل القرآن ليُتدبّر ويعمل به؛ فاتخذوا تلاوته عملاً (مدارج السالكين، ١/٤٨٥). أي أن عمل الناس أصبح تلاوة القرآن فقط بلا تدبر ولا عمل به".

٥- كان شعبة بن الحجاج بن الورد يقول لأصحاب الحديث: "يا قوم! إنكم كلما تقدمتم في الحديث تأخرتم في القرآن". (نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء، ٢/٥٨٢) وفي هذا تنبيه لمن شغلته دراسة أسانيد الحديث ومسائل الفقه عن القرآن وتدبره أنه قد فقد توازنه واختل ميزانه.

٦- عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: "لأن أقرأ في ليلتي حتى أصبح ب (إذا زلزلت) و(القارعة) لا أزيد عليهما أحب إليّ من أن أهدّ القرآن ليلتي هدّاً. أو قال: أنثره نثراً". (الزهد لابن المبارك، ٩٧، وانظر نضرة النعيم، ٩١٣).

٧- قال ابن القيم: "ليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده من تدبر القرآن وجمع الفكر على معاني آياته؛ فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذاقها وعلى طرقهما وأسبابهما وثمراتهما ومآل أهلها، وتتل في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله وما يحبه وما يبغضه وصراطه الموصل إليه وقواطع الطريق وآفاته، وتعرفه النفس وصفاتها ومفاسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة. فتشبهه الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها، وتميز له بين الحق والباطل في كل ما يختلف فيه العالم، وتعطيه فرقاناً ونوراً يفرق به بين الهدى والضلال، وتعطيه قوة في قلبه وحياة واسعة وانشراحاً وبهجة وسروراً فيصير في شأن والناس في

شأن آخر؛ فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل، وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبصره بحدود الحلال والحرام وتوقفه عليها؛ لئلا يتعدها فيقع في العناء الطويل، وتناديه كلما فترت عزماته: تقدم الركب، وفاتك الدليل، فاللحاق اللحاق، والرحيل الرحيل. فاعتصم بالله واستعن به وقل: حسبي الله ونعم الوكيل". (مدارج السالكين، ج ١، ص ٤٨٥، ٤٨٦).

وحتى نتدبر القرآن فعلينا:

- ١- مراعاة آداب التلاوة من طهارة ومكان وزمان مناسبين وحال مناسبة وإخلاص واستعاذة وبسملة وتفريغ للنفس من شواغلها وحصر الفكر مع القرآن والخشوع والتأثر والشعور بأن القرآن يخاطبه.
- ٢- التلاوة بتأنٍ وتدبر وانفعال وخشوع، وألا يكون همه نهاية السورة.
- ٣- الوقوف أمام الآية التي يقرأها وقفة متأنية فاحصة مكررة.
- ٤- النظرة التفصيلية في سياق الآية: تركيبها - معناها - نزولها -

غريبها - دلالاتها.

٥- ملاحظة البعد الواقعي للآية؛ بحيث يجعل من الآية منطلقاً لعلاج حياته وواقعه، وميزاناً لمن حوله وما يحيط به.

٦- العودة إلى فهم السلف للآية وتدبرهم لها وتعاملهم معها.

٧- الاطلاع على آراء بعض المفسرين في الآية.

٨- النظرة الكلية الشاملة للقرآن.

٩- الالتفات للأهداف الأساسية للقرآن.

١٠- الثقة المطلقة بالنص القرآني وإخضاع الواقع المخالف له.

١١- معايشة إيجابيات النص وظلاله ولطائفه.

١٢- الاستعانة بالمعارف والثقافات الحديثة.

١٣- العودة المتجددة للآيات، وعدم الاقتصار على التدبر مرة واحدة؛ فالمعاني تتجدد.

١٤- ملاحظة الشخصية المستقلة للسورة.

١٥- التمكن من أساسيات علوم التفسير.

١٦- القراءة في الكتب المتخصصة في هذا الموضوع مثل كتاب:

(القواعد الحسان لتفسير القرآن) للسعدي، وكتاب (مفاتيح

للتعامل مع القرآن) للخالدي، وكتاب (قواعد التدبر الأمثل

لكتاب الله عز وجل) لعبد الرحمن حبنكة الميداني، وكتاب

(دراسات قرآنية) لمحمد قطب. (انظر كتاب مفاتيح للتعامل مع القرآن للخالدي، ص ٦٦).

فما هي درجة أهمية تدبر القرآن في عقولنا؟
وما نسبة التدبر في واقعنا العملي فيما نقرؤه في المسجد قبل الصلوات؟

وهل نحن نربي أبناءنا وطلابنا على التدبر في حلق القرآن؟
أم أن الأهم الحفظ وكفى بلا تدبر ولا فهم؛ لأن التدبر يؤخر الحفظ؟ ما مقدار التدبر في دروس العلوم الشرعية في المدارس، خاصة دروس التفسير؟

وهل يربي المعلم طلابه على التدبر، أم على حفظ معاني الكلمات فقط؟ تُرى... ما مرتبة دروس التفسير في حلق العلم في المساجد: هل هي في رأس القائمة، أم في آخرها - هذا إن وجدت أصلاً؟ ما مدى اهتمامنا بالقراءة في كتب التفسير من بين ما نقرأ؟ لماذا يكون همُّ أحدنا آخر السورة، وقد نهانا رسولنا صلى الله عليه وسلم عن ذلك؟ ومتى نقتنع أن فوائد التدبر وأجره أعظم من التلاوة كهذ الشعر؟ أسئلة تبحث عن إجابة؛ فهل تجدون لها إجابة في واقعنا اليوم؟

ثمرات التدبير

ذكر ابن القيم رحمه الله عند قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ يونس - ٥٧.

ما يبين أن من فهم القرآن وتدبره وعمل بمقتضاه حصل له الشفاء البدني والقلبي.

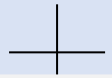
قال رحمه الله: فالقرآن هو الشِّفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كُلُّ أحدٍ يُؤَهَّل ولا يُوفَّق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعَه على دائه بصدق وإيمان، وقبول تام، واعتقاد جازم، واستيفاء شروطه، لم يُقاومهُ الداءُ أبداً.

وكيف تُقاومُ الأدواءُ كلامَ ربِّ الأرض والسماءِ الذي لو نزل على الجبال، لصدَّعَها، أو على الأرض، لقطعها، فما من مرضٍ من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيلُ الدلالة على دوائه وسببه، والحماية منه لمن رزقه الله فهماً في كتابه.

وزاد الأجرى في كتاب أخلاق حملة القرآن فقال: ألا ترون

رحمكم الله إلى مولاكم الكريم؛ كيف يحث خلقه على أن يتدبروا كلامه، ومن تدبر كلامه عرف الرب عز وجل، وعرف عظيم سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تفضله على المؤمنين، وعرف ما عليه من فرض عبادته، فألزم نفسه الواجب، فحذر مما حذره مولاة الكريم، ورغب فيما رغبه فيه، ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن، وعند استماعه من غيره، كان القرآن له شفاء، فاستغنى بلا مال، وعز بلا عشيرة، وأنس بما يستوحش منه غيره.

فإذا أقبل العبد على الله تعالى بعبادة التدبر وتذكر عظيم نعم الله تعالى عليه وواسع عطائه وفضله وجميل آياته في خلقه وتقدير رزقه وتدبير أموره؛ استشعر قلبه عظيم المنة، ولهج اللسان بالشكر والثناء على المنعم، فإذا أراد العبد أن يزداد ربانية وقرباً من الله تعالى أنتقل إلى عبادة أخرى تعينه وتكون سبباً في الوصول إلى الربانية، وهذه العبادة هي ذكر الله تعالى.



ذكر الله عز وجل: الذكر برهانُ المحبة، وكلّما زاد حب الإنسان لله سبحانه وتعالى أكثر من ذكره، وأعلى درجات هذا الذكر ما اجتمع فيه القلب واللسان على التأثر به، فيحرص المسلم دومًا على طرق أبواب الذكر المختلفة طلبًا للقرب من الله تعالى والانتساب إليه.

وإن ذكر الله نعمة كبرى، ومنحة عظيمة، به تستجلب النعم، ويمثله تستدفع النقم، وهو قوت القلوب، وقرّة العيون، وسرور النفوس، وروح الحياة، وحياة الأرواح. ما أشد حاجة العباد إليه، وما أعظم ضرورتهم إليه، لا يستغني عنه المسلم بحال من الأحوال. ولما كان ذكر الله بهذه المنزلة الرفيعة والمكانة العالية فأجدر بالمسلم أن يتعرف على فضله وأنواعه وفوائده، وفيما يلي صفحات من كلام العلامة ابن القيم، أنقلها لكم باختصار من كتابه "الوابل الصيب".

قال رحمه الله: فضل الذكر عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: ((أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ

فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟)) قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: ((ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى)) (١) [رواه أحمد].

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: ((مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ)). وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)). وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال الله تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، (أي: كثيراً). ففيه الأمر بالذكر بالكثرة والشدة لشدة حاجة العبد إليه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين.

وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: "لكل شيء جلاء، وإن

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (3451) وابن ماجه في سننه (3813) وأحمد في المسند (26903, 21240) والحاكم في المستدرک (1779) وابن أبي شيبة في مصنفه (33943) وأبو داود في الزهد (226) وأبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء (1402, 764)

جلاء القلوب ذكر الله عز وجل". ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، وجلاؤه بالذكر، فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء. فإذا ترك الذكر صدئ، فإذا ذكره جلاه. وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر. قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل فلينظر: هل هو من أهل الذكر، أو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة، وأمره فرطاً، لم يقتد به، ولم يتبعه فإنه يقوده إلى الهلاك.

أنواع الذكر

الذكر نوعان: **أحدهما**: ذكر أسماء الرب تبارك وتعالى وصفاته، والثناء عليه بهما، وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق به تبارك وتعالى، وهذا أيضاً نوعان: أحدهما: إنشاء الثناء عليه بها من الذاكر، فأفضل هذا النوع أجمعه للثناء وأعمه، نحو: (سبحان الله عدد خلقه). النوع الثاني: الخبر عن الرب تعالى بأحكام أسمائه وصفاته، نحو قولك: (الله عز وجل يسمع أصوات عباده).

وأفضل هذا النوع: الثناء عليه بما أثنى به على نفسه، وبما أثنى به عليه رسول الله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل.

وهذا النوع أيضاً **ثلاثة أنواع**:

١ - حمد. ٢ - وثناء. ٣ - ومجد.

فالحمد لله الإخبار عنه بصفات كماله سبحانه وتعالى مع محبته والرضا به، فإن كرر المحامد شيئاً بعد شيء كانت ثناء، فإن كان المدح بصفات الجلال والعظمة والكبرياء والملك كان مجداً. وقد جمع الله تعالى لعبده الأنواع الثلاثة في أول الفاتحة، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله: حمدي عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قال: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: مجدي عبدي [رواه مسلم].

النوع الثاني من الذكر: ذكر أمره ونهييه وأحكامه: وهو أيضاً نوعان: **أحدهما**: ذكره بذلك إخباراً عنه بأنه أمر بكذا، ونهييه عن كذا.

الثاني: ذكره عند أمره فيبادر إليه، وعند نهييه فيهرب منه، فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر فذكره أفضل الذكر وأجله

وأعظمه فائدة. فهذا الذكر من الفقه الأكبر، وما دونه أفضل الذكر إذا صحت فيه النية. ومن ذكره سبحانه وتعالى: ذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وأياديه، ومواقع فضله على عباده، وهذا أيضاً من أجل أنواع الذكر.

فهذه **خمسة** أنواع، وهي تكون بالقلب واللسان تارة، وذلك أفضل الذكر. وبالقلب وحده تارة، وهي الدرجة الثانية، وباللسان وحده تارة، وهي الدرجة الثالثة. **فأفضل الذكر**: ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده، لأن ذكر القلب يثمر المعرفة بالله، ويهيج المحبة، ويشير الحياء، ويبعث على المخافة، ويدعو إلى المراقبة، وينزع عن التقصير في الطاعات، والتهاون في المعاصي والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئاً من هذه الآثار، وإن أثمر شيئاً منها فثمرة ضعيفة.

من فوائد الذكر: (١) وفي الذكر نحو من **مائة فائدة**: إحداها: أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره. الثانية: أنه يرضي

(١) ذَكَرَهَا ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ مُرْتَبَةً كَمَا جَاءَتْ فِي كِتَابِهِ، وَالَّتِي بَلَغَتْ ثَلَاثًا وَسَبْعِينَ فَايِدَةً.

الرحمن عز وجل. الثالثة: أنه يزيل الهم والغم عن القلب. الرابعة: أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط. الخامسة: أنه يقوي القلب والبدن. السادسة: أنه ينور الوجه والقلب. السابعة: أنه يجلب الرزق. الثامنة: أنه يكسو الذافر المهابة والحلاوة والنضرة. التاسعة: أنه يورثه المحبة التي هي روح الإسلام. العاشرة: أنه يورثه المراقبة حتى يدخله في باب الإحسان. الحادية عشرة: أنه يورثه الإنابة، وهي الرجوع إلى الله عز وجل الثانية عشرة: أنه يورثه القرب منه. الثالثة عشرة: أنه يفتح له باباً عظيماً من أبواب المعرفة. الرابعة عشرة: أنه يورثه الهيبة لربه عز وجل وإجلاله. الخامسة عشرة: أنه يورثه ذكر الله تعالى له، كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. السادسة عشرة: أنه يورث حياة القلب. السابعة عشرة: أنه قوة القلب والروح. الثامنة عشرة: أنه يورث جلاء القلب من صدئه. التاسعة عشرة: أنه يحط الخطايا ويذهبها، فإنه من أعظم الحسنات، والحسنات يذهب السيئات. العشرون: أنه يزيل الوحشة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى. الحادية والعشرون: أن ما يذكر به العبد ربه عز وجل من جلاله وتسبيحه وتحميده، يذكر بصاحبه عند الشدة. الثانية والعشرون: أن العبد إذا تعرف إلى الله تعالى بذكره في الرخاء عرفه في الشدة. الثالثة والعشرون: أنه منجاة من عذاب الله تعالى.

الرابعة والعشرون: أنه سبب نزول السكينة، وغشيان الرحمة، وحفوف الملائكة بالذاكر. الخامسة والعشرون: أنه سبب اشتغال اللسان عن الغيبة، والنميمة، والكذب، والفحش، والباطل. السادسة والعشرون: أن مجالس الذكر مجالس الملائكة، ومجالس اللغو والغفلة مجالس الشياطين. السابعة والعشرون: أنه يؤمن العبد من الحسرة يوم القيامة. الثامنة والعشرون: أن الاشتغال به سبب لعطاء الله للذاكر أفضل ما يعطي السائلين. التاسعة والعشرون: أنه أيسر العبادات، وهو من أجلها وأفضلها. الثلاثون: أن العطاء والفضل الذي رتب عليه لم يرتب على غيره من الأعمال. الحادية والثلاثون: أن دوام ذكر الرب تبارك وتعالى يوجب الأمان من نسيانه الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعهده. الثانية والثلاثون: أنه ليس في الأعمال شيء يعم الأوقات والأحوال مثله. الثالثة والثلاثون: أن الذكر نور للذاكر في الدنيا، ونور له في قبره، ونور له في معاده، يسعى بين يديه على الصراط. الرابعة والثلاثون: أن الذكر رأس الأمور، فمن فتح له فيه فقد فتح له باب الدخول على الله عز وجل. الخامسة والثلاثون: أن في القلب خلة وفاقة لا يسدها شيء البتة إلا ذكر الله عز وجل. السادسة والثلاثون: أن الذكر يجمع المتفرق، ويفرق المجتمع، ويقرب البعيد، ويبعد القريب. فيجمع ما تفرق على

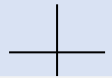
العبد من قلبه وإرادته، وهمومه وعزومه، ويفرق ما اجتمع عليه من الهموم، والغموم، والأحزان، والحسرات على فوات حظوظه ومطالبه، ويفرق أيضاً ما اجتمع عليه من ذنوبه وخطاياها وأوزارها، ويفرق أيضاً ما اجتمع على حربه من جند الشيطان، وأما تقريبه البعيد فإنه يقرب إليه الآخرة، ويبعد القريب إليه وهي الدنيا.

السابعة والثلاثون: أن الذكر ينبه القلب من نومه، ويوقظه من سباته. الثامنة والثلاثون: أن الذكر شجرة تثمر المعارف والأحوال التي شمر إليها السالكون. التاسعة والثلاثون: أن الذاكر قريب من مذكوره، ومذكوره معه، وهذه المعية معية خاصة غير معية العلم والإحاطة العامة، فهي معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق. الأربعون: أن الذكر يعدل عتق الرقاب، ونفقة الأموال، والضرب بالسيف في سبيل الله عز وجل. الحادية والأربعون: أن الذكر رأس الشكر، فما شكر الله تعالى من لم يذكره. الثانية والأربعون: أن أكرم الخلق على الله تعالى من المتقين من لا يزال لسانه رطباً بذكره. الثالثة والأربعون: أن في القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر الله تعالى. الرابعة والأربعون: أن الذكر شفاء القلب ودواؤه، والغفلة مرضه. الخامسة والأربعون: أن الذكر أصل موالاة الله عز وجل ورأسها والغفلة أصل معاداته ورأسها. السادسة والأربعون: أنه جلاب للنعم، دافع للنقم بإذن الله.

السابعة والأربعون: أنه يوجب صلاة الله عز وجل وملائكته على
الذاكر. الثامنة والأربعون: أن من شاء أن يسكن رياض الجنة في
الدنيا، فليستوطن مجالس الذكر، فإنها رياض الجنة. التاسعة
والأربعون: أن مجالس الذكر مجالس الملائكة، ليس لهم مجالس إلا
هي. الخمسون: أن الله عز وجل يباهي بالذاكرين ملائكته.
الحادية والخمسون: أن إدامة الذكر تنوب عن التطوعات، وتقوم
مقامها، سواء كانت بدنية أو مالية، أو بدنية مالية. الثانية
والخمسون: أن ذكر الله عز وجل من أكبر العون على طاعته،
فإنه يجلبها إلى العبد، ويسهلها عليه، ويلذذها له، ويجعل قرة عينه
فيها. الثالثة والخمسون: أن ذكر الله عز وجل يذهب عن القلب
مخاوفه كلها ويؤمنه. الرابعة والخمسون: أن الذكر يعطي الذاكر
قوة، حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يطيق فعله بدونه. الخامسة
والخمسون: أن الذاكرين الله كثيراً هم السابقون من بين عمال
الآخرة. السادسة والخمسون: أن الذكر سبب لتصديق الرب عز
وجل عبده، ومن صدقه الله تعالى رجي له أن يحشر مع الصادقين.
السابعة والخمسون: أن دور الجنة تبني بالذكر، فإذا أمسك
الذاكر عن الذكر، أمسكت الملائكة عن البناء. الثامنة
والخمسون: أن الذكر سد بين العبد وبين جهنم. التاسعة
والخمسون: أن ذكر الله عز وجل يسهل الصعب، ويسر العسير،

ويخفف المشاق. الستون: أن الملائكة تستغفر للذاكر كما تستغفر للتائب. الحادية والستون: أن الجبال والقفار تنبهي وتستبشر بمن يذكر الله عز وجل عليها. الثانية والستون: أن كثرة ذكر الله عز وجل أمان من النفاق. الثالثة والستون: أن للذكر لذة عظيمة من بين الأعمال الصالحة لا تشبهها لذة. الرابعة والستون: أن في دوام الذكر في الطريق، والبيت، والبقاع، تكثيراً لشهود العبد يوم القيامة، فإن الأرض تشهد للذاكر يوم القيامة.

فإذا أقبل العبد على الله تعالى بعبادة الذكر وأكثر من ذكر الله تعالى، وذكر عظيم نعم الله تعالى عليه وواسع عطائه وفضله وجميل آياته في خلقه وتقدير رزقه وتدبير أموره؛ استشعر قلبه عظيم المنة، ولهج اللسان بالشكر والثناء على المنعم، فإذا أراد العبد أن يزداد ربانية وقرباً من الله تعالى أنتقل إلى عبادة أخرى تعينه وتكون سبباً في الوصول إلى الربانية، وهذه العبادة هي الدعاء.



الدعاء:

قال ابن القيم: "الدُّعَاءُ من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء يُدافعُهُ وَيُعَاجِزُهُ وَيَمْنَعُ نُزُولَهُ وَيَرْفَعُهُ أَوْ يُخَفِّفُهُ إِذَا نَزَلَ، وهو سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ".

إن الله يحبّ العبد الذي يدعوهِ ويُلحُّ عليه في طلب مسألته، ويُظهر الافتقار لله عزّ وجلّ، وحرّيّ بالمسلم أن يغتنم الأوقات الفاضلة التي يستجاب فيها الدعاء فيدعو بها ويتقرّب إلى الله سبحانه وتعالى من خلالها.

أولاً: الدعاء هو العبادة

إن الدعاء هو العبادة وأفضلها عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ)) ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. (١)

(١) (رواه أحمد: [١٨٣٧٨]، تعليق شعيب الأرنؤوط: "إسناده صحيح"، وأبو داود: [١٤٧٩]، والترمذي: [٢٩٦٩]، وصححه الألباني في صحيح الجامع: [٣٤٠٧]، صحيح أبي داود: [١٣٢٩]، المشكاة: [٢٣٣٠]، والروض النضير: [888]).

وقال الإمام الخطابي رحمه الله: "معنى الدعاء استدعاء العبدِ ربّه عز وجل العناية، واستمداده منه المعونة، وحقيقته إظهار الافتقار إلى الله تعالى، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية واستشعارُ الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله عز وجل، وإضافة الجود والكرم إليه، ولذلك قال رسول الله ﷺ: ((الدعاء هو العبادة)).

وقوله ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: ((إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ)) (١).

يقول الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله: "وقوله ﷺ: ((إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ))؛ هذا مُنْزَعٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى مِمَّا أَنْزَلَ فِي فَاتِحَةِ كِتَابِهِ وَيَقْرَأُهُ عَبْدُهُ الْمُسْلِمُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فإن السؤال هو دعاؤه والرغبة إليه، والدعاء هو العبادة. (٢)

(١) (صحيح؛ أخرجه أحمد: [٢٦٦٩]، والترمذي: [٢٥١٦]، وصححه الألباني في صحيح الجامع: [٧٩٥٧])

(٢) (جامع العلوم والحكم؛ للإمام ابن رجب ط دار المنار: [ص ١٩٥]، بتصرف).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: ((أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الدُّعَاءُ)) (١) .

وقال الإمام الخطابي رحمه الله في كتابه: "شأن الدعاء وقوله ﷺ: ((الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ)) معناه: أنه مُعْظَمُ الْعِبَادَةِ أو أفضل العبادات، كقولهم: الناس بنو تميم، والمال الإبل، يريدون أفضل الناس، أو أكثرهم عددًا، أو ما أشبه ذلك، وأن الإبل أفضل أنواع المال، وكقول النبي ﷺ: ((الْحَجُّ عَرَفَةٌ)) يريد أن معظم الحج الوقوف بعرفة، وذلك أنه إذا أدرك عرفة فقد أمن فوات الحج، ومثله في الكلام كثير."

ثانياً: الدعاء أكرم العبادات على الله:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الدُّعَاءِ)) (٢) . ((أَكْرَمَ)): منصوب

(١) صحيح: أخرجه الحاكم في المستدرک، وابن عدي في الكامل عن أبي هريرة، وابن سعد عن النعمان بن بشير، وصححه الألباني في صحيح الجامع: [١١٢٢]، والسلسلة الصحيحة؛ للألباني).

(٢) صحيح؛ أخرجه البخاري في الأدب المفرد: [٧١٢]، والترمذي: [٣٣٧٠]، وابن ماجه: [٣٨٢٩]، والحاكم في المستدرک: [٤٩٠/١]، وابن حبان في صحيحه: [٧٨٠]، والبيهقي في الشعب: [١٠٠٦]، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد: [٥٥٢].

على أنه خبر «لَيْسَ»، و((عَلَى اللَّهِ)): بمعنى عنده.

ثالثاً: الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل:

عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ، أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ)) (١)

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((لَا يُغْنِي حَذْرٌ مِنْ قَدَرٍ، وَالِدُّعَاءِ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزَلْ، وَإِنَّ الْبَلَاءَ لَيَنْزِلُ، فَيَتَلَقَّاهُ الدُّعَاءُ، فَيَعْتَلِجَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)) (٢)

وَعَنْ سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((لَا يَرُدُّ الْقَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ)) (٣)
وللدعاء مع البلاء ثلاث مقامات:

(١) صحيح؛ أخرجه أحمد، وأبي داود، الترمذي، وابن ماجه، الحاكم في المستدرک، انظر: صحيح الجامع [1757]: .

(٢) حسن؛ أخرجه الحاكم في المستدرک، انظر صحيح الجامع للألباني: [٧٧٣٩]، المشكاة: [٢٢٣٤] للألباني)..

(٣) (حسن؛ أخرجه الترمذي: [٢١٣٩]، والحاكم، عن سلمان رضي الله عنه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع [7687].

١- أن يكون الدعاء أقوى من البلاء فيدفعه. ٢- أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد، ولكن يخففه وإن كان ضعيفاً. ٣- أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه" (الجواب الكافي؛ لابن القيم، ص: ٧). ولهذا شُرِعَتْ صلاة الاستخارة والدعاء فيها، بأن العبد يسأل ربه عز وجل في أي أمر يُقدِّم عليه، بأن كان هذا الأمر خير له في دينه، ومعاشه، وعاقبة أمره، أن يُيسِّره له، وإن كان هذا الأمر نقيض ذلك، أن يصرفه عنه.

صرف الدعاء لغير الله رب العالمين قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ. وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦]. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ. إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤]. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: «يَا غُلَامُ! إِنِّي أَعْلَمُكَ

كَلِمَاتٍ: أَحْفَظُ اللَّهَ يَحْفَظُكَ، أَحْفَظُ اللَّهَ تَجِدُهُ تَجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَيَّ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَيَّ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ)) (١) والشاهد من الحديث: قوله ﷺ: ((إِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ)).

ومن أسباب اجابة الدعاء ما يلي:

١- **الإخلاص لله تعالى**؛ قال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر من الآية: ١٤]. قال الإمام ابن كثير رحمه الله: "فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم" (تفسير ابن كثير [4/112]:). وقال تعالى مُخْبِرًا عن محنة نبيه سيدنا

(١) (صحيح؛ أخرجه أحمد في المسند: [٢٦٦٩]، والترمذي: [٢٥١٦]، وصححه الألباني في صحيح الجامع: [٧٩٥٧])

يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].
وكذلك أيضاً؛ نجّى الله تعالى أصحاب الغار بأنهم توسلوا إلى الله تعالى بأعمال صالحة عملوها خالصة لوجه الله تعالى.

ولقد نجا الله المشركين حين أخلصوا له الدعاء، لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

٢ - الصدق مع الله تعالى. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].
وعَنْ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: ((مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ)). (١)

(١) (رواه مسلم: [١٩٠٩]، وأبو داود: [١٥٢٠]، والترمذي: [١٦٥٣]، وابن ماجة: [٢٧٩٧]، وابن حبان في صحيحه [3192]:).

٣ - حسن الظن بالله. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي (بِي)) (١))

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي)) (٢)
وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ مَنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ)) (٣)

٤ - الاستجابة لأمر الله تعالى ورسوله ﷺ وتحقيق الإيمان. لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ

(١) (رواه البخاري: [٧٥٠٥]، ومسلم: [٢٦٧٥][٢]، وأحمد في المسند: [٨١٧٨]، والترمذي [3603]:).

(٢) (رواه مسلم: [٢٦٧٥][١٩]، وأحمد في المسند: [٩٧٤٩]، والترمذي: [٢٣٨٨]، وابن حبان: [٨١٢]؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أحمد: [١٣١٩٢] عن أنس رضي الله عنه، تعليق شعيب الأرنؤوط: "إسناده صحيح على شرط مسلم").

(٣) (أخرجه الترمذي: [٣٤٧٩]، والحاكم في المستدرک: [١٨١٧]، وانظر: صحيح الجامع: [٢٤٥] للألباني).

أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلَيْسَتْ جِيبُوا لِي وَلِيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿البقرة: ١٨٦﴾. قال الإمام القرطبي رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَتْ جِيبُوا لِي﴾ قال أبو رجاء الخراساني: "فليدعوا لي. وقال ابن عطية: المعنى فليطلبوا أن أجيبهم. وهذا هو باب استفعل أي طلب الشيء إلا ما شذ مثل استغنى الله، وقال مجاهد وغيره: المعنى فليجيبوا إليّ فيما دعوتهم إليه من الإيمان، أي الطاعة والعمل ويقال: أجاب واستجاب بمعنى..

٥ - التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض.

قال تعالى عن أنبياءه ورسوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء من الآية: ٩٠]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: "قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ، فَإِذَا أَحَبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّه، وَلَنْ أَسْتَعَاذَ

بِي لِأَعْيِدَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ
نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)) (١)

٦- تحري الحلال في المطعم والمشرب والملبس .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((أَيُّهَا
النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ
الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ
كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾،
وَقَالَ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا
رَزَقْنَاكُمْ ﴾، ثُمَّ ذَكَرَ: الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، ثُمَّ
يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ،
وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغَدِي بِالْحَرَامِ، فَأَنِّي
يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ)) (٢)

(١) (رواه البخاري: [٦٥٠٢]، وابن حبان في صحيحه [347]:). وفي رواية عند
البيزار في مسنده: «ولئن سألتني لأعطينه، ولئن دعاني لأجيبه، ولئن استعاذني
لأعيدنه» (رواه البيزار في مسنده [8750]:).

(٢) (رواه مسلم: [١٠١٥]، وأحمد في المسند: [٨٣٤٧]، والترمذي: [٢٩٨٩]،
والدارمي [2757]:).

٧ - كثرة الدعاء في الرخاء.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكَرْبِ، فَلْيُكْثِرِ

الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ)) (١)

ولقوله ﷺ: ((تَعَرَّفَ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفَكَ فِي الشِّدَّةِ)). (٢)

ويقول الإمام ابن رجب رحمه الله: "قوله ﷺ: ((تَعَرَّفَ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفَكَ فِي الشِّدَّةِ))؛ يعني: أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا اتَّقَى اللَّهَ، وَحَفِظَ حُدُودَهُ، وَرَاعَى حَقُوقَهُ فِي حَالِ رِخَائِهِ، فَقَدْ تَعَرَّفَ بِذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، وَصَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ مَعْرِفَةً خَاصَّةً، فَعَرَفَهُ رَبُّهُ فِي الشِّدَّةِ، وَرُوعِي لَهُ تَعَرُّفُهُ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، فَجَاءَ مِنَ الشَّدَائِدِ بِهَذِهِ الْمَعْرِفَةِ،

(١) (أخرجه: الحسن بن سفيان، وأبو نعيم في الحلية: [٣١/١]، والبيهقي في شعب الإيمان: [٥٣٧٥]، والدينوري في المجالسة، وكنز العمال: [٣٥٦٩٥]، وصححه الألباني في صحيح الجامع: [٤٥١٩]، وأحمد: [١٤٤٨١] عن جابر، تعليق شعيب الأرناؤوط: "إسناده قوي على شرط مسلم رجاله ثقات غير ابن خثيم -وهو عبد الله بن عثمان- فصدوق لا بأس به، والدارمي، والحاكم).

(٢) (أخرجه: الترمذي: [٣٣٨٢]، والحاكم في المستدرک: [١٩٩٧]، وانظر: صحيح الجامع [6290]:).

وهذه معرفة خاصة تقتضي قرب العبد من ربه، ومحبتة له، وإجابته لدعائه. فمعرفة العبد لربه **نوعان**:
أحدهما: المعرفة العامة. وهي معرفة الإقرار به، والتّصديق، والإيمان، وهذه عامة للمؤمنين.

والثاني: معرفة خاصة. تقتضي ميل القلب إلى الله بالكلية، والانقطاع إليه، والأنس به، والطمأنينة بذكره، والحياء منه، والهيبة له، وهذه المعرفة الخاصة هي التي يدور حولها العارفون، كما قال بعضهم: "مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل له: وما هو؟ قال: معرفة الله عز وجل".

والثاني: معرفة خاصة: وهي تقتضي محبتة لعبده وتقريبه إليه، وإجابة دعائه، وإنجائه من الشدائد، وهي المشار إليها بقوله **صلى الله عليه وسلم** فيما يحكي عن ربه: ((وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أَحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيذَنَّهُ)). وفي رواية: «ولئن دعاني لأجيبته»، ولما هرب الحسن

من الحجاج دخلَ إلى بيت حبيب أبي محمد، فقال له حبيب: يا أبا سعيد، أليس بينك وبين ربك ما تدعوه به فيسترك من هؤلاء؟ ادخل البيت، فدخل، ودخل الشرطُ على أثره، فلم يروه، فذكر ذلك للحجاج، فقال: بل كان في البيت، إلا أن الله طمسَ أعينهم فلم يروه.

٨ - كثرة ذكر الله. قال تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب من الآية: ٣٥]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: ((ثَلَاثَةٌ لَا يَرُدُّ اللَّهُ دُعَاءَهُمْ: الذَّاكِرُ اللَّهَ كَثِيرًا، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَالْإِمَامُ الْمُقْسِطُ)) (١).

وقد ذكرت فوائد ذكر الله سابقاً

٩ - الدعاء باسم الله الأعظم وأسمائه الحسنى وصفاته العلى. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف من الآية: ١٨٠]. ونبي الله موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(١) (أخرجه: البيهقي في شعب الإيمان: [٦٩٧٣]، وحسنه الألباني في صحيح الجامع: [٣٠٦٤]، والسلسلة الصحيحة [1211]:).

وَسَلَّمَ يَدْعُو رَبَّهُ فَيَقُولُ: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف من الآية: ١٥٥]. ويعقوب عليه الصلاة والسلام يقول لأبنائه: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨]. وسليمان عليه الصلاة والسلام يقول: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [سورة ص: ٣٥]. وعيسى عليه الصلاة والسلام يدعو ربه: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤].

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَلَّمَ: ((مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أُمَّتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِي حُكْمِكَ، عَدْلٌ فِي قَضَائِكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيَتْ بِهِ نَفْسُكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا))، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُ هَوْلَاءِ

الكلمات؟ قَالَ: ((أَجَلٌ يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا)).
وفي رواية: ((وَأَبْدَلُهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا)). (١)

ما هي الصيغة المشروعة في الدعاء

الأولى والصواب الاتباع والدعاء بما ورد عن الرسول ﷺ أبرك وأدعى للإجابة ولكن لا بأس أن تدعوا بما يفتح الله عليك به وما تريده نفسك على ألا يكون حراماً أو فيه اعتداء على الخالق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "المشروع للإنسان أن يدعو بالأدعية الماثورة؛ فإن الدعاء من أفضل العبادات، وقد نهانا الله عن الاعتداء فيه، فينبغي لنا أن نتبع ما شرع وسنّ، كما أنه ينبغي لنا ذلك في غيره من العبادات، والذي يعدل عن الدعاء المشروع إلى غيره، الأحسن له أن لا يفوته الأكمل والأفضل، وهي الأدعية النبوية، فإنها أفضل وأكمل باتفاق المسلمين من الأدعية التي ليست كذلك وإن قالها بعض الشيوخ، فكيف وقد يكون في عين الأدعية ما هو خطأ أو إثم أو غير ذلك؟!"

(١) أخرجه: أحمد: [٣٧١٢]، والحاكم في المستدرک: [١٨٧٧]، والطبراني في الكبير: [١٠٣٥٢]، وابن حبان: [٩٧٢]، وقال شعيب الأرنؤوط: "إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: [١٩٨-١٩٩].

وقت إجابة الدعاء

فإيّاك إيّاك أن تهمل الدعاء وتستكبر نفسك عنه فتدخل في الوعيد المنتظر لهم من الله سبحانه، ثم لتأمل كرمه جل وعلا في بداية الآية وقوله ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فلا فاصل بين الكلمتين ولا تسويف.

وإيّاك أن تستبطأ وقت الإجابة وتقول لم يستجب لي فادعوا الله تعالى، ولا تستعجل الإجابة؛ فكل شيء بقدر.

فعندما كان موسى وهارون عليهما السلام يدعوان الله سبحانه على فرعون جاء الرد بأن: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يونس: ٨٩].

قال ابن كثير: "لم يرى موسى الإجابة إلا بعد ٤٠ سنة". هذا نبي الله يدعو وينتظر ٤٠ سنة فما بال من منا لا ينتظر أربعة أيام إلا وتأنف نفسه ويقول لا يستجاب لي!! ولكن أيضا ورد في الأثر أنّ هناك من دعى فاستجاب الله تعالى له في حينه كمن دعا بنزول المطر فنزل المطر والله سبحانه الحكمة في إجابته أو تأخيره.

قال الله عز وجل: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ﴾ [سورة فصلت: ٤٩].

وورد في صحيح البخاري أن حدثنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك عن ابن شهاب عن أبي عبيد مولى ابن أزهري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ((يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول دعوت فلم يستجب لي)).

فادعوا الله تعالى ولا تستعجل الإجابة ولا تتذمر وتقل لا يستجاب لي ولا يقبل الله دعوتي، فإنما عليك الدعاء وبذل أسباب قبوله وما تلي ذلك إنما هو لله سبحانه.

فإذا قام العبد الرباني بهذه العبادات المعينة إلى الوصول إلى الربانية أنشرح صدره وأقبل على فعل الصدقة.

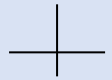
الصدقة: هي الإنفاق في سبيل الله تعالى، بها تنزكي النفس وتطهر من الذنوب، وتحصل بركة المال فينمو ويزداد، وتخلو نفس صاحبها من آفة البخل والشح.

الصدقة نبعٌ ثرٌّ يجرف مسيله كل أدران الحياة وعراقيلها، والنفقة في وجوه المعروف بلسم الشفاء من عظيم الأدواء،

والعطاء في السر بركة للمال وعد بها رب الأرض والسماء؛
﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ
لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ
الرَّازِقِينَ﴾ ["سبأ: ٣٩"]

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: فَإِنَّ للصدقة تأثيراً عجبياً
في دفع أنواع البلاء، ولو كانت من فاجر أو من ظالم بل من كافر
فإن الله تعالى يدفع بها عنه أنواعاً من البلاء، وهذا أمر معلوم عند
الناس خاصتهم وعامتهم، وأهل الأرض كلهم مقرّون به لأنهم
جرّبوه (الوابل الصيب لابن القيم رحمه الله تعالى).

*وقال رحمه الله تعالى في أسباب شرح الصدر: ومنها
الإحسان إلى الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال والجاه والنفع
بالبدن وأنواع الإحسان، فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدرًا
وأطيبهم نفسًا وأنعمهم قلبًا، والبخيل الذي ليس فيه إحسان
أضيق الناس صدرًا وأنكدهم عيشًا وأعظمهم همًا وغمًا..
(زاد المعاد لابن القيم) .



* وقال رحمه الله تعالى ... : بل ها هنا من الأدوية التي تشفي من الأمراض ما لم يهتد إليها عقول أكابر الأطباء، ولم تصل إليها علومهم وتجاربهم وأقيستهم من الأدوية القلبية والروحانية وقوة القلب واعتماده على الله تعالى والتوكل عليه والالتجاء إليه والانطراح والانكسار بين يديه والتدلل له الصدقة والدعاء والتوبة والاستغفار والإحسان إلى الخلق وإغاثة الملهوف والتفريج عن المكروب، فإن هذه الأدوية قد جرّبتها الأمم على اختلاف أديانها ومللها، فوجدوا لها من التأثير في الشفاء ما لا يصل إليه علم أعلم الأطباء ولا تجربته ولا قياسه، وقد جرّبنا نحن وغيرنا من هذا أموراً كثيرة ورأيناها تفعل ما لا تفعل الأدوية الحسية ...
(زاد المعاد لابن القيم).

* وقال رحمه الله تعالى: كان ﷺ أعظم الناس صدقةً بما ملكت يده، وكان لا يستكثر شيئاً أعطاه الله تعالى ولا يستقله، وكان لا يسأله أحدٌ شيئاً عنده إلا أعطاه قليلاً كان أو كثيراً، وكان عطاؤه عطاء مَنْ لا يخاف الفقر، وكان العطاء والصدقة أحبَّ شيء إليه وكان سروره وفرحه بما يعطيه أعظم من سرور الآخذ بما يأخذه، وكان أجود الناس بالخير يمينه كالريح المرسلة، وكان إذا

عرض له محتاج آثره على نفسه تارةً بطعامه وتارةً بلباسه، وكان ينوع في أصناف عطائه وصدقته فتارةً بالهبة وتارةً بالصدقة وتارةً بالهدية وتارةً بشراء الشيء ثم يعطي البائع الثمن والسلعة جميعاً كما فعل ببعير جابر، وتارةً كان يقترض الشيء فيرد أكثر منه وأفضل وأكبر، ويشترى الشيء فيعطي أكثر من ثمنه، ويقبل الهدية ويكافئ عليها بأكثر منها أو بأضعافها تلطفاً وتنوعاً في ضروب الصدقة والإحسان بكلِّ ممكن، وكانت صدقته وإحسانه بما يملكه وبجاله وبقوله فيخرج ما عنده ويأمر بالصدقة ويحضُّ عليها ويدعو إليها بجاله وقوله، فإذا رآه البخيلُ الشحيح دعاه حاله إلى البذل والعطاء وكان مَنْ خالطه وصحبه ورأى هديه لا يملك نفسه من السماحة والندى، وكان هديه ﷺ يدعو إلى الإحسان والصدقة والمعروف ولذلك كان صلى الله عليه وسلم أشرح الخلق صدراً وأطيبهم نفساً وأنعمهم قلباً، فإن للصدقة وفعل المعروف تأثيراً عجبياً في شرح الصدر، وانضاف ذلك إلى ما خصَّه الله به من شرح صدره بالنبوة والرسالة وخصائصها وتوابعها وشرح صدره حساً وإخراج حظِّ الشيطان منه (زاد المعاد لابن القيم).

قال الأصمعي: حدثنا هشام بن سعد صاحب المحمل: عن أبيه قال: قال حكيم بن حزام: ما أصبحتُ وليس ببائي صاحبُ

حاجة، إلا علمت أنها من المصائب التي أسأل الله الأجر عليها .
(سير أعلام النبلاء للذهبي).

عن الحسن قال: رأى الأحنف في يد رجل درهما فقال: لمن هذا؟ قال: لي قال: ليس هو لك حتى تخرجه في أجر أو اكتساب شكر وتمثل: أنت للمال إذا أمسكته وإذا أنفقته فالمال لك. (سير أعلام النبلاء للذهبي).

فصدقتك - أيها العبد الرباني - بذرة بذرها أكرم من وطأ
الثرى عليه الصلاة والسلام، فالرسول الله ﷺ ((أجود بالخير
من الريح المرسلة)) [رواه البخاري]

أيها العبد الرباني: كن واحداً ممن تدعو له الملائكة: ((اللهم
أعط منفقاً خلفاً)) [رواه البخاري]

أيها العبد الرباني: كن واحداً ممن ينفق الله عليهم؛ فإنه يقول
في الحديث القدسي: ((أنفق يا ابن آدم ينفق عليك)).
[متفق عليه.]

أيها العبد الرباني: كن على يقين من أن ما أنفقته باق ولم ينف،
وإنما الفناء لما أمسكنا.

عن عائشة - رضي الله عنها - أنهم ذبحوا شاة، فقال النبي ﷺ: ((ما بقي منها؟ قالت: ما بقي منها إلا كتفها، قال: بقي كلها غير كتفها)) [رواه الترمذي، وقال: هذا حديث صحيح.]
 لا ... ليس ما أنفقنا باقٍ فقط؛ بل يزيد ويزيد؛ فإن النبي ﷺ قال: ما نقصت صدقة من مال [«رواه مسلم»].

ومن أحكام الصدقة الآتي:

١ - أن تكون طيبةً ومن كسب طيبٍ، ولعل أول أثرٍ من آثار هذا النوع أنه يعوّد الإنسان كسبَ الحلال وأكله ومن البديهي أن الإنسان لا يقرب إلى الله شيئاً يبتغي مرضاته إلا إذا كان هذا الشيء طيباً عند الله تعالى وإلا لكان بتقديمه غير الطيب جالباً على نفسه سخط الله تعالى والله غنيٌّ عن ذلك وعن غيره.

٢ - أن تكون الصدقة عن ظهر غنى؛ لأنه لا ينبغي للإنسان أن يتصدق بما تطلّع إليه نفسه ويحتاجه حتى لا يوقع الملامة في نفسه، والغنى **قسيمان**:

أ- غنى مادي: بأن يكون مستغنياً بفضل ماله عما تصدق به هو ومن يعول ولوازم حياته، وهذا القدر لعوام الناس وقد

يشاركهم فيه الحيوانات، لأن الحيوان لا يمنع طعامه إذا شبع أما في حالة الجوع فإنه يدفع من شاركه طعامه حتى الحيوانات الأليفة من بهيمة الأنعام.

ب- غنى معنوي : وهو غنى النفس ولو كان طاوياً، وهذا النوع لخواص الناس كما امتدح الله تعالى الأنصار بالإيثار على النفس.

وبما أن هذا القسم لا إلزام فيه ولا حدّ وإنما هو متروك لقوة صلة العبد بالله تعالى ورجائه لفضل الله تعالى؛ فإن أفضل أنواعه ما كان أقرب إلى النفس وأحبّها إليها.

كما جاء في أفضل الصدقة عند الله تعالى قال **صلى الله عليه وسلم** : ((أنفسها عند أهلها))، وقد جاء عن عمر رضى الله عنه أنه أهدى جملاً في أنفه حلقة فضة من أكرم أنواع الإبل كان قد أعطي فيه ثمانين بعيراً ولما سئل عن ذلك وقيل له : كان يكفيك غيره قال : أردتُ إغائة المشركين وفي هذه الحالة تكون الصدقة أعلى منزلة وأعظم قدرًا وأبلغ أثرًا في النفس، وأقوى دلالة على صدقه مع الله تعالى يعتبر فضل الصدقة بالكيفية والصورة التي تقع بها من سماحة النفس ورغبة الإحسان لا بالكثرة والمظهر وقد يدرك العبد بالنية الصالحة ما يحصل للمتصدق بالمال الكثير، كما

جاء في حديث أبي كبشة الأثماري رضى الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول ((ثلاثٌ أقسمُ عليهنَّ ...)) إلى أن قال: ((وأحدثكم حديثاً فاحفظوه قال : إنما الدنيا لأربعة نفرٍ : عبدٌ رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقى ربَّهُ فيه ويصلُّ بهِ رحمةً ويعلمُ لله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل . وعبدٌ رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادقُ النية يقول: لو أن لي مالاً لعملتُ فيه بعملِ فلان فهو بنيتُهُ فأجرُهُما سواءٌ. وعبدٌ رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً يخبطُ في ماله بغيرِ علمٍ لا يتقى فيه ربَّهُ ولا يصلُّ فيه رحمةً ولا يعلمُ لله فيه حقاً فهو بأخبثِ المنازل، وعبدٌ لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملتُ فيه بعملِ فلان فهو بنيتُهُ فوزُهُما سواءٌ)) فقد أدرك صاحب النية الحسنة من الفضل والمنزلة مثل ما أدركه صاحب المال الذي يعرف حق الله تعالى فيه ويصلُّ بهِ رحمة.

وأما مصارف الصدقة: فليسَ لمصرفها من حدود ولا تعين؛ فيجوز صرفها في مصارف الزكاة؛ لأنها تطوع وحيث وضعتها صادفت محلاً وتزيد مصارفها عن مصارف الزكاة فتشمل جميع أنواع أبواب الخير التي لم تذكر في مصارف الزكاة؛ من صلة

الرحم والتوسعة على الأيتام والأرامل والمعوزين وبناء المساجد والمدارس والمستشفيات والقناطر والصدقات الجارية من سقي الماء وتوريث مصحف وغرس نخل وبناء مسكن لمنقطعين وما لا يمكن حصره من هذا القبيل.

وأما آثارها: فإن أثرها يشملُ الغني والفقير فتكون متجددة الأثر في نفوس الأغنياء بالطهر والتزكية قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ ["التوبة : ١٠٣ .]

هذا النص القرآني الشامل للفرض والنفل - وهو في الفرض أسبق للتكليف بالأخذ - يشير إلى الأثر العظيم النفسي والمالي، ففي النفس تطهيرها من الجانبين؛ جانب الغني المنفق عن أدراَن الشحِّ و رذيلة البخل ووصمة القسوة وانعدام العاطفة والكتاب البذلِّ والكرم واللين والعطف على المحتاجين والتعاطف مع المجتمع بجميع طبقاته. وجانب الأخذ من غريزة الحق ونار الحسد وما يترتب على ذلك، وتزكية المال بالنماء والزيادة، فهي عامل مشترك تطهر النفس والمال من كل رذيلة، وتزكي النفس والمال بكل فضيلة.



فإذا أخذ العبد بهذه الوسائل اتصف بصفات الربانية، ويصل العبد المرید رضا ربه إلى كونه عبداً ربانياً إذا اتصف بالعديد من الصفات وأدى ما عليه من الواجبات، ومن صفات العبد الرباني ما يأتي:

العبد الرباني قاصدٌ من كل أعماله وجه الله تعالى

فهو يجعل من ربه قصده وغايته ووجهته في كل صغيرة ظاهرة كانت أو باطنة يبتغي بها رضاه وحده، فهو كاسب لماله كما يرضي الله، وينوي بها رضا الله، وهو معاشر للناس كما يرضي الله، وهو دائم الاتصال بالله تعالى في تفكيره وما يريد.

العبد الرباني دائم الذكر لله، لا يفتر لسانه ولا يملّ

ذكر الله سبحانه، وهو بذلك شديد المراقبة له سبحانه، فلا يأتي إلا ما أمر، وينتهي عن كل ما نهى بغية إرضائه.

العبد الرباني دائم العبادة لا تنتهي طاعاته، ولا يأخذ

وقتاً للراحة في طريقه إلى ربه، وهو كثير الرغبة في الخلوات مع الله سبحانه، فيتعلق به أكثر من سائر الخلق حوله، فيفوز ولا شكّ بهداية الله ونوره الذي يميز العباد الربانيين عن سواهم.

العبد الرباني يحب الله كثيراً، فيحرص على دوام هذه

المحبة وإنماؤها، وإن من أحب الله تعالى أحب نبيه محمداً ﷺ، فيرى العبد الرباني مقتدياً بالنبي ﷺ متبعاً إياه على الدوام.

العبد الرباني محب للقرآن الكريم مقبلٌ عليه راضٍ به منهاجاً ودستوراً مسيراً لشؤون حياته.

العبد الرباني كثير التوبة، طويل العبادة راکعاً ساجداً، أمر بالمعروف ونه عن المنكر، وحافظ لحدود الله تعالى.

العبد الرباني سريع الفيء سريع التذكر

العبد الرباني: مؤمن تواب عابد حامد سائح راکع ساجد أمر بالمعروف، نه عن المنكر، حافظ لحدود الله، مؤمن.

وبعد هذا التفصيل أجمل كل هذا في نقاط سريعة لتكون مرجعاً لكل من أراد الإجابة عن هذا السؤال كيف أكون عبداً ربانياً؟

١ - أن يكون صاحب همة عالية لا يتوقف عن السير في طريقه إلى الله والتعلق به، ولا يعرف الإخلاق للراحة، فهو مجد مجتهد دوماً لا تلين له قناة.

٢ - لا يعرف الكسل له طريقاً، يظل يواصل ويواصل ويتواصل مع الله، حتى يوصله ربه إلى حالة من القرب لا يصل إلى مثلها غيره، فيصير أكثر تعلقاً بالله من غيره من الخلق.

٣ - أن يقدم حب الله تعالى وحب رسوله على كل حب، بما في ذلك النفس والوالد والولد، وحرص على ديمومة هذا الحب والاهتمام به وتفعيله وتطويره وتنميته، ولم لا وهو من جعل ربه غايته وبغيته ومقصده، متبعاً لرسوله، مقتدياً به،

٤ - يكثر من ذكر الله تعالى واستغفاره له، انشغل به ليلته ونهاره، أسحاره وأسفاره، قعوده وسيره، أكله وشربه، نكاحه وعيشه، دراسته ووظيفته فهو محافظ على الورد اليومي للأذكار الشرعية.

٥ - خطراته وسكناته وحركاته لله الرب الكريم الحنان المنان، يتكلم بكلام الله الرب، ويعمل لنيل رضا مولاه الرب.

٦ - يكثر من تلاوة القرآن الكريم وتعهدته تدبراً وفهماً وتلاوة وحفظاً وعملاً بأحكامه فهو من أحب القرآن فجعله له منهجاً ودستوراً.

٧ - هو دائم التفكير في أسماء الله تعالى وصفاته، وفي آيات الله المبتوثة في الكون وفي أحكامه الشرعية، وفي نعمه عليه وعلى عباد الله تعالى.

٨ - محافظ على الصلوات المفروضة بأدائها مستوفية أركانه وشروطها وخشوعها.

٩ - يكثر من النوافل التي تقربه من الله تعالى، سواء كانت تابعة للصلاة أو الصيام، وإحياء الليل بالذكر والقيام والدعاء والاستغفار.

١٠ - الخوف والخشية من الله تعالى واستشعار عظمتة وقدرته وعقابه، واستشعار الرقابة الذاتية في سائر الأقوال والأفعال، بما يردع عن ارتكاب المعاصي والإصرار عليها.

١١ - التأسى بالرسول صلى الله عليه وسلم والتأثر بهمم الصالحين.

١٢ - الدعوة إلى الله سبحانه بشتى السبل المتاحة، وإحياء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حدود الطاقات الممكنة والمستطاعة.

١٣ - محبة المؤمنين ومعاونتهم ونصرتهم.

١٤ - سلامة العقيدة بصحة توحيد الله في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، فيؤمن أنّ الله وحده هو الخالق، وهو وحده المستحق لكل صور العبادة، ويؤمن كذلك باتصافه سبحانه بكل صفات الكمال وتنزهه عن كل نقص.

١٥ - حسن الاعتقاد بعقيدة القضاء والقدر.

١٦ - الاكثار من التصدق في سبيل الله في حدود الطاقة

والاستطاعة.

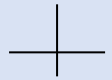
١٧ - تذكر الموت وحسن الاستعداد له. البذل والتضحية في سبيل الله.

١٨ - تعلم العلم الشرعي، والعمل به، والحذر من مخالفة القول والعمل.

١٩ - صدق النصح للمسلمين، بأن يكون خالصًا لوجه الله بعيدًا عن المصلحة والسمعة.

٢٠ - إخلاص التوكل على الله والاعتماد عليه، مع الأخذ بالأسباب اللازمة.

٢١ - موالاة المؤمنين، والتبرؤ من الكافرين وأهل الفجور والمعاصي.



١٤ - ثمار الربانية:

إن من ثمار الربانية: **أن يعرف العبد الغاية من وجوده**
 أن يعرف الإنسان أن لوجوده على هذه الأرض معنى وغاية،
 ويعرف لمسيرته وجهة، ويعرف لحياته رسالة، وبهذا يحس الإنسان
 أن لحياته قيمة، ولعيشه طعماً ومذاقاً، وأنه ليس ذرة تافهة في هذا
 الفضاء، ولا مخلوقاً سائباً يخبط خبط عشواء في ليلة ظلماء، لا
 يقول كما يقول السفهاء جئتُ لا أعلم من أين ولكني أتيتُ
 ولقد أبصرتُ قُدّامي طريقاً فمشيتُ
 وسأبقى ماشياً إن شئتُ هذا أم أبيتُ
 إلى أن قال: اني جئتُ وامضي وانا لا اعلمُ
 أنا لغزٌ، وذهابي كمجيئي طلسمُ
 والذي اوجد هذا اللغز لغزٌ مبهمُ.

فهذه الكلمات تدل بشكل واضح جداً على عدم ايمانه بحقيقة
 وجود خالق لهذا الكون ولكن العبد الرباني الذي تحلى بثمرة
 الربانية يعرف الطريق والغاية لمسيرته قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ
 أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ سورة
 المؤمنون: ١١٥ ، وقال عز من قائل: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ

يُتْرَكَ سُدَى ﴿ سورة القيامة: ٣٦، قال الإمام الشافعي رحمه الله:

والسدى الذى لا يؤمر ولا ينهى »

إن من ثمار الربانية **تحقيق السعادة والسرور**؛ فالربانيون ينعمون بحياة طيبة سعيدة ملؤها الرضا الذي يمنح قلوبهم الراحة والأمان. الفوز بالحصول على مَعِيَّةِ اللَّهِ وحفظه ورعايته وحمايته؛ فلا يخافون ولا يجزنون، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] حفظ مستقبل الأبناء وتأمينه بأن يكون على طريق التقوى والصلاح.

إن من ثمار الربانية **أنها تجعل الفرد يرى بنور الله تعالى** فيكون صاحب بصيرة .

إن من ثمار الربانية هي **تحصيل العلم النافع** الذي يثمر الحشية والخشوع والتواضع لله تعالى.

إن من ثمرات هذه الربانية وفوائدها، **أن يهتدي الإنسان إلى فطرته** التي فطره الله عليها، والتي تطلب الإيمان بالله تعالى، ولا يعوضها شيء غيره. يقول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة الروم ٣٠، واهتداء الإنسان إلى فطرته ليس كسبا رخيصا،

بل هو كسب كبير، وغنى عظيم، فيه يعيش المرء في سلام ووثام مع نفسه، ومع فطرة الوجود الكبير من حوله، فالكون كله رباني الوجهة، يسبح بحمد الله تعالى : ﴿ تَسْبِحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۚ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [سورة الإسراء: ٤٤].

إن من ثمار الربانية **إقامة هذا الدين في جميع مناهي الحياة**، وتمكينه ونصرته؛ فإذا ما أردنا أن نتلقى نصر الله علينا أن نحسن الانتساب إليه.

إن من ثمار الربانية **قوة الصلة بالله سبحانه وتعالى** في الدنيا والآخرة.

إن من ثمار الربانية **تحقيق العدل بين الأفراد كلهم**، وسلامة الصدر والتزام صاحبه بكل الأحكام الشرعية لمعرفة بصلاحتها وشمولها.

إن من ثمار الربانية **فهم شمولية هذا الدين** تقودنا إلى تطبيق أحكامه تطبيقاً كاملاً بحيث يظهر في عقيدتنا وجميع معاملاتنا.

إن من ثمار الربانية أنها **تغرس في قلب العبد الرضا**



والتسليم بحكم الله تعالى في كل شأن من شئون الدنيا والدين ولا نجاة للمرء إلا بهذا كما قال رب العالمين ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]

إن من ثمار الربانية **سلامة النفس البشرية** من التمزق والصراع الداخلي، والتوزع والانقسام بين مختلف الغايات، وشتى الاتجاهات، لقد اختصر الاسلام غايات الانسان في غاية واحدة، هي إرضاء الله تعالى، وركز همومه في هم واحد هو العمل على ما يرضيه سبحانه، ولا يريح النفس الانسانية شيء كما يريحها وحدة غايتها ووجهتها في الحياة، فتعرف من أين تبدأ، وإلى أين تسير، ومع من تسير.

إن عقيدة التوحيد قد منحت يقينا بأن لا رب إلا الله تعالى يخاف ويرجى، ولا إله إلا الله، يجتنب سخطه، ويلتمس رضاه، وبهذا أخرج المسلم كل الأرباب الزائفة من حياته، وحطم كل الأصنام المادية والمعنوية من قلبه ورضي بالله وحده ربا، عليه يتوكل وإليه ينيب، وفي فضله يطمع، ومن قوته يستمد، وله يتوكل، وإليه يحتكم، وبه يعتصم: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة آل عمران ١٠١].

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

[التغابن: ١١]

يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

ويقول علقمة بن قيس رحمه الله في هذه الآية: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى.

وقال أبو عثمان الخيري: من صح إيمانه، يهد الله قلبه لاتباع السنة.

هذه هي ثمرات الربانية التي يعيش في كنفها كل من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً.



١٥ - المعوّقات أو العوائق أو العقبات في طريق الوصول إلى الربانية:

ولا بد أن نعلم أن هناك عقبات ومُعَوِّقات في طريق الوصول إلى الربانية فعلى العبد أن يحذرهما وأن يتجنبهما وهذه المعوّقات على طريق الربانية والتي تحول دون نيل صفة الربانية، كثيرة أذكر أخطرها في طريق العبد إلى الربانية وهي:

١ - التكبر والتعالي على الخلق ورفض الحق.

فالكبر خلق من أخلاق إبليس، فمن أراد الكبر فليعلم أنه يتخلق بأخلاق الشياطين، وأنه لم يتخلق بأخلاق الملائكة المكرمين الذين أطاعوا ربهم فوقوا ساجدين.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِيٍّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [سورة ص: ٧٥].

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا﴾

[الإسراء: ٣٧] .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] .

إن الكبر سببٌ لحرمان صاحبه من الجنة ويحرم نفسه من أن ينظر رب العزة إليه كما جاء في الحديثين الآتين:

الأول: عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: ((لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً؟ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ: بَطْرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ)) رواه مسلم (٩١) .

وبطر الحق: رده بعد معرفته.

وهذا الرد لا يختص بالأمر الشرعية وردّ الشرع فقط، فقد يكون هذا الإنسان طبيباً أو مهندساً أو عاملاً، فيأتي إنسان ويقول له: هذه خطأ، أو يقول له زميله: هذه خطأ، هذا الذي فعلته خطأ، أو هذا التقرير الذي أعددته عن هذا المشروع أو هذه الدراسة فيها أخطاء، فقد يغضب ويأنف، فهذا كله من الكبر، هذا من الكبر، الذي لا يقبل الحق أيّاً كان هذا الحق، ففي

نفسه شيء من التعالي والتعاضم، فهذا بطل الحق.

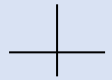
وغمط الناس: احتقارهم.

الثاني: وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلًا، لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ أَحَدَ شَقِيِّ ثَوْبِي يَسْتَرْخِي، إِلَّا أَنْ أْتَعَاهَدَ ذَلِكَ مِنْهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّكَ لَسْتَ تَصْنَعُ ذَلِكَ خِيَلًا)) . رواه البخاري. (3465)

إنَّ الله سبحانه وتعالى هو المتكبر، ولا يحقُّ لأحدٍ من عباده أن يُنازعه صفةَ الكبرياء، وقد توعدَّ سبحانه وتعالى المتكبرين والمُختالين لَمَّا اتَّصَفُوا بصفةٍ لا ينبغي أن تكونَ إلا له تعالى. وفي هذا الحديث: توعدَّ النبي ﷺ من جرَّ ثوبه خيلاءً، بأنَّ الله تعالى لن ينظرَ إليه يومَ القيامةِ

وإن إسبال الثوب تحت الكعبين على سبيل الخيلاء من المحرمات المتفق عليها عند عامة العلماء، بل هو من كبائر الذنوب.

قال النووي رحمه الله: " قَالَ الْعُلَمَاءُ: الْخِيَلُ، وَالْمَخِيلَةُ، وَالْبَطْرُ، وَالْكِبْرُ، وَالزَّهْوُ، وَالتَّبَخُّرُ، كُلُّهَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَهُوَ حَرَامٌ ". انتهى من "شرح صحيح مسلم. (14/60)"



وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ ، وقال سبحانه: ﴿ كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ ﴾ . فدم الله سبحانه وتعالى الخيلاء والمرح والبطر ، وإسبال الثوب تزيناً موجب لهذه الأمور " انتهى من "شرح عمدة الفقه" (ص: ٣٦٢).

وقسم العلماء الكبر إلى باطن وظاهر " **فالباطن** : خلق في النفس، **والظاهر** : أعمال تصدر عن الجوارح، فالأصل هو الخلق الذي في النفس، وهو الرضا إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه؛ وبه ينفصل الكبر عن العجب؛ فإن العجب لا يستدعي غير المعجب.

والكبر سمات تظهر في سلوكيات المتكبر حتى تعلو كلامه وحركاته وسكناته.. بل وطموحاته وأفكاره، وينتج عنها وضع نفسه في مكانة أعلى من الآخرين..

وقد يحاول المتكبر أن يخفي تلك الصفة الذميمة إذا انكشف بعض حاله ولكنه يقاسي في سبيل ذلك ثم إذا بصفته تلك تنكشف شيئاً فشيئاً في زلفات اللسان ومختلف المواقف.



سماته وعلاماته:

إن شر أنواع الكبر ما يمنع استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له فقد تحصل المعرفة للمتكبر ولكن لا تطاوعه نفسه على الانقياد للحق قال الله تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل: من الآية ١٤)، ومن أنواع الكبر الدعاوى والمفاخر، وتزكية النفس، وحكايات الأحوال في معنى المفاخرة للغير، والتكبر بالنسب فمن له نسب شريف يحتقر من ليس له ذلك النسب، وإن كان أرفع منه عملاً، وكذلك التكبر بالمال والولد ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ و ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ التكبر بالجمال والقوة وكثرة الأتباع ونحو ذلك ﴿أَلَيْسَ لِي مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ و ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِرَأْيِ الرَّأْيِ﴾ وفي الجملة فكل ما يمكن أن يعتقد كمالاً وإن لم يكن كمالاً في نفسه أمكن أن يتكبر به، حتى إن الفاسق ليفتخر بكثرة شربه للخمر مثلاً ولفجوره لظنه أن ذلك كمالاً.

الكبر مرض أخلاقي:

قال الله - تعالى: ﴿سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (الأعراف: من الآية ١٤٦)، وقال - سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (غافر: من الآية ٣٥)، وقال - سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (النحل: من الآية ٢٣).

وقال ﷺ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعِظْمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ " أخرجه أبو داود (٤٠٩٠)، وأحمد (٩٣٥٩) واللفظ لهما، وابن ماجه (٤١٧٤) باختلاف يسير.

الكبرياءُ والعِظْمَةُ وما يُقَارِبُهُمَا مِنَ الْمَعَانِي مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي اخْتَصَّ الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ بِهَا نَفْسَهُ عَنْ سَائِرِ الْخَلْقِ، وَهِيَ فِي حَقِّهِ سَبْحَانَهُ صِفَاتُ كَمَالٍ، وَأَمَّا فِي حَقِّ الْخَلْقِ فَهِيَ صِفَةٌ نَقْصٍ.

ووصفُ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّ الْعِظْمَةَ إِزَارُهُ وَالْكَبْرِيَاءُ رِدَائُهُ كَسَائِرِ صِفَاتِهِ؛ تُثَبَّتْ عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ سَبْحَانَهُ، وَالْوَاجِبُ الْإِيمَانُ بِهَا وَإِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ؛ دُونَ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَدُونَ تَكْيِيفٍ أَوْ تَمْثِيلٍ.



وقال صلى الله عليه وسلم: ((أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَاعَفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ. أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتْلٍ جَوَاطٍ مُسْتَكْبِرٍ)) رواه البخاري. (١)

قال سفيان بن عيينة: "من كانت معصيته في شهوة فأرجوا له التوبة فإن آدم _ عليه السلام _ عصى مشتها فغفر له، ومن كانت معصيته في كبر فاخشوا عليه اللعنة، فإن إبليس عصى مستكبرا فلعن."

والعبد المؤمن يستعذب طاعة الله تعالى وترتاح لعبادته نفسه إذا علم نفسه الخضوع والذل لله قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ووصف الصالحين من عباده، فقال: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾.

(١) أهل النار فهم كلُّ «عتلٍّ»، وهو الفظُّ الغليظُ شديدُ الخُصومة أو الفاحش، «جَوَاطٍ مُسْتَكْبِرٍ» الكثيرُ اللحمِ المختالُ في مشيته، وقيل: الفاجر، وقيل: الأكل.

الانحرافات الباطنة المرتبطة بالكبر:

كثير من الانحرافات يؤدي إليها الكبر مثل: رفض الحق، وازدراء الآخرين، وسوء الظن بهم والكذب في مدح النفس، وذكرها بما فيها وما ليس فيها، وسرعة الغضب والانتقام، وحب السيطرة، والافتخار، والرياء، والمن، ورد النصيحة، كما يخفي الكبر حيلة دفاعية؛ كإسقاط الأخطاء على الآخرين، وتبرير التصرفات وتصويبها على كل حال.

وبالجملة فما من خلق ذميم إلا وصاحب الكبر مضطر إليه ليحفظ عزه، وما من خلق حميد إلا ويتنازل عنه ليحفظ كبره، فلا يترك له هذا الكبر خلقاً من أخلاق أهل الجنة إلا جرده.

أسباب الكبر:

قد يكون الكبر ناتجاً عن شعور بالنقص أو شعور بالكمال، فهو في كلتا الحالتين ناتج عن إدراك خادع للذات، فإذا توافرت في يد الشخص الأدوات التي يعبر بها عن هذا الشعور الخادع ظهر الكبر في سلوكه.

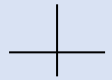
والإنسان محب لنفسه بالأصالة ساع إلى تجميل ذاته وتزينها فاهتمامه بنفسه أكثر من أي شيء آخر في العالم، والمتكبر تكمن



مشكلته في أنه يرى نفسه على إنه شيء كبير للغاية، وقد يعلم عن نفسه النقص في جانب من الجوانب، لكنه يعتز بذلك النقص إعزازا ينسيه مساوئه.

والمتكبر مصطلح مع نفسه في مواطن الفخار، وعندما يعظمه الآخرون ويوقرونه؛ إلا إنه حيث كان إهماله والتنزيل من قدره فهو متصارع مع نفسه مختل في توازنه، لذلك فأكثر المتكبرين سريعو الغضب لأنفسهم، لا يطيقون المكوث في مكان لا يعبرون عن أنفسهم فيه كما إن كثيرا من المتكبرين على علاقة سيئة بكثير من المحيطين بهم.

والأشياء التي يكون بها الكبر كثيرة، غير أن هذه الأشياء التي يكون بها التكبر، ليست هي السبب في تكبر أصحابها، فهي من نعم الله تعالى، تكون في أيدي البعض سببا للكبر، وفي أيدي آخرين مدعاة للتواضع، وهذا يعود بنا إلى تعريف الكبر وأنه إدراك خادع للذات والواقع، يلتمس الظهور بأعمال، وتسخر لأجله أدوات.



ولا شك أن التمييز بين الشعور الباطن والتصرفات الظاهرة سيوجهنا عند المعالجة حتى نعرف ماذا نعالج؟ فالذي يعالج هو ذلك الشعور الناشئ عن أفكار واعتقادات خاطئة، فإذا تعدلت الأفكار تغيرت طريقة التصرف تبعاً لها.

علاج الكبر:

علاج الكبر يبدأ أولاً بالوعي بهذا الخلق، وضرورة تعديله، ولهذا فإن أول علاج هو معرفة ضرر هذا المرض الخبيث، ثم الاستعاذة بالله **سبحانه** منه قال **سبحانه**: ﴿ **إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ** ﴾ (غافر: من الآية ٥٦). فإذا تغيرت نظرتك للمرض واتضح له حقيقته وأصبحت موازينه في الحكم عليه هي موازين الإسلام، اجتهد للتخلص منه فيأخذ حينئذ بخطوات العلاج الأخرى وهي خطوات علمية وعملية.

فالعلاج العلمي وهو استكمال لذلك الحكم العام الذي استفاده من القرآن والسنة، أن يعدل أفكاره عن نفسه، ليكون نظرة صحيحة عن الذات فهو الضعيف الفقير الذليل الذي ما



يلبث عمره أن ينتهي في أية لحظة وما يلبث أن يمرض بأصغر وأقل فيروس أو بكتيريا وما يلبث أن ينقطع جهده بأقل مجهود أو عمل!! ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (فاطر: ١٥)، قال الغزالي: "أن يعنف نفسه، ويعرف ربه _تعالى_، ويكفيه ذلك في إزالة الكبر؛ فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة، علم أنه أذل من كل ذليل، وأقل من كل قليل، وأنه لا يليق به إلا التواضع."

والكبر مرض يمكن علاجه ولكن قد فشلت فيه الأدوية البعيدة عن الإيمان إذ إنه **ينمو في بيئة الأثرة وحب الذات**، وأما العلاج الإيماني فهو النافع فيه إذ يأمر الإيمان بالحرص على مصلحة الآخرين والتواضع لهم وخفض الجناح قال الله _تعالى_: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحجر: من الآية ٨٨)، وقال _سبحانه_: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: من الآية ٥٤)، وقال ابن القيم في مدارج السالكين ص ٦١١: (لَمَّا كَانَ الذُّلُّ مِنْهُمْ ذُلًّا رَحْمَةً وَعَطْفًا وَشَفَقَةً وَإِخْبَاتًا، عَدَّاهُ بِأَدَاةٍ عَلَى تَضْمِينًا لِمَعَانِي هَذِهِ الْأَفْعَالِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَرُدَّ بِهِ ذُلُّ الْهُوَانِ الَّذِي صَاحِبُهُ ذَلِيلٌ، وَإِنَّمَا هُوَ ذُلُّ اللَّيْنِ وَالانْقِيَادِ الَّذِي صَاحِبُهُ ذَلُولٌ، فَالْمُؤْمِنُ ذَلُولٌ كَمَا فِي الْحَدِيثِ: الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الذَّلُولِ، وَالْمُنَافِقُ وَالْفَاسِقُ ذَلِيلٌ.

إن الموازين الإسلامية القائمة على التفاضل بالتقوى والعمل الصالح هي التي تمنع التكبر بالمال والنسب والعلم والجمال والقوة وغيرها؛ فعلاج الكبر يدخل في منظومة متكاملة لتربية الشخص على التعامل بموازين الإسلام في الحياة.

وهذه مهمة كل الوسائل التربوية التي تتعاون فيما بينها لإخراج الشخصية الإسلامية التي تعيش بسلوك وأخلاق الإسلام وتتعامل بموازين الإسلام.

هذا عن شعور الكبر نفسه، وأما معالجة السلوكيات فإن من علاج الكبر مقاومة مظاهره السلوكية بالمواظبة على أخلاق التواضع، والاطلاع على سير المتواضعين والتأسي بهم، كذلك صحبة أهل التواضع والفقراء ومجالسة المساكين، كذلك قد وصف العلماء للمتكبر الذي يريد معالجة نفسه أن يتصنع التواضع كعلاج لذلك.. ولمن كبرت عليه نفسه أن يكسر شوكتها.



٢ - التشدد والغلو.

لقد جاء الإسلام آمراً أتباعه بالاعتدال والاقتصاد والوسطية في كل أمر حتى ميزت هذه الأمة وخصت بذلك، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] ، وحذرنا رسول الله ﷺ من الغلو ومجاوزة الحد المشروع لنا، فقال عليه الصلاة والسلام ناهياً عن الغلو، مبيناً أنه سبب هلاك من قبلنا: ((إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوَّ فِي الدِّينِ)) رواه النسائي (٣٠٥٩) وابن ماجه (٣٠٢٩) وصححه الألباني في " صحيح النسائي : - "

إن التشدد هو التكلف والتصنع والمبالغة والتنطع والمغالاة، وهو مذموم مرفوض والتشدد في الدين، لا خير فيه أبداً، بل هو سبب للإفساد والنفور والخروج من الدين، ولهذا ورد في ذم التنطع والغلو ولذا دعى النبي بالهلاك على المنتطعين فيما جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((هَلَكَ الْمُتَنْطِعُونَ . قَالَهَا ثَلَاثًا)) رواه مسلم (2670). وللعلماء في تفسير " التنطع " و " المنتطعين " عبارات كثيرة، تتوافق ولا تتعارض، وكلها تجتمع في معنى واحد، يرجع إلى

التكلف والتشدد فيما لا ينبغي وفي غير موضعه الصحيح. ومن هذه المعاني:

١ - الغلو في العبادة والمعاملة، بحيث يؤدي إلى المشقة الزائدة، والشريعة لم تأمر إلا بما فيه يسر وسماحة، ونهت عن التشدد في الدين، وصور الغلو التي أحدثها الناس في الدين وعدّها العلماء من التنطع لا تكاد تحصى بعدد.

٢ - الابتداع في الدين، بتحريم ما لم يجرمه الله ورسوله، واستحداث صور من العبادات والإلزامات لم تكن على عهد النبي ﷺ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - كما في "مجموع الفتاوى:- (10/620) "

"الرهبانيات والعبادات المبتدعة التي لم يشرعها الله ورسوله من جنس تحريمات المشركين وغيرهم ما أحل الله من الطيبات ، ومثل التعمق والتنطع الذي ذمه النبي ﷺ حيث قال : (هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ) ، وقال : (لو مد لي الشهر لوصلت وصالا يدع المتعمقون تعمقهم) مثل الجوع أو العطش المفرط الذي يضر العقل والجسم ، ويمنع أداء واجبات أو مستحبات أنفع منه،



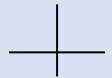
وكذلك الاحتفاء والعري والمشى الذي يضر الإنسان بلا فائدة، مثل حديث أبي إسرائيل : ((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا قَائِمًا فِي الشَّمْسِ فَقَالَ : مَا بَالُ هَذَا ؟ فَقَالُوا : نَذَرَ أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ، وَلَا يَسْتَتِلَ مِنَ الشَّمْسِ، وَلَا يَجْلِسَ، وَيَصُومَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مُرُوهُ فَلْيَتَكَلَّمْ، وَلْيَسْتَتِلْ، وَلْيَجْلِسْ وَلْيَتِمَّ صِيَامَهُ)) رواه البخاري. وهذا باب واسع " انتهى.

٣ - التقعر في الكلام، والتشدد باللسان، بتكلف الكلمات التي تميل قلوب الناس إليه، حيث لا معنى ولا مضمون، ولا فائدة ترجى من تشدقه وتقعره.

فقد أورد ابن أبي الدنيا هذا الحديث في رسالة " الغيبة والنميمة " في باب " ما جاء في ذم التقعر في الكلام " (ص/١٥) وروى فيه عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلِّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ)).

رواه أيضا أحمد في "المسند" (٢٢/١) وحسنه محققو المسند. وروى فيه أيضا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إن شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان).

قال ابن الأثير في "النهاية": (5/164) "



"الْمُتَنَطِّعُونَ: هم الْمُتَعَمِّقُونَ الْمُغَالُونَ فِي الْكَلَامِ ، الْمُتَكَلِّمُونَ بِأَفْصَى حُلُوقِهِمْ . مَاخُودٌ مِنَ النَّطْعِ ، وَهُوَ الْغَارُ الْأَعْلَى مِنَ الْقَمِ ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ فِي كُلِّ تَعَمُّقٍ قَوْلًا وَفِعْلًا " انتهى.

٤ - الخوض فيما لا يعني، والسؤال عما لا ينبغي، وتكلف البحث فيما لا يعني.
قال الخطابي:

"المتنطع: المتعمق في الشيء ، المتكلف للبحث عنه على مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يعينهم ، الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم " انتهى. نقلا عن " عون المعبود(12/235) " ويقول ابن رجب في "جامع العلوم والحكم" (ص/٢٨٥):
"المتنطع: هو المتعمق، البحاث عما لا يعنيه؛ فإن كثرة البحث والسؤال عن حكم ما لم يذكر في الواجبات ولا في المحرمات، قد يوجب اعتقاد تحريمه، أو إيجابه لمشابهته لبعض الواجبات أو المحرمات، فقبول العافية فيه، وترك البحث عنه والسؤال خير " انتهى بتصرف.

ثم ذكر ابن رجب رحمه الله أمثلة لما ينبغي تجنب البحث فيه من تفاصيل أمور الغيب المجهولة والفروق الفقهية المتكلفة، والتفريع على المسائل التي يندر وقوعها، ونحوها.



ومن ذلك أيضاً ما يفعله بعض المتشددين في الوضوء، حيث تجده مثلاً يتوضأ ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً أو سبعاً أو أكثر، وهو في عافية من ذلك. أيضاً في الاغتسال من الجنابة، تجده يتعب تعباً عظيماً عند الاغتسال، في إدخال الماء في أذنيه، وفي إدخال الماء في منخريه.

وكل هذا داخل في قول الرسول ﷺ: (هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ .. هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ .. هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ .)

فكل من شدد على نفسه في أمر قد وسع الله له فيه فإنه يدخل في هذا الحديث .

قال ابن القيم رحمه الله : "نهى النبي ﷺ عن التشديد في الدين بالزيادة على المشروع، وأخبر ﷺ أن تشديد العبد، على نفسه هو السبب لتشديد الله عليه إما بالقدر وإما بالشرع. فالتشديد بالشرع: كما يُشَدِّد على نفسه بالنذر الثقيل، فيلزمه الوفاء به، وبالقدر كفعل أهل الوسواس. فإنهم شددوا على أنفسهم فشدد عليهم القدر، حتى استحکم ذلك، وصار صفةً لازمةً لهم" (إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان؛ لابن القيم [1/132]:).

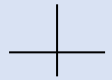
وروى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ((إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينُ إِلَّا غَلْبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا

وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّجَةِ)).
 فهذا الحديث يحث على الاقتصاد في العبادة وعدم الغلو وعدم
 التكلف وأن المشروع للمؤمن أن يصلي ويتعبد نشاطه ولا
 يتكلف ولا يضر نفسه ولا يغلو لا في الصلاة ولا في غيرها يقول
 جل وعلا: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ
 الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦] ويقول جل وعلا: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا
 اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦].

ونقل ابن حجر في شرحه للحديث في فتح الباري: عن بريدة
 قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم هدياً قاصداً، فإنه من
 يشاد هذا الدين يغلبه» (قال ابن حجر: رواهما أحمد، وإسناد
 كل منهما حسن). "قوله: «ولن يُشاد الدين إلا غلبه» هكذا
 في روايتنا بإضمار الفاعل، وثبت في رواية ابن السكن وفي بعض
 الروايات عن الأصيلي بلفظ: «ولن يُشاد الدين أحد إلا
 غلبه»، وكذا هو في طرق هذا الحديث عند الإسماعيلي وأبي نعيم
 وابن حبان وغيرهم، والدين منصوب على المفعولية وكذا في روايتنا
 أيضاً، وأضمر الفاعل للعلم به، وحكى صاحب المطالع أن أكثر
 الروايات برفع الدين على أن يُشاد مبني لما لم يُسمَّ فاعله،
 وعارضه النووي بأن أكثر الروايات بالنصب، ويجمع بين كلاميهما
 بأنه بالنسبة إلى روايات المغاربة والمشاركة، ويؤيد النصب لفظ

حديث بريدة عند أحمد: «إنه من شاد هذا الدين يغلبه» ذكره في حديث آخر يصلح أن يكون هو سبب حديث الباب. والمشادة بالتشديد المغالبة، يقال: شَادَهُ يُشَادُهُ مُشَادَةً إِذَا قَاوَاهُ، والمعنى: لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب". قال ابن المنير: "في هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطع في الدين ينقطع، وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة فإنه من الأمور المحمودة..

بل منع الإفراط المؤدي إلى الملل، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته كمن بات يُصلي الليل كله ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل فنام عن صلاة الصبح في الجماعة، أو إلى أن خرج الوقت المختار، أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة، وفي حديث محجن بن الأدرع عند أحمد: «إنكم لن تنالوا هذا الأمر بالمغالبة، وخير دينكم اليُسرة» وقد يستفاد من هذا الإشارة إلى الأخذ بالرخصة الشرعية، فإن الأخذ بالعزيمة في موضع الرخصة تنطع، كمن يترك التيمم عند العجز عن استعمال الماء فيفضي به استعماله إلى حصول الضرر.



ثم إن التشدد مخالف للفطرة الإنسانية ومناقض لقاعدة أساسية في الإسلام وهي أن الأصل في الأشياء والأفعال والتصرفات الإباحة، بينما التشدد ينطلق من قاعدة الأصل في الأشياء الحظر والحرمة.

والملاحظ في أمر التشدد مظاهر أربعة هي:

١- إن التشدد آفة المجتمعات الإسلامية قديماً متمثلاً في **الخوارج (١) وفهمهم المغلوط للدين**، وحديثاً في **الجماعات المتشددة**، (٢) غير أن تأثير التشدد قديماً كان محدوداً والفتنة

(١) ولا زال للخوارج اليوم ذبولٌ يتبنون بعض أقوالهم وفعالهم، بل وفاقوهم في الإجماع بحق الإسلام والمسلمين، وجرّ ذلك فتناً صعبة وآثاراً وخيمة لا طاقة للمسلمين اليوم بها، ومنها:

تدخل الدول الصليبية ودول الكفر في شئون المسلمين، وبروز طاوور خامس في الأمة ينادي بتجفيف منابع الغلو والتطرف، وهي كلمة حق أريد بها باطل، حيث يريدون من وراء ذلك وأد الصحوة الإسلامية والحيلولة بين الدعاة وقيادة الشباب، وإزهاق أرواح، وإتلاف أموال ضخمة كان من المفترض أن توجه لنصرة المستضعفين، ناهيك عن تشويه صورة الإسلام والصّدِّ عنه.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(٢) والناظر لأقوال الفرق المتشددة والمبتدعة التي فرقت الأمة بذلك يجدها خرجت بسبب الغلو والتقصير، فالمعطلة غلوا في التنزيه وقصروا في الإثبات،

كانت محصورة، بعكس ما هو ظاهر الآن من انتشار موجات التطرف في المجتمعات الإسلامية وبخاصة بين الشباب، حتى ليصل في بعض المجتمعات إلى صدام دموي بين الجماعات نفسها، وكذلك بينها وبين الأنظمة.

ومن تلك المآسي تكفير المسلمين بل وتكفير علماءهم وساداتهم، واشتد غلو بعض فرقهم إلى أن قالوا باستباحة قتل نساء مخالفينهم وقتل أطفالهم.

وفي الصواعق المرسلة يقول ابن القيم رحمه الله: "وقوع الاختلاف بين الناس أمرٌ ضروري لا بد منه، لتفاوت إرادتهم وأفهامهم وقوى إدراكهم، ولكن المذموم بغى بعضهم على بعض

والمشبهة غلوا في الإثبات وقصروا في التنزيه، وكلاهما أخذ ببعض النصوص وترك بعضا، والحق في الاعتدال والجمع بين النصوص.

أما الخوارج فغلوا في إثبات الأعمال وعدها من الإيمان حتى كفروا المسلمين بمجرد المعصية، وقابلهم المرجئة فغلوا حتى أخرجوا العمل من الإيمان. فكان الغلو في ردود الأفعال سببا لأن ترد البدعة ببدعة والباطل بباطل. وأكبر مثال على أثر هذه الفرقة والاختلاف والتشدد والغلو ما حصل في أفغانستان بين الأحزاب المختلفة بعد سقوط كابول ودخول المجاهدين، ولكنهم ضيعوها بسبب ما حدث بينهم من نزاع خطير أدى إلى قيام حرب حقيقية بينهم، والتراشق بآلاف الصواريخ، ومقتل آلاف الناس، كل ذلك بسبب السعي إلى الزعامة والتفرد، والمطامع الدنيوية، وهذا هو الذي أضاع المشروع الإسلامي الذي كان ينتظره مئات الملايين من المسلمين، وضحوا في سبيله بالغالي والنفيس على مدار اثنتي عشرة سنة أو أكثر من عمر الجهاد، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وعدوانه، وإلا فإذا كان الاختلاف على وجه لا يؤدي إلى التباين والتحزب، وكلُّ المتحزبين كان قصده طاعة الله ورسوله لم يضر ذلك الاختلاف فإنه أمرٌ لا بد منه في النشأة الإنسانية."

٢- إن التشدد لو كان محصوراً على ثوابت الدين وأحكامه الأساسية وقضايا المجتمع الرئيسية في الحرية والعدالة والشورى، وفي التنمية والتحرر، لكان أمراً محموداً ومطلوباً، أما أن يكون التشدد في الفرعيات والخلافيات والتوسع في الحظر والتحريم وشغل الناس بأمور جانبية وإثارة المعارك حول الخلافيات وعليها يكون الولاء والبراء والحب والبغض، كتحريك الأصبغ في الصلاة، وقراءة البسملة (١)، ووضع اليد على الصدر بعد

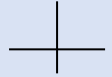
(١) قال ابن تيمية رحمه الله: "فأما صفة الصلاة: ومن شعائرها مسألة البسملة؛ فإن الناس اضطربوا فيها نفيًا وإثباتًا: في كونها آية من القرآن، وفي قراءتها، وصنفت من الطرفين مصنفات يظهر في بعض كلامها نوع جهل وظلم مع أن الخطب فيها يسير. وأما التعصب لهذه المسائل ونحوها فمن شعائر الفرقة والاختلاف الذي نهينا عنها إذ الداعي لذلك هو ترجيح الشعائر المتفرقة بين الأمة وإلا فهذه المسائل من أخف مسائل الخلاف جدا لولا ما يدعو إليه الشيطان من إظهار شعار الفرقة" ... ثم قال: ويستحب للرجل أن يقصد إلى تأليف القلوب بترك هذه المستحبات، لأن مصلحة التأليف في الدين أعظم من مصلحة فعل مثل هذا، كما ترك النبي ﷺ تغيير بناء البيت، لما في إبقائه من تأليف القلوب، وكما أنكر ابن مسعود على عثمان إتمام الصلاة في السفر، ثم صلى خلفه متما، وقال: **الخلاف شر**".

مجموع الفتاوى. (22/405-4079).

الرفع من الركوع، وحرمة التصوير الفوتغرافي وإقرانه بصناعة التماثيل، وعمل المرأة في المجتمع ووضعها الاجتماعي، وعدد ركعات صلاة التراويح؛ فهذا غير مقبول في الإسلام، لأنه يصرف الجهود في قضايا فرعية بدلاً من توجيهها لبناء المجتمع القوي المنتج.

لقد اختلف الصدر الأول رضي الله عنهم في المسائل الفقهية والخلافات الفرعية المذهبية، ولكن لم يتركوا الوئام، وتنوعت أفهامهم وفتاواهم وما تفرقت منهم القلوب وما مسهم من الخلاف سقام، وكان كل من كبارهم يمثل اتجاهاً في الاستنباط والتفكير تحوّل فيما بعد إلى مدرسة لها أتباع وتنظير، فابن عباس له اتجاه، وابن عمر له مسلك آخر، وابن مسعود له طريق ثالثة، وغيرهم رضي الله عنهم سلك مسالك أخرى، ولم يعب واحد منهم الآخر، ورضي كل بما قُسم له من الفهم والاستنباط، وهذا هو المسلك الحميد والرأي السديد، لأنهم يعلمون أنهم يرجعون إلى أصل واحد، ويستمسكون بعروة وثيقة.

٣- إن التشدد ولو كان مقصوراً على أهله دون أن يتجاوز ذلك إلى فرضه على الآخرين لما كان الأمر مثاراً للاعتراض، بل



قد يُحمل في بعض الحالات على باب الورع، وأما أن يستخدم أهل التشدد سلطتهم ونفوذهم لفرض رأيهم دون اعتبار للآخرين، بل يتجاوزون إلى التشكيك في عقائد المخالفين لهم والتفتيش في ضمائرهم، بل يصل عند البعض إلى استعداء الحكام عليهم، واتهامهم بالتآمر والتكفير، والتبديع والفسق؛ فهذا خروج عن المنهج الحق.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله في الفتاوى " :وبلاد الشرق: من أسباب تسليط الله التترَ عليها كثرة التفرقِ والفتن بينهم في المذاهب وغيرها..

٤- وكذلك مما يلاحظ في سلوك المتشددين أن الأقوال تناقض السلوكيات والأفعال، مخالفة لتعاليم الإسلام، فتجد عندهم الغلظة والصلافة والتجهم في تعاملهم مع الآخرين، الذين اختلفوا معهم في بعض المسائل سواء في الفقه أو العقيدة، وتجدهم في مواطن الإنتاج والعمل وحقوق الناس متساهلين مفرطين ولم يعلموا أن الصحابة رضوان الله عليهم اختلفوا في بعض مسائل العقيدة، مع بقاء الجماعة والألفة :كسماع الميث صوت الحبي، وتعذيب الميث بكاء أهله، ورؤية محمد ﷺ ربّه.

ومع هذا ما عاب بعضهم على بعض، وما استبعده ولا أقصاه، ولم يقولوا لكم رب ولنا رب، وأنتم شعب ونحن شعب، وإنما قدّموا النصح في جوٍّ من الألفة ليحافظوا على الاجتماع. هكذا كان سلف الأمة، وهكذا كان كثيرٌ ممن تبعهم بإحسان. وفي سير أعلام النبلاء في سيرة الإمام الشافعي رحمه الله: عن يونس الصديقي، قال:

"ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي، ثم قال يا أبا موسى: ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة."

وفي إثر الخلاف العقدي الذي حصل في عصر الإمام الذهبي يذكر رحمه الله نصاً ثميناً ما أحوجنا إليه اليوم، ويبين فيه آثار الافتراق السيئة كما يذكر العلاج الناجح الواجب:

"ينبغي للمسلم أن يستعيد من الفتن، ولا يشغب بذكر غريب المذاهب لا في الأصول ولا في الفروع، فما رأيت الحركة في ذلك تحصل خيراً، بل تثيرُ شراً وعداوةً ومقتناً للصلحاء والعباد من الفريقين، فتمسك بالسنّة، والزم الصمت، ولا تخض فيما لا يعينك، وما أشكل عليك فردّه إلى الله ورسوله، وقف وقل: الله ورسوله أعلم"

والتشدد أسباب وعوامل مساعدة هي:

١- إن معظم المتشددين يتمتعون بعاطفة دينية طاغية، وإن وعيهم محدود وثقافتهم الدينية ضحلة، هي ثقافة قشرية ومظهرية، بسبب النشأة التعليمية التي حرمتهم من تعلم التربية الإسلامية؛ فلم يتلقوا فقها صحيحاً ولا معرفة بأمور الدين، ومعظمهم لم يدرس دراسة شرعية، وزادهم العلمي الثقافي مستمد من مصادر ضعيفة مشبوهة، وضعها أناس غير متخصصين، ومعظمها لا قيمة علمية لها، ومشكلة هؤلاء لم يجدوا من ينشئهم تنشئة دينية صحيحة فأصيبوا بقلّة الفهم والعقل.

٢- إن من بين هؤلاء من يتخذ من التشدد وسيلة للبروز الاجتماعي وطلباً للشهرة والزعامة وتحقيقاً لمصالح عاجلة، وهو غير مؤهل علمياً وثقافياً.

٣- عدم كفاية التحصين الديني والفكري والثقافي في البيت والمجتمع والمدرسة والجامعة، وهذا يدعونا إلى إعادة النظر في مناهج التعليم والتربية والبرامج الإعلامية والقنوات الفضائية



ووسائل التواصل الاجتماعية فإن التنشئة الاجتماعية الأولى عندنا لا تعطي الحرية الكافية للطفل للحوار، ولا التربية على احترام الرأي الآخر؛ فأين مسؤولية البيت والمدرسة والجامعة من الاهتمام بالتحصيل الديني والفكري والثقافي للشباب بتشجيع الحوار والمناقشة واحترام الرأي الآخر والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وإشاعة الروح العقلانية بهدف تكوين العقلية الواعية الناقدة.

٤- وجود الفراغ الثقافي والسياسي والاجتماعي في أوساط الشباب نتيجة عدم تنشيط وتشجيع الحوار الحر، وتوجيه الشباب نحو الانشغال بقضايا البناء والتنمية مما أدى إلى لجؤهم إلى خيار العمل المسلح بدلاً عن العمل الدعوي من جهة، والمبالغة في العمل السياسي من جهة ثانية، ولا يمكن لمنصف أن ينكر أن الخيارين أصبحا من القواصم المهلكة في ساحة النشاط الإسلامي، أمّا ما عمدت إليه بعض الفصائل المنتسبة للإسلام من حمل للسلاح في وجه المجتمع المحلي والدولي معاً فهو نقيض العمل الدعوي بدهاءة لأنّ الدعوة قائمة على الرفق في الخطاب والمعاملة الحسنة، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ سورة آل عمران

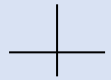
١٥٩، وقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۗ وَجَادِهِمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ سورة النحل ١٢٥، فيخرج من مجال الدعوة تكفير المسلمين وشهر السلاح في وجوههم، وقد انخرط في هذه الفصائل شباب كان يمكن أن يكونوا من الدعاة الهداة لكنهم اختاروا أن يكونوا قضاة يُصدرون الأحكام وجنوداً ينفذونها بغير سلطان من الله مبين، فخرتهم الدعوة مرتين: مرة عندما برحوا ثغورا يؤتى منها الإسلام، وثانية حين انقلبوا إلى معول يهدم المجتمع بفتاوى التكفير وسفك الدماء بمجرد الشبهة.

٥- التقصير الواضح في إسهامات الكفاءات الدينية والوسائل الإعلامية والعلمية والفكرية والثقافية في المجتمعات الإسلامية في ملء الساحة العريضة وانسحابها من الميدان وتركه للمخرفين والمشككين والمخربين والمبتدعين.

٦- ظهور بعض الدعاة غير المؤهلين للتوجيه والإرشاد، نتيجة لضعف الحصيلة الثقافية والعلمية التي تم تزويدهم بها، فلا تسمع منهم إلا حديثاً مكرراً، أو حديثاً موضوعاً أو مكذوباً، أو

يتكلمون كلاماً بعيداً عن اهتمامات الناس وهمومهم فهم في واد والناس في واد آخر..

٧- كثرة الأمراض النفسية التي أصيب بها الشباب، لفقدهم الجرعات الدينية التي تعرفهم بتعاليم الإسلام ومبادئه وقيمه، والقائمة على العدل والوسطية دون غلو أهل التشدد ولا تفريط غيرهم؛ فهذه هي إفرازات مجتمعاتنا المحبطة والمقهورة سياسياً وثقافياً واجتماعياً، تشكل نوعاً من الاضطراب الديني، وتمثل نوعاً من ردود الفعل المرضية تجاه المتغيرات المعاصرة والرغبة في التغيير قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١] .



٣ - الإخلاق إلى شهوات الدنيا وملذاتها.

فإننا نعيش في عصر كثرت فيه الفتن والمغريات.. وتحكمت فيه الغرائز والملهيات.. وتنوعت فيه وسائل الإغراء والشهوات.. وتكاثرت فيه الخطايا والموبقات ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

فرضخ أكثر الناس لهذا الواقع الأليم.. واتبعوا أهوائهم.. وقادتهم شهواتهم إلى مقاتلهم، وأعمتهم عن مصالحهم وما فيه سعادتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة. ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

مضى هؤلاء يحتسون كؤوس اللذة من أي مصدر كان.. ويؤمّون قوافل الهوى أنى اتجهت ركائبها.

وهم يعتمدون في ذلك إما على رجاء كاذب، أو أمل بعيد لا ينتهي، أو تحيط بهم غفلة تامة لا أمل في إفاقتهم منها.

أما العقلاء من أهل الإيمان والصلاح فإنهم نظروا إلى عواقب الأمور، ولم تشغلهم البدايات عن الغايات والنهايات، فجعلوا الصبر في الدنيا مركبهم.. والعفاف قائدهم.. والتقوى شعارهم..



فتحملوا مرارة الصبر في الدنيا علماً منهم بحسن الجزاء في الآخرة.. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].

وهؤلاء - في الحقيقة - لم يخسروا شيئاً من الدنيا.. أما الشهوات فقد نالوها من وجوها المباحة.. فتحكموا في أنفسهم وخطموها وزموها.. ولم يجعلوها تقودهم إلى مصارعهم كما فعل الأولون.. لعلمهم أن الصبر في الدنيا عن معصية الله أهون من الخزي والخسران والضياع يوم القيامة.

عواقب الشهوات

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: (الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجهه الشهوة..)

* فإنها إما أن توجب ألماً وعقوبة.

* وإما أن تقطع لذة أكبر منها.

* وإما أن تضيّع وقتاً إضاعته حسرة وندامة.

* وإما أن تثلم عرضاً توفيره أنفع للعبد من ثلمه.

* وإما أن تذهب مالاً بقاءه خير له من ذهابه.

* وإما أن تضع قدراً وجاهاً قيامه خير من وضعه.

* وإما أن تسلب نعمة بقاءها ألدّ من قضاء الشهوة.

- * وإما أن تطرق لوضع إليك طريقاً لم يكن يجدها قبل ذلك.
- * وإما أن تجلب همّاً وغمّاً وحزناً وخوفاً لا يقارب الشهوة.
- * وإما أن تنسي علماً ذكره ألدّ من نيل الشهوة.
- * وإما أن تشمت عدوّاً وتحزن ولياً.
- * وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة.
- * وإما أن تحدث عيباً يبقى صفةً لا تزول؛ فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق.

فكم هي عواقب إتباع الشهوات وخيمة، فلماذا يؤثر الناس لذة ساعة على نعيم الأبد؟ ولماذا يقبلون على المعاصي والمحرمات إقبال الأسد على فريسته وكأن لسان حالهم يقول: لذات الدنيا نقد.. ونعيم الآخرة نسيئة، ولا نترك نقداً لنسيئة.. ولا يقول ذلك إلا شاك لم يستقر الإيمان في قلبه. وهؤلاء أشر من الذي تغلبهم شهواتهم دون أن يكون لهم تأويلات باطلة..

أخذ الحرام من جهتين:

فما أخذ المرء ما حرم عليه إلا من وجهين:
أحدهما: سوء ظنه بربه، وأنه لو أطاعه وآثره لم يُعطه خيراً منه حلالاً.

والثانية: أن يكون عالماً بذلك، وأن من ترك شيئاً لله



عوضه الله خيراً منه، ولكن تغلب شهوته صبره، وهواه عقله. فالأول من ضعف علمه.. والثاني من ضعف عقله وبصيرته. [ابن القيم في الفوائد].

وعلاج هذا الضعف يكون بالعمل النافع والعمل الصالح، وجهاد النفس الذي هو أشد من جهاد الأعداء.

قال ابن المبارك في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٨٧] قال: هو جهاد النفس والهوى.

وإذا كان متبع الشهوات يعتمد على جانب العفو والمغفرة وينسى جانب العقوبة، فإن العاقل ينظر إلى عظمة من عصي، يبادر بالتوبة والإنابة، ويضع نصب عينيه قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا يَّجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

فيحجزه ذلك عن كثرة العصيان.. ويمنعه من التعرض لحمى القوي المنان.. وانتهاك محارمه.. قال ﷺ: [أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمِّي، أَلَا وَإِنَّ حِمِّيَ اللَّهِ مَحَارِمُهُ]. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

قال ابن الجوزي: وقد تبغت العقوبات. وقد يؤخرها الحلم.. والعاقل من إذا فعل خطيئة بادرها بالتوبة.. فكم مغرورٍ بامهال العصاة لم يمهل!

وقد تتأخر العقوبة، وتأتي في آخر العمر؛ فيا طول التعثر مع

كبر السنّ لذنوب كانت في الشباب.
فالحذر الحذر من عواقب الخطايا.. والبدار البدار إلى محوها
بالإنابة، فلها تأثيرات قبيحة إن أسرع، وإلا اجتمعت وجاءت.

جهل أصحاب الشهوات

إن الانشغال باللذائد والشهوات دليل على خفة العقل
وضعف البصيرة.

قال ابن الجوزي: أشد الناس جهلاً منهوم باللذات، واللذات
على ضربين: مباحة ومحظورة. فالمباحة لا يكاد يحصل منها شيء
إلا بضياح ما هو مهم من الدين، فإذا حصلت منها حبةٌ، قارنها
قنطار من الهمم.. ثم لا تكاد تصفو في نفسها، بل مكدراتها
ألوفٌ.. فهي تغرُّ الغمر، وتهدم العمر، وتديم الأسي.. ومع ذلك
فالمنهوم كلما عبّ من لذةٍ طلب أختها، فلا يزال كذلك إلى أن
يختطف بالموت، فيلقى على بساط ندم لا يُستدرك.

فالعجب ممن همته هكذا مع قصر العمر، ثم لا يهتم بأخرته التي
لذتها سليمة من كل شائب، منزهة عن كل عائب، دائمة الأمد،
باقية ببقاء الأبد!! وإنما يحصل تقريب هذه بإبعاد تلك، وعمران
هذه بتخريب تلك.

فواعجباً لعاقل حصيف حسن التدبير، فاته النظر في هذه



الأحوال، وغفل عن التمييز بين هذين الأمرين.
 وإن كانت اللذة معصية انضم إلى ما ذكرناه: عار الدنيا
 والفضيحة بين الخلق، وعقوبة الحدود، وعقاب الآخرة، وغضب
 الحق سبحانه.

بالله إن المباحات تشغل عن تحصيل الفضائل، فدم ذلك لبيان
 الحزم؛ فكيف بالمحرمات التي هي غاية الرذائل!؟

الإسلام دين الوسطية:

إن الإسلام دين الوسطية والاعتدال والقصد في كل الأمور..
 ولذلك فإنه لم يحرم على الناس الشهوات مطلقاً كما فعلت
 الرهبانية باتباعها.. ولم يطلق لهم عنان الشهوات مطلقاً كما فعلت
 الحضارة المادية الإباحية، ومن ينظر اليوم في أحوال العالم المعاصر
 وما يعانيه من أزمات أخلاقية ليدرك عظمة الإسلام وبديع نظامه
 الذي هو كفيل بإصلاح البشرية وإخراجها من أزماتها في كل زمان
 ومكان.

عواقب أخرى للشهوات:

إن عواقب الشهوات لا تقتصر على العواقب الأخروية
 فحسب، بل هناك عقوبات يصطلي بنارها أهل الشهوات في
 الدنيا قبل أن يصطلوا بنار الآخرة.. ومن ذلك:

١- الطواعين العامة والأمراض الفتاكة التي يسلمها الله على أهل الشهوات، ومن أشهر هذه الطواعين والأمراض: مرض الإيدز الذي يفتك كل عام بملايين البشر، والذي يصيب شخصاً كل أربعة دقائق في العالم .

٢- الموت العام الذي يسلمه الله على الناس لعلهم يرجعون عن غيهم ويعودون إلى رشدهم، وقد كثر الموت العام في هذه العصور المتأخرة وتنوعت أسبابه من زلازل وفيضانات وانهيارات أرضية وتغيرات مناخية وجفاف وغير ذلك. ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

٣- كثرة الحروب وما ينتج عنها من ضحايا يعدون بالملايين.

٤- تفكك عرى الحياة الزوجية بسبب الخيانات الزوجية وانفلات كل من الزوجين، وانشغال كل منهما بإشباع غريزته التي تزداد يوماً بعد يوم قوة وسعاً.

٥- ضياع الأبناء بسبب عدم تحمل الآباء مسؤولية تربية أبنائهم، بل إن كثير من الآباء في العالم الغربي من يطرد ابنته من البيت ويطلبها بالإنفاق على نفسها ولو عن طريق امتهان البغاء وممارسة الرذيلة.



٦ - تزايد جماعات الشواذ والاعتراف بحقوقهم حتى صار الزواج بين المثليين - الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة - أمراً شائعاً لا غرابة فيه!! وهذا - بلا - شك يهدد بفناء الجنس البشري، ويدمر العلاقات الإنسانية بين بني البشر.

النجاة في الصبر والتقوى

فاحذروا لجة بحر الشهوات، ولا تغتروا بسكونه، وعليكم بالساحل، ولازموا حصن التقوى، فالعقوبة مُرّة.

واعلموا أن في ملازمة التقوى مرارات من فقد الأغراض والمشتهيات، غير أنها في ضرب المثل كالحمية تعقب صحة، والتخليط ربما جلب موت الفجأة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "قال قتادة: خلق الله سبحانه الملائكة عقولاً بلا شهوات، وخلق البهائم شهوات بلا عقول، وخلق الإنسان وجعل له عقلاً وشهوة، فمن غلب عقله شهوته فهو مع الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو كالبهائم" (عدة الصابرين؛ ج ١، ص [15] :).

الفائدة من هذا الكلام في تركيب الشهوة، أنه لا بد من وقوع آثارها. قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "الحكمة الإلهية اقتضت

تركيب الشهوة والغضب في الإنسان... فلا بد من وقوع الذنب والمخالفات والمعاصي، فلا بد من ترتب آثار هاتين القوتين عليهما ولو لم يُخلقا في الإنسان لم يكن إنساناً بل كان ملكاً، فالترتب من موجبات الإنسانية كما قال النبي ﷺ: ((كلُّ بني آدمَ خطَّاءٌ وخيرُ الخطَّائين التوابون)) (مفتاح دار السعادة؛ ج ١، ص [297]:).

الحكمة من تركيب الشهوة في الإنسان:

ذكر أهل العلم عدة حِكَمٍ لتركيب الشهوة في الإنسان، منها:

أ- التكاثر والحفاظ على النسل قال ابن القيم رحمه الله تعالى في آدم وحواء: "ثم لما أراد الله سبحانه أن يذرّ نسلهما في الأرض، ويكثره؛ وضع فيهما حرارة الشهوة، ونار الشوق والطلب، وألهم كلاً منهما اجتماعه بصاحبه، فاجتمعا على أمر قد قُدر" (التبيان في أقسام القرآن؛ ج ١، ص [205]:).

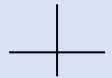
ب- الابتلاء والامتحان قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "فلم تقوَ عقول الأكثرين على إثارة الآجل المنتظر بعد زوال الدنيا على هذا العاجل الحاضر المشاهد، وقالوا: كيف يباع نقد حاضر



وهو قبض باليد بنسيئة مؤخرة وُعدنا بحصولها بعد طي الدنيا وخراب العالم، ولسان حال أكثرهم يقول: خذ ما تراه، ودع شيئاً سمعت به. فساعد التوفيق الإلهي من عِلْمٍ أنه يصلح لمواقع فضله فأمدته بقوة إيمان، وبصيرة رأي؛ في ضوئها حقيقة الآخرة ودوامها، وحقيقة الدنيا، وسرعة انقضائها" (شفاء العليل؛ ج ١، ص : [265]).

ولهذا سئل عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أيما أفضل؟ رجل لم تخطر له الشهوات، ولم تمرّ بباله، أو رجل نازعته إليها نفسه فتركها لله؟ فكتب عمر رضي الله عنه: "إن الذي تشتهي نفسه المعاصي، ويتركها لله عز وجل من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم" (الفوائد؛ ج ١، ص [110]:).

ج- الإقبال على الله والانكسار بين يديه فإن وقوع العبد في آثار الشهوة من الذنوب من أسباب التوبة والندم، والانكسار والذل لله تعالى. وقال أيضاً: "العبد قد بُلي بالغفلة والشهوة والغضب، ودخول الشيطان على العبد من هذه الأبواب الثلاثة، فإذا أراد الله بعبده خيراً فتح له من أبواب التوبة والندم، والانكسار والذل، والافتقار والاستعانة به، وصدق اللجأ إليه،



ودوام التضرُّع والدعاء، والتقربُ إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به رحمة، حتى يقول عدو الله: يا ليتني تركته ولم أوقعه، وهذا معنى قول بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب يدخلُ به الجنة، ويعمل الحسنة يدخلُ بها النار، قالوا: كيف؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نُصب عينيه منه مشفقًا وجلًّا، باكيًا نادمًا، مستحيًّا من ربه تعالى ناكس الرأس بين يديه، منكسر القلب له؛ فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه، حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة، ويفعل الحسنة فلا يزال يَمُنُّ بها على ربه، ويتكبرُ بها، ويرى نفسه ويُعجب بها، ويستطيل بها، ويقول: فعلتُ وفعلتُ، فيورثه من العُجب والكِبَر، والفخر والاستطالة؛ ما يكون سبب هلاكه" (الوابل الصيب؛ ج ١، ص [14] :).

د- التشويق إلى ثواب الآخرة، والرغبة فيه لأنه أكمل من شهوات الدنيا؛ فإن الإنسان إذا أدرك شيئًا من لذات الدنيا قاس عليه من باب أولى اللذة التامة في الآخرة، فيعظم طلبه لها.



من أنواع الشهوة:

تُطلق الشهوة على المصدر أي الفعل، كما تُطلق على الأمر المشتبه وهو المفعول؛ قال ابن تيمية: "الشهوات جمع شهوة، والشهوة هي في الأصل مصدر، ويُسمى المشتبه شهوة تسمية للمفعول باسم المصدر قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء من الآية: ٢٧]" (مجموع الفتاوى؛ ج ١٠، ص [571]:). "وقد ذكر الله لنا أنواعاً من الشهوات التي جُبلت النفوس على محبتها، وهي: قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤]. ففي الآية ذكر أنواع من الشهوات وهي: النساء، والبنين، والأموال، والحيوان، والحرث، وقدّم الله أشد الشهوات وأقوى الفتن وهي النساء، فإن فتنهن أعظم فتن الدنيا، ثم ذكر البنين المتولدين من النساء، ثم ذكر شهوة الأموال لأنها تُقصد لغيرها فشهوتهما شهوة الوسائل، وقدّم أشرف أنواعها وهو الذهب ثم الفضة بعده، ثم ذكر الشهوة المتعلقة بالحيوان الذي لا يُعاشر عشرة النساء والأولاد، فالشهوة المتعلقة به دون الشهوة المتعلقة بهم، وقدّم أشرف هذا النوع وهو

الخيل فقدّمها على الأنعام التي هي الإبل والبقر والغنم، ثم ذكر الأنعام وقدّمها على الحرث لأن الجمال بها، والانتفاع أظهر وأكثر من الحرث" (بدائع الفوائد؛ ج ١، ص [85] :).

ومن الشهوات أعراض قلبية مركوزة في النفس البشرية:

كالعجب والخيلاء، والقهر والاستعلاء، والغضب، وحب الشناء والمدح، وحب الميل إلى النوم، والإخلاق إلى الراحة، وهذه الأعراض مما لا يكاد يسلم منه إلا من عصم الله فمقل ومكثر. ومنها: حب الرئاسة فإنه الشهوة الخفية كما قال شداد بن أوس رضي الله عنه: يا بقايا العرب يا بقايا العرب! إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية، قيل لأبي داود: ما الشهوة الخفية قال: حب الرئاسة" (رسالة في التوبة؛ ج ١، ص [233] :).

المشاهد الحيوانية في الشهوة:

إن من عواقب الشهوة أنها تُفسد الطبع والنفوس حتى تلحق الإنسان بالحيوان الذي تُسيّر الشهوة، وتحكم سلوكه، وقد ذكر ابن القيم أن أهل الشهوات متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات

التي هم على أخلاقها وطباعها: - "فمنهم من **نفسه كلبية** لو صادف جيفة تشبع ألف كلب لوقع عليها، وحماها من سائر الكلاب، ونبح كل كلب يدنو منها، همّه شبع بطنه من أي طعام اتفق ميتة أو مذكى، خبيث أو طيب، ولا يستحي من قبيح. -
ومنهم من **نفسه حمارية** لم تُخلق إلا للكدر والعلف، كلما زيد في علفه زيد في كده، أبكم الحيوان، وأقله بصيرة. - ومنهم من **نفسه سبعية غضبية** همته العدوان على الناس، وقهرهم بما وصلت إليه قدرته. - ومنهم من **نفسه فأرية**؛ فاسق بطبعه، مُفسدٌ لِمَا جاره. ومنهم من **نفسه على نفوس ذوات السموم** والحّمات كالحية والعقرب وغيرهما، وهذا الضرب هو الذي يؤذي بعينه، فيدخل الرجل القبر، والجمل القدر. - ومن الناس من طبعه **طبع خنزير**؛ يمرّ بالطيبات فلا يلوى عليها، فإذا قام الإنسان عن رجيعة قمه، وهكذا كثير من الناس يسمع منك ويرى من المحاسن أضعاف أضعاف المساوي فلا يحفظها ولا ينقلها، ولا تناسبه، فإذا رأى سقطة أو كلمة عوراء وجد بغيته وما يناسبها فجعلها فاكهته ونقله. -
ومنهم من هو على **طبيعة الطاووس** ليس له إلا التطوّس والتزيّن بالريش. - ومنهم من هو على **طبيعة الجمل** أحقد الحيوان، وأغلظه كبدًا. - ومنهم من هو على **طبيعة الدب**

أبكم خبيث، وعلى **طبيعة القرد**. - وأحمد طبائع الحيوانات
طبائع الخيل التي هي أشرف الحيوانات نفوسًا، وأكرمها
 طبعًا، وكذلك الغنم" (مدارج السالكين؛ ج ١، ص [403] :).

المنهج الصحيح في التعامل مع الشهوة:

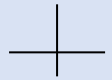
قال ابن تيمية - بعد أن ذكر حديث الثلاثة المتزهدين -:
 "والأحاديث الموافقة لهذا كثيرة في بيان أن سنته التي هي
 الاقتصاد في العبادة، وفي ترك الشهوات؛ خير من رهبانية
 النصراني التي هي ترك عامة الشهوات من النكاح وغيره، والغلو
 في العبادات صومًا وصلاة، وقد خالف هذا بالتأويل، ولعدم
 العلم؛ طائفة من الفقهاء والعباد" (اقتضاء الصراط؛ ج ١، ص :
 [105]). "وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهي إنما تدم إذا
 أعقت ألباً أعظم منها، أو منعت لذة خيراً منها، وتحمد إذا
 أعانت على اللذة الدائمة المستقرة وهي لذة الدار الآخرة
 ونعيمها الذي هو أفضل نعيم وأجله" (روضة المحبين؛ ج ١، ص :
 [156]).



عواقب اتباع الشهوة

أ- مرض القلب: "ومرض القلوب نوعان: مرض شبهة وشك، ومرض شهوة وغي، وكلاهما في القرآن قال تعالى في مرض الشبهة: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة من الآية: ١٠]، وأما مرض الشهوات فقال تعالى: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب من الآية: ٣٢]، فهذا مرض شهوة الزنا" (زاد المعاد؛ ج ٤، ص [5] :). "الأسير هو أسير شهوته وهواه، ومتى أسرت الشهوة والهوى القلب تمكّن منه عدوه، وسامه سوء العذاب، وصار كعصفور في كف طفل يسومها حياض الردى، والطفل يلهو ويلعب" (روضة المحبين؛ ج ١، ص [103] :).

ب- الضلال عن الحق بسبب سكر الشهوة: قال تعالى في قوم لوط: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢]، وهذا السكر أشد من سكر الخمر، فإن سكر الخمر يكون يومًا أو قريبًا من يوم، وأما سكر الشهوة والمحبة الفاسدة فقوي دائم، وقد يصل إلى الجنون.



ج- الشهوة بريد الكفر والخروج عن الدين: فإن

الشهوة خطوة من خطوات الشيطان التي يتدرج بالعبء عن طريقها حتى يفسد عليه دينه، وقد يُخرجه منه وهذا ما جاء في قصة العابد برصيصة: عَنْ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ : سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ : كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَاهِبٌ يَعْبُدُ اللَّهَ زَمَانًا مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى كَانَ يُؤْتَى بِالْمَجَانِينَ يُعَوِّذُهُمْ فَيَبْرءُوا عَلَى يَدَيْهِ ، وَأَنَّهُ أُتِيَ بِامْرَأَةٍ فِي شَرَفٍ مِنْ قَوْمِهَا قَدْ جُنَّتْ وَكَانَ لَهَا إِخْوَةٌ فَأَتَوْهُ بِهَا ، فَلَمْ يَزَلِ الشَّيْطَانُ يُزَيِّنُ لَهُ حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ ، فَلَمَّا اسْتَبَانَ حَمْلُهَا لَمْ يَزَلْ يُخَوِّفُهُ وَيُزَيِّنُ لَهُ قَتْلَهَا حَتَّى قَتَلَهَا وَدَفَنَهَا ، فَذَهَبَ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ حَتَّى أَتَى بَعْضَ إِخْوَتِهَا فَأَخْبَرَهُ بِالَّذِي فَعَلَ الرَّاهِبُ ، ثُمَّ أَتَى بَقِيَّةَ إِخْوَتِهَا رَجُلًا رَجُلًا ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَأْتِي أَخَاهُ فَيَقُولُ : وَاللَّهِ لَقَدْ أَتَانِي آتٍ فَذَكَرَ لِي شَيْئًا كَبِيرٌ عَلَيَّ ذِكْرُهُ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ حَتَّى رَفَعُوا ذَلِكَ إِلَى مَلِكِهِمْ ، فَسَارَ النَّاسُ حَتَّى اسْتَنْزَلُوهُ مِنْ صَوْمَعَتِهِ ، وَأَقْرَأَهُمْ بِالَّذِي فَعَلَ فَأَمَرَ بِهِ فَصُلِبَ ، فَلَمَّا رُفِعَ عَلَى خَشَبَةٍ تَمَثَّلَ لَهُ الشَّيْطَانُ ، فَقَالَ : أَنَا الَّذِي زَيَّنْتُ لَكَ هَذَا ، وَأَلْقَيْتُكَ فِيهِ ، فَهَلْ أَنْتَ مُطِيعِي فِيمَا أَقُولُ لَكَ ، وَأُخْلِصُكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ قَالَ : تَسْجُدُ لِي سَجْدَةً وَاحِدَةً ، فَسَجَدَ لَهُ ، وَقَتِلَ الرَّجُلُ . فَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ

فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ
 الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ [الحشر: ١٦] " (روضة المحبين؛ ج ١، ص [189] :).
 هذه القصة أوردها الذهبي - رحمه الله تعالى - في كتابه سير
 أعلام النبلاء، وهي من قصص بني إسرائيل التي قال عنها النبي
 ﷺ: وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب على متعمدا
 فليتبوأ مقعده من النار.

د- الحجب عن الربُّ جلُّ وعلا: "فإن العبد إذا قدّم
 شهوته على مُراد ربه؛ عرّض نفسه للحجب والجفاء بينه وبين ربه،
 فإن أراد الله خذلانه وغلّله إلى شهوته، وتركه محجوباً عنه، وإن أراد
 الله عصمته نغّص عليه الشهوة، وحال بينه وبين اللذة المحرّمة
 حتى لا تكون حجاباً بينه وبينه" (مدارج السالكين؛ ج ٢، ص :
 [454]).

هـ- إدمان الشهوة وتعلق القلب بها: "مدمنوا
 الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذون بها، وهم مع ذلك لا
 يستطيعون تركها، ولهذا ترى مدمن الخمر والجماع لا يلتذ به عُشر
 معشار التذاذ من يفعله في بعض الأحيان" (روضة المحبين؛ ج ١،

ص [470] (:). و- الغفلة عن ذكر الله والصلاة: "لأن العبد إذا قهر شهوته وهواه قوي قلبه على الصلاة، والخشوع فيها، وهذا بخلاف من قهرته الشهوة، وأسرته الهوى، ووجد الشيطان فيه مقعداً؛ فإنه لا يمكن أن يتخلص من الوسوس والأفكار" (الوابل الصيب؛ ج ١، ص [40] (:). ز- الشقاء والحسرة في الدنيا: "فيا حسرة المحب الذي باع نفسه لغير الحبيب الأول بثمن بخس، وشهوة عاجلة ذهبت لذتها، وبقيت تبعثها.

د- العقوبة عند الموت: "شهوات الدنيا في القلب كشهوات الأطعمة في المعدة، وسيجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والنتن والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا انتهت إلى غايتها" (عدة الصابرين؛ ج ١، ص [195] (:).

هـ- العقوبة في البرزخ: " جاء في حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه الذي في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: ((رأيتُ الليلةَ رجلين، أتيايَ؛ فأخذا بيدي، فانطلقتُ معهُما، فإذا بيتٌ مبنيٌّ على بناءِ التَّنُّورِ، أعلاهُ ضيقٌ، وأسفلهُ واسعٌ، يُوقَدُ تحتهُ نارٌ، فيه رجالٌ ونساءٌ



عُرَاةً ، فَإِذَا أُوقِدَتْ اِرْتَفَعُوا ، حَتَّى يَكَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا ،
فَإِذَا أُخْمِدَتْ رَجَعُوا فِيهَا ، فَقُلْتُ : مَا هَذَا ؟ وَأَمَّا الَّذِي
رَأَيْتَ فِي التَّنُّورِ ؛ فَهَمَّ الزُّنَاةُ)). الجزء من جنس العمل،
فهؤلاء كانوا في الدنيا كلما هموا بالتوبة والإقلاع والخروج من تنور
الشهوة إلى فضاء التوبة عادوا إليه؛ فكان هذا عذابهم في تنور
الآخرة" (روضة المحبين؛ ج ١، ص [442] :).

و- العذاب في النار: جاء في صحيح مسلم من حديث
أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : ((حُفَّتِ الْجَنَّةُ
بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ)) (١) قال بعض العلماء:
"إذا علا الذَّكْرُ الذَّكَرَ هربت الملائكة، وعجَّت الأرض إلى ربها،
ونزل سخط الجبار جل جلاله عليهم، وغشيتهم اللعنة، وحفَّت
بهم الشياطين، واستأذنت الأرض ربها أن تخسِفَ بهم، وثقل

(١) المَكَارِهِ : هي الأمور التي تكرهها النفس لمشققتها ، فلا يصل إلى الجنة أحدٌ إلا
إذا تجرَّع من غصص هذه المكاره التي تحيط بها ، فالطريق إليها ليس سهلاً بل
هو طريق وعراً محفوف بالمتاعب والآلام والدموع والعرق والدم والتضحيات،
وبذل كل ما في الوسع، ليس طريقاً مليئاً بالمتع والشهوات والنزوات، فمن أراد
الجنة ونعيمها فليوطن نفسه لتحمل هذه المكاره التي حُفَّت بها الجنة والتي ينبغي
على من يريد الجنة أن يؤديها ويقوم بها خير قيام كالصبر على المحن والبلايا
والمصائب، والصبر على الطاعات التي تشق على النفس كالجهاد في سبيل الله
وغير ذلك.

العرش على حملته، وكبرت الملائكة، واستعرت الجحيم، فإذا جاءته رسل الله لقبض روحه نقلوها إلى ديار إخوانهم، وموضع عذابهم؛ فكانت روحه بين أرواحهم، وذلك أضيّق مكاناً، وأعظم عذاباً من تنور الزناة" (روضة المحبين؛ ج ١، ص [374] :).

"ذهبت اللذات، وأعقت الحسرات، تمتعوا قليلاً وعذبوا طويلاً، أسكرتهم خمرة تلك الشهوات فما استفاقوا منها إلا في ديار المعذبين، فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم بين أطباق الجحيم، وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم، ويقال لهم وهم على وجوههم يسحبون: ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر من الآية: ٢٤]، ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]" (الجواب الكافي؛ ج ١، ص [122] :).

وسائل مدافعة الشهوة:

أ- "حسم مادة الشهوة وتضييق مجاريها؛ مثاله: قطع العلف عن الدابة الجموح، وعن الكلب الضاري لإضعاف قوتها. نوع وكمية



الغذاء: أن ينظر إلى مادة قوة الشهوة فيحدّها من الأغذية المحرّكة للشهوة إما بنوعها، أو بكميتها وكثرتها؛ ليحسم هذه المادة بتقليلها" (عدة الصابرين؛ ج ١، ص [41] :).

"العلاج النبوي (الصوم): ((وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ)) (متفقٌ عليه)، فأرشدهم إلى الدواء الشافي الذي وُضِعَ لهذا الأمر -أي الزواج-، ثم نقلهم عنه عند العجز إلى البدل وهو الصوم فإنه يكسر شهوة النفس، ويُضَيِّقُ عليها مجاري الشهوة، فإن هذه الشهوة تقوى بكثرة الغذاء وكيفيته" (روضة المحبين؛ ج ١، ص [219] :).

ومعنى: فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ: الوجداء هو رض عروق الخصيتين حتى تنفضخا، فتذهب بذهابهما شهوة الجماع، وكذلك الصوم، فهو مُضعِفٌ لشهوة الجماع.

"الختان: مع ما في الختان من الطهارة والنظافة، والتزيين وتحسين الخلقة، وتعديل الشهوة... ولهذا تجد الأقلق من الرجال، والقلقاء من النساء؛ لا يشبع من الجماع" (تحفة المولود؛ ج ١، ص [188] :).

ب- قطع الأسباب المهيجة للشهوة؛ مثاله: تغييب اللحم عن الكلب، والشعير عن البهيمة؛ لئلا تتحرك قوتهما له عند المشاهدة. ومن هذه الأسباب: "**الفكر في الشهوات**": أصل الخير والشر من قبل التفكر، فإن الفكر مبدأ الإرادة والطلب، الفكر في الشهوات واللذات وطرق تحصيلها لا عاقبة له، ومضرته في عاقبة الدنيا قبل الآخرة إضعاف مسيرته" (الفوائد؛ ج ١، ص : [198]). "**النظر المحرم (محرك الشهوة)**": فيجتنب مُحرك الطلب وهو النظر، فإن داعي الإرادة والشهوة إنما يُهيج بالنظر، والنظر يُحرك القلب بالشهوة" (عدة الصابرين؛ ج ١، ص : [41]).

"**الغناء**: قال فضيل بن عياض: **الغناء رقية الزنى**. قال يزيد بن الوليد: يا بني أمية إياكم والغناء فإنه يُنقص الحياء، ويزيد في الشهوة، ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السكر، فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء فإن الغناء داعية الزنى" (إغاثة اللهفان؛ ج ١، ص [246]:).



ج- التسلي عن الشهوة بجنسها من المباحات: مثاله، إعطاء البهيمة من الغذاء ما يميل إليه طبعها بحسب الحاجة لتبقى معه القوة، فتطيع صاحبهما، ولا تغلب بإعطائها الزيادة. فإن كل ما يشتهيهِ الطبع فيما أباحه الله سبحانه غنية عنه، وهذا هو الدواء النافع في حق أكثر الناس كما أرشد إليه النبي ﷺ (عدة الصابرين؛ ج ١، ص [41] :).

”الزواج: «حديث يا معشر الشباب»، وفي الصحيح من حديث جابر أن رسول الله ﷺ رأى امرأة، فأتى امرأته زينب، وهي تمعسُ منيئةً لها، فقضى حاجته، ثم خرج إلى أصحابه، فقال ((إن المرأة تُقبلُ في صورة شيطان، وتُدبرُ في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة أعجبته فليأت أهله، فإن ذلك يردُّ ما في نفسه))، صحيح مسلم رقم [١٤٠٣] باب: ندب من رأى امرأة فوقع في نفسه إلى أن يأتي امرأته أو جاريتها فيواقعها). ففي هذا الحديث عدة فوائد منها: الإرشاد إلى التسلي عن المطلوب بجنسه كما يقوم الطعام مكان الطعام، والثوب مقام الثوب، ومنها: الأمر بمداواة الإعجاب بالمرأة المورث لشهوتهما بأنفع الأدوية وهو قضاء وطره من أهله، وذلك ينقض شهوته" (الجواب الكافي؛ ج ١، ص [171] :)، وقوله:

((تَمَعَسُ مَنِئَةً لَهَا)) أي أنها كانت مشغولة تدبغ جلدًا.

د- الصبر؛ وقد يقول قائل: لا أستطيع أن أصبر، الصبر صعب، فنقول: "الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما تُوجبه الشهوة، فإنها أما أن تُوجِبَ ألمًا وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها، وإما أن تضيّع وقتًا، وأما أن تثلم عِرْضًا، وإما أن تُذهب مالًا، وإما أن تضع قدرًا وجاهًا، وأما أن تسلب نعمة، وإما أن تُنسي علمًا، أو تحرم رزقًا، أو تجلب همًا وغمًا، وحرزًا وخوفًا لا يُقارب لذة الشهوة" (الفوائد؛ ج ١، ص [139]:).

استشعار العوض: فإن من ترك شيئًا لله بدّله الله خيرًا منه.

ز- تذكر الموت والدار الآخرة: "التفكّر في الدنيا، وسرعة زوالها، وقرب انقضائها، كان أبو الدرداء يقول: "لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعامًا على شهوة، ولا شربتم شرابًا على شهوة، ولا دخلتم بيتًا تستظلون فيه، وخرجتم إلى الصعدات تضربون صدوركم، وتبكون على أنفسكم، ولوددتُ أني شجرة تعضد ثم تؤكل" (الجواب الكافي؛ ج ١، ص [26]:).



٤ - الذنوب والمعاصي

إن الذنوب والمعاصي تحتاج إلى مجاهدة للنفس قال الله تعالى:
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾
[الحجرات: ٣] فكل ما يمر على الإنسان هو ابتلاء واختبار
وبعدها تكون لذة العبادة لله بفعل أوامره واجتناب نواهيه فقال
تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ
وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ
الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله وللصبر أنواع ثلاثة هي:

- ١- الصبر على طاعة الله تعالى. ٢- الصبر عن معصية الله تعالى. ٣- الصبر على أقدار الله تعالى. إذا فعل الطاعات وترك الذنوب والمعاصي لا بد له من الصبر على ذلك فقد قال تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]. وقال رسول الله ﷺ: ((الصبر ضياء)) (صحيح مسلم [٢٢٣])، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

إذن هذه هي الدنيا الفانية فيها من الذنوب والمعاصي
والإنسان محاسب عليها قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ
. كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١١: ١٠]
وقال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾
[ق: ١٨].

فإن للذنوب والمعاصي آثاراً على الفرد والمجتمع أذكر بعضاً منها:

١- تُضَعِفُ تَعْظِيمَهُ لِلرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا: قال سبحانه وتعالى:
﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْكُمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾
[الحج: ٣٢].

٢- تضيق الرزق والمعيشة على الفرد: قال رسول الله
ﷺ: ((وإنَّ العبدَ لِيُحْرَمَ الرِّزْقَ بالذنبِ يصيبه)) (الترغيب
والترهيب [٢٩٤/٣]).

فيه بيان أن تقوى الله مجلبة للرِّزْقِ، فترك التقوى مجلبة للفقر،
فما استجلب رِزْقَ الله بمثل ترك المعاصي، ومنها: وحشة يجدها
العاصي في قلبه بينه وبين الله، لا يوازنها ولا يقارنها لذة أصلاً ولو

اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة، وهذا أمر لا يحسُّ به إلا مَنْ في قلبه حياة، وفيه: أن من عقوبات المعاصي أنها تمحق بركة العمر وبركة الرزق، وبركة العلم وبركة العمل، وبركة الطاعة، وبالجملة أنها تمحق بركة الدين والدنيا، فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممن عصى الله، وما مُحقت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق.

وقال وهيب بن الورد رحمه الله: "لا يجد طعم العبادة من عصي الله ولا من هم بمعصيته". وقال أبو سليمان الدارني رحمه الله: "أني أعصي الله فأعرف ذلك في خلق دابتي وزوجتي".

٣- حرمان العلم الشرعي: قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

٤- تورث الوحشة في القلب وتضييق الصدر: قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

وقال ابن القيم رحمه الله قوله ﴿ضَنْكًا﴾ إنها تدل على أن: (حرف (ض) الضيق وحرف (ن) النكد وحرف (ك) الكدر).

٥- قسوة القلب وجفاء العين: قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ

عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ [المطففين: ١٤] الران هو الذنوب والمعاصي.

٦- الذل والمهانة في الدنيا: قال رسول الله ﷺ: «جُعِلَ الذِّلُّ وَالصُّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي» (مسند أحمد [8/44]).

٧- سب في عذاب القبر وفي عذاب الآخرة: رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَبْرَيْنِ فَقَالَ: ((إِنَّهُمَا لِيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ أَمْ، قَالَ: بَلَى، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، ثُمَّ دَعَا بَعْسِيبَ رَطْبٍ فَشَقَّهُ اثْنَيْنِ فَعَرَسَ عَلَيَّ هَذَا وَاحِدًا وَعَلَى هَذَا وَاحِدًا، ثُمَّ قَالَ: ((لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا)) (صحيح البخاري [218]). هَذَا الْحَدِيثُ حُجَّةٌ بَعْدَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى اثْبَاتِ عَذَابِ الْقَبْرِ.

٨- سب في زوال النعمة والأمن والأمان: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. فقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: (الظلم هنا الشرك) (رواه البخاري) ويدخل في ظلم النفس ارتكاب الذنوب والمعاصي.

٩- سبب في الخسف والمسح والقذف: عن عائشة رضي الله عنها قالت قال النبي ﷺ: ((يَكُونُ فِي آخِرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْحٌ وَقَذْفٌ. "قَالَتْ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَهْلِكَ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ : ((نَعَمْ إِذَا ظَهَرَ الْحُبْتُ)) (صحيح الترمذي [2185]). الحبث: الذنوب والمعاصي، المسخ: قلب الخلقة إلى خلقة أخرى.

١٠- تسليط الأعداء: عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ((إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعَيْنَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيْتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ، سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ)) رواه أحمد (٤٩٨٧) وأبو داود (٣٤٦٢) وصححه الألباني في صحيح أبي داود. أذئاب البقر: انشغال بالحرث والزرع، العينة: نوع من أنواع الربا.

والعينة : حيلة يحتال بها بعض الناس على التعامل بالربا ، فالعقد في صورته : بيع ، وفي حقيقته : ربا. وبيع العينة : أن يبيع الشيء بالآجل ، ثم يشتريه نقداً بثمن أقل ، كما لو باعه سيارة بعشرة آلاف مؤجلة إلى سنة ، ثم اشتراها منه بتسعة آلاف فقط نقداً. فصارت حقيقة المعاملة أنه أعطاه تسعة آلاف وسيردها له عشرة آلاف بعد سنة ، وهذا هو الربا ، ولهذا كان هذا العقد (بيع العينة) محرماً .

١١- سبب في قتال المسلمين فيما بينهم: قال النبي ﷺ:

((سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي: أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُجْعَلَ بِأَسْهُمَ بَيْنَهُمْ فَمَنْعَنِهَا..)) (صحيح مسلم [2890]).
السَّنة: جذب أو قحط الأرض.

فكان النَّبِيُّ ﷺ حَرِيصًا عَلَى أُمَّتِهِ مُشْفِقًا عَلَيْهِمْ، فَكَثِيرًا مَا يَسْأَلُ اللَّهَ لَهُمْ مَا يَنْفَعُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَيُصْلِحُ لَهُمْ أَمْرَ آخِرَتِهِمْ.
فأجابه الله تعالى في الأولى والثانية وأما الثالثة هي ألا يجعل بأسهم بينهم، أي: حربهم الشديدة فمنعها.

١٢- سبب في نزول العقوبات على الفرد والمجتمع: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "ما نزلت عقوبة إلا بذنب وما رُفعت إلا بتوبة". نسأل الله العلي القدير أن يغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، ويتقبل منا توبتنا ويرحمنا برحمته وأن يجعل مصيرنا دار كرامته.



٥ - الرياء وحب الظهور والسيطرة.

فالرياء هو إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها؛ وهو الشهوة الخفية التي يقود إليها محبة مدح الناس؛ والبحث عن المنزلة في قلوبهم، لذا قال سفيان بن عيينه: «إياكم والشهوة الخفية، قالوا: وما هي؟ قال: الذي يحب أن يمدح على الخير».

فالنفس تحب انتشار الصيت والاشتهار، وذلك هو الداء الدفين الذي نسج الشيطان شباكه من خلاله ليصطاد به أهل الاستقامة والتدين لما أعيوه باستقامة سلوكهم على الطاعة، فاجتهد أن يحرف نياتهم عن جادة الحق، فيبوؤوا بجبوت أعمالهم وذهاب أجورهم .

فالرياء عدو الإخلاص؛ يحبط الأعمال؛ ويؤذن بحلول غضب الله عز وجل على من اتصف به، قال الله سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ...﴾ .

ولأن الله سبحانه لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً له وحده سبحانه دون ما سواه؛ فقد حذر عباده من مراعاة الخلق

بأعمالهم الصالحة فيجعلونهم شركاء مع الله تعالى؛ قال **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: ((قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنَا أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِيَ فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ)) رَوَاهُ مُسْلِمٌ. ((.

فالله تعالى لا يقبلُ العملَ الذي يدخله رياء، أو يدخله سُعة، لأنه لا يكونُ خالصًا لوجه الله -عزَّ وجلَّ-.

وحذر النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** من الرياء لعظيم خطره؛ فقال: ((إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ، قَالُوا: وَمَا الشِّرْكَ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الرِّيَاءُ. يَقُولُ اللهُ عز وجل لهم يوم القيامة؛ إذا جرى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا، هل تجدون عندهم من جزاء))؛ وفي رواية: ((إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ، قَالُوا: وَمَا الشِّرْكَ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟)) (أَنَّ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيَزِينُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ)). (١)

(١) قال الألباني في "السلسلة الصحيحة" ٢ / ٦٧١: رواه أحمد ٥ / ٤٢٨ و ٤٢٩ وأبو محمد الضراب في ذم الرياء ٢٧٧ / ٢ ، والبغوي في " شرح السنة " (٤ / ٢٠١) عن عمرو بن أبي عمر و عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد قال : قال رسول الله ﷺ . و هذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين غير محمود بن لبيد، فإنه من رجال مسلم وحده ، قال الحافظ : " و هو صحابي صغير ، وجل روايته عن الصحابة. "

وما كان هذا الوعيد الشديد إلا لأن هذا المرئي قد التمس بعمله الصالح رضا المخلوقين ومدحهم، فكان جزاؤه أن وكَّله الله سبحانه لمن كان يرائيهم في عمله ويطلب مدحهم وثناءهم. ومن أجل ذلك فقد عَظُم خوفُ السلف رحمهم الله وتحذيرهم من الرياء، وما كان ذلك إلا لعظيم إخلاصهم ومعرفتهم بخطر الرياء؛ حيث يذهبُ الدين وتُقتل روحُ العبادة، فتكون كالجسد الذي لا يحوي روحاً فلا حياة له ولا نجاة، كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي موسى: «من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بغير ما يعلم الله من قلبه شأنه الله عز وجل، فما ظنك في ثواب الله في عاجل رزقه؛ وخزائن رحمته، والسلام».

ومن تأمل سيرة السلف رحمهم الله وجد أنهم من أبعد الناس عن الرياء مع قوة عبادتهم وإخلاصهم؛ وقد كانوا يؤثرون الخمول ويكرهون المدح خوفاً على أنفسهم من زيغ القلوب وتغير النيات، ولذلك أعقبهم الله عز وجل وأورثهم ذكراً حسناً وثناءً عطراً، ودعاءً صادقاً على لسان المسلمين، وعلى قدر ما كانوا مخلصين بأعمالهم مبتعدين عن الرياء وحب المدح على قدر ما فتح الله لهم

قلوباً غلفاً وآذاناً صمّاً، فنفع الله بأعمالهم وأقوالهم؛ وكانوا كالغيث الذي إذا حل بأرض قاحلة عادت مروجاً وأنهاراً، فسُقي منها الظمآن؛ وانبتت الكلاً وانتفع بها الإنسان والحيوان، وقد قال علي بن الفضيل رحمه الله لأبيه: «يا أبت ما أحلى كلام أصحاب محمد ﷺ. فقال: يا بني؛ وتدري لما حلا؟ قال: لا يا أبت؛ قال: لأنهم أرادوا الله به»، وقال ابن لعمر بن ذر لأبيه: «ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد؛ فإذا تكلمت يا أبت سمعت البكاء من ها هنا وها هنا؟، فقال: **يا بني ليست النائحة المستأجرة كالنائحة الثكلي**» .

و كان كثير من السلف يخفي عبادته حتى عن أقرب الناس إليه خوفاً من الرياء وطلباً للإخلاص، و كان يحبون خمول الذكر بالرغم مما حباهم الله به من العلم و الديانة، قال محمد بن واسع: «لقد أدركت رجلاً، كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة، قد بلّ ما تحت خده من دموعه، لا تشعر به امرأته، ولقد أدركت رجلاً يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خده، ولا يشعر به الذي إلى جنبه».

فالرجل المجهول هو الذي أخفى عمله عن الناس وأحب خمول



الذكر ولم يتعرض لباب الشهرة ومدح الناس بل عمل في أي حقل من حقول الدين هو الذي أثنى عليه رسول الله ﷺ فقال ((طُوبَى لِعَبْدٍ آخَذَ بَعْنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشَعَتْ رَأْسُهُ، مُغْبِرَةً قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ..)) رواه البخاري.

أما إذا أخلص العبد عمله ولم يرد الدنيا بعمله ثم أثنى عليه الناس بغير تطلع منه وتشوف فهذا لا يؤثر في عمله ولا يضره وهو أمر حسن كما بين النبي ﷺ ذلك حين سئل ف عن أبي ذر رضي الله عنه: قيل يا رسول الله أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ فقال: (تلك عاجل بشرى المؤمن) رواه مسلم. وفي رواية ابن ماجه (الرجل يعمل العمل لله فيحبه الناس عليه).

وإن المؤمن الحق هو الذي يجتهد أن تكون أعماله بعيدة عن الرياء والعجب والمباهاة، كالذي يتباهى بما حققه في فترة زمنية قصيرة قد حققه غيره طوال حياته، فيجتهد أن تكون أعماله كلها لله ولا يشرك أحداً في نيته خشية أن يرد الله عليه عمله ويحرمه من الثواب كمن قاتل ليتحدث الناس عن شجاعته، وكذلك العالم القارئ والغني الجواد اللذان حرما الثواب لأنهما أخذا حقهما من المديح والثناء.

((**حب الظهور يقسم الظهور**)).. مقولة قديمة انطلق بها الأولون لتذكير النفس بعدم الوقوع في شرك العجب والرياء، وتذكر الإخلاص في كل الأعمال، فالنفس دائماً تواقّة لحبّ الظهور بين الناس والمدح من قبلهم، وهي أمرض خطيرة إذا تمكنت خصوصاً من العاملين في الحقل الإسلامي، فهي ستجلب عليه الويلات وتهوي بهم إلى مواطن الهلاك، وذلك مصداقاً لحديث الرسول ﷺ: ((**مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ ، أَوْ يُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ جَهَنَّمَ**))، أخرجه أبو داود (٣٦٦٤)، وأحمد (٨٤٥٧) بمعناه، وابن ماجه (٢٦٠) باختلاف يسير.

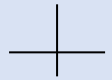
كما أنّ التابعين قالوا عمن يبحث عن الشهرة وحب الظهور فهو بعيد عن التقوى، فقد قال بشر الحارث: (ما اتقى الله من أحب الشهرة).

وحب الظهور، آفة لها مظاهر عديدة، فترى الشخص دائماً يطلب على الدوام أن يبرز على أنه أفضل الناس أو أنه أكثرهم عقلانية، أو أنه الأجدر برئاسة مكان ما، وتراه دائماً يطلب لنفسه الرئاسة في الأماكن البارزة، ويشعر بداخلة أنه في كل الأحوال أفضل الناس، وتراه في النقاش مصراً على رأيه لا يتنازل عنه أبداً وإن دخل في مرحلة من المراء والجدال، وحتى لو ظهرت

له من الآراء ما يدحض رأيه تراه يكابر عن قول الحق.

كما أنّ تلك الآفة تدفع الفرد داخل أيّ مؤسسة يعمل بها إلى عدم المشاركة الإيجابية عندما يكون مرؤوساً، تجده كارهاً نقد الآخرين له، ومعظماً دوماً من قدر أعماله، كثير المباهاة بإنجازاته، مكثراً من استخدام ألفاظ: (أنا ولي وعندي)، ويسعى دائماً لإفشال المشاريع والأفكار والمبادرات كافة، التي تصدر عن أيّ شخص غيره، تراه مبالغاً فيما لديه من علم، كثير الحديث عن تجاربه الخاصة، كثير الاحتكاك بمخالفه في الرأي وخاصة من قرنائه، معتداً برأيه فقط، سيئ الأسلوب مع الكبار، يعتذر دائماً عن التكاليف الصغيرة التي لا تكفل له أن يبرز، كثير النقد، متهمكاً على قرنائه وعلى أفكارهم.

فهنيئاً لمن كان مجهولاً عند الخلق معروفاً عند الله تعالى، من لا يأبه به الناس ولا يقيمون له وزناً وقدره عظيم عند الله تعالى، من أوصد في وجهه أبواب الدنيا وأبواب الله مشرعة في وجهه، من كان متواضعاً في الناس شريفاً عند الله عزوجل.



٦ - الهزيمة النفسية أمام العدو.

الهزيمة النفسية هي انهزام القلب وانخيار الشخصية أمام الخصم أو العدو حتى قبل المعركة؛ أي معركة، سواء كانت حربية، أو فكرية، أو حضارية، سببها اليأس والقنوط، ونتيجتها الاستسلام والانسحاب من المواجهة، وقد وردت الإشارة إليها في القرآن الكريم والسنة النبوية في عدة مواضع تتعلق كلها بالموقف من العدو:

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ، هذا الجيش من بني اسرائيل انهزم بمجرد إبصار العدو، وقبل أي منازلة معه؛ لأنه كان يستصحب عوامل الهزيمة في نفوس أفرادهِ.

﴿ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢] ، فرغم أن الصحابة رضي الله عنهم أرباب تربية روحية قوية وتكوين نفسي صلب، إلا أن لجوء بني النضير إلى حصونهم المنيعة جعل الشك يساورهم في إمكانية الانتصار عليهم؛ لذلك تولى الله تعالى ذاته المعركة: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ... ﴾



فَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ
الرُّعْبَ ﴿ الحشر: ٢ ﴾ .

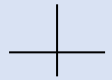
وهذه الهزيمة هي المعنى الذي حواه حديث " تداعي الأمم " الذي رواه أبو داود، والذي أرجع فيه الرسول ﷺ سبب تكالب العدو الخارجي إلى انهيار البنيان الداخلي والتكوين النفسي بالأساس، وسماه الوهن، وقرنه بالجن أمام التحدي المحقق؛ وإنما ينهزم الناس عندما تتمكن منهم الأوهام، وتتضخم في أعينهم قدرات العدو أو الخصم، وتضعف نفوسهم عن طلب الغايات الكبرى وبذل الثمن المناسب، ويرضون بالحياة التافهة المتسمة بالعجز والمسكنة.

ولا يحدث كل هذا في ساحة الحرب العسكرية وحدها؛ بل ينسحب على جميع الحالات التي يفقد فيها المؤمنون الفعالية؛ لذا نرى من فقدوا القدرة على المواجهة في ميادين الفكر، والرقي المادي، والمنافسة الحضارية - يتزمتون ويفرّون إلى الماضي، ويتشبثون بالأشكال والقشور على حساب الحاضر بتفاعلاته وإكراهاته، وعلى حساب الجوهر الذي يحتاج إلى جهد جهيد لإدراك مقاصده وسبر أغواره.

ومن المفروض أن المسلم - بفضل التربية الإسلامية والفهم عن الله ورسوله، وسيره وفق السنن الماضية - لا ينهزم أمام المؤامرات والتحديات، بل هو يعد نفسه من الغرباء الذين أشاد بهم الرسول ﷺ؛ لأنهم يصلحون ويصلحون إذا فسد غيرهم وأفسدوا، وهو من الطائفة المنصورة التي لا تزال ظاهرة على الحق لا يضرها من خذلها ولا من خالفها حتى يأتي أمر الله تعالى وهي ظاهرة، وهو من الفئة القليلة الثابتة الصابرة التي يتحقق على يديها النصر بعد تراجع المنهزمين نفسيًا وفرارهم من ساحة المواجهة؛ هذا لأن المسلم الرباني - سواء كان داعية، أو مصلاحيًا اجتماعيًا، أو مربيًا، أو سياسيًا، أو من عامة المسلمين المتمسكين بدينهم - لا يسترخي، بل هو دائم اليقظة يراقب نفسه، ويمدها بأسباب القوة الذاتية، فلا تنهزم بل تتجاوز حتى المعارك الخاسرة، وتستدرك وتخوض دورات جديدة؛ لأن هذا المسلم جنديٌّ من جند الله تعالى، ينفذ به أمر السماء فلا ييأس؛ ليقينه بأن ربه هو الذي يدير المعركة، فلا تسحقه المشكلات رغم ضراوتها، ولا تهزمه المكاراه وإن اجتمعت عليه من كل صوب، نعم، يتألم ويئن، لكنه يتذكر أن الإمام أحمد رحمه الله كان يئن في مرض موته فقيل له: "إن الأنين من الشكوى"، فأمسك حتى فاضت روحه،

والنفس السوية ينال منها الأذى لكنها تبقى صامدة مقاومة فعالة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فالنهي لا ينصبُّ على التآلم والإحساس بالضرر؛ وإنما على السقوط في دركات الهوان ومهاوي الحزن الذي يصيب بالشلل الفكري والروحي.

إن من شأن المرحلة التي تمرُّ بها الأمة اليوم: أن تبث الهزيمة النفسية على نطاق واسع؛ لما تسوقه من أنواع التردّي السياسي والثقافي والأخلاقي الممنهج، ومن زرع لبذور الفساد المتنوع على نطاق واسع لا ينذر إلا بمزيد من الهزائم والتضييق على الحرية والتدين والعمل الصالح، فيرى المرء تحطيم أكثر ما تم إنجازه طوال عقود؛ إذ يُعمل فيه العلمانيون والتغريبيون وبعض السطحيين المنتسبين للصف الإسلامي - كالصوفية - معاول الهدم بشكل حثيث؛ كأنهم يسعون إلى محو آثار الخير والصلاح، وتفخيخ مستقبل الأمة بشكل متعمد؛ حتى لا يمكنها النهوض مرة أخرى.



أولاً: ما هي أعراض هذه الهزيمة النفسية؟
ثانياً: ما هي أسباب هذه الهزيمة النفسية؟
ثالثاً: ما هو العلاج؟!

أولاً: أعراض الهزيمة النفسية:

إن للهزيمة النفسية أعراضاً كثيرة خطيرة أهمها ما يلي:

العَرَضُ الأول: اختلاط النبع الصافي مما أدى إلى تنحية الشريعة الربانية وتحكيم القوانين البشرية الوضعية، وهذا - بلا منازع- هو أخطر أعراض الهزيمة النفسية التي نُكبت بها الأمة الإسلامية في هذا العصر الحديث؛ قال الله تعالى: ﴿ **وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ .

فالأيام دُول، والصراع بين الحق والباطل صراع دائم لا ينتهي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولا شك على الإطلاق أن الدولة والجولة الآن للغرب الذي انتصر في الجولة الأخيرة، فراحت الأمة المهزومة عسكرياً، واقتصادياً، ونفسياً تحاكي الغرب الذي انتصر في هذه الجولة، ويا ليت الأمة راحت تنقل أروع ما وصل إليه الغرب في الجانب العلمي والتَّقني، ولكنها بكل أسف نقلت أسوأ ما وصل إليه الغربُ في الجانب العقدي والإيماني



والأخلاقي والروحي، حتى رأينا من بني جلدتنا من يدندن على هذا الوتر، يمجّد الغرب ويسبح بحمده، ومما يؤسف عليه أن التاريخ المعاصر قد حفل بنماذج بشعة من ممسوخ الهوية الذين كانوا يُخربون هويتهم بأيديهم، والشجرة الخبيثة لا تخرج إلا نكدا من بين وقت وآخر.

فظهر في الوقت الأخير من تاريخ المسلمين نماذج كثيرة جداً من هؤلاء الذين حاربوا الهوية الإسلامية وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ومن أشهرهم في هذا المجال مصطفى كمال أتاتورك الذي مسخ هوية تركيا الإسلامية بالقهر، والذي قال (**كثيراً ما وددت لو كان في وسعي أن أقذف بجميع الأديان السماوية في البحر**) وهو الذي ألغى الخلافة الإسلامية، وعطل الشريعة، وألغى نص الدستور علي أن الإسلام هو الدين الرسمي للدولة، وألغى المحاكم الشرعية، والمدارس الدينية، والأوقاف، وألغى الأذان باللغة العربية وحوله إلى اللغة التركية، وألغى الحروف العربية وأستبدلها بالحروف اللاتينية.

وكان يقول (انتصرت علي العدو وفتحت البلاد فهل أستطيع أن أنتصر علي الشعب؟). حتى قال الكاتب التركي (آغا أوغلي أحمد) وهو من غلاة الكماليين: قد عزمنا أن نأخذ كل ما عند الغربيين حتى الالتهابات التي في رأسهم والنجاسات التي في

أمعائهم.

ومن خصوم الهوية الإسلامية، هذا الذي رفع شعار مصر للمصريين، وهو أيضا ممن رفعوا شعار الافتخار بالنعرة الفرعونية، فكان يصف نص الدستور بأن دين الدولة الرسمي هو الإسلام بأنه النص المشئوم، والعياذ بالله.

ثم راحت الأمة تقلد الغرب المنتصر في هذه الجولة، كعادة الضعيف أو المغلوب أن يقلد المنتصر، وظنت الأمة المسكينة أنها بتنحيتها للشريعة الربانية وتحكيمها لشريعة الغرب العلمانية، ظنت أنها قد ركبت قوارب النجاة وسط هذه الرياح الهوجاء والأمواج المتلاطمة، فخابت الأمة وخسرت، وغرقت الأمة وأغرقت، ولا تزال الأمة إلى هذه الساعة تجني ثمار الخذلان واليأس والهزيمة النفسية، بل والعسكرية والاقتصادية والعلمية.

والعودة إلى شريعة رب البرية ليست نافلة ولا تطوعاً ولا اختياراً، فإن الحياة البشرية من خلق الله تعالى، ولن تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله تعالى، ولن تعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذي يقدم لها خالقها الله عز وجل، ولا يمكن أبداً أن يتعدى هذا الدواء كتاب الله تعالى وسنة الحبيب رسول الله ﷺ ؛



قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥١-٥٢]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ١-٢].

قال ابن القيم: "إذا كان مجرد رفع الصوت على النبي يحبط العمل، فما ظنك بمن قدم قوله وفعله وسياسته على قول الله وفعل رسول الله ﷺ".

العرض الثاني: اليأس من إمكانية التغيير: وهذا عرض خطير أصاب كثيراً من المسلمين في هذه الأيام ممن يرددون هذه الكلمات التي أصبحت تمثل معتقداً لدى غالب المسلمين، فهم يرددون "لا فائدة"، "أنت تؤذن في خرابة أو في مالطا"، "أنت تنفخ في رماد أو قربة مفروقة"، "عش عصرك"، "رب أولادك"، "تفرغ لتجارتك ولأولادك"، "كل رزقك ورزق عيالك"، "أنتبه لكركسيك"، "لوظيفتك"، "هلك الناس"... إلى آخر هذه الكلمات التي تزيد المهزوم هزيمة، والنشيط يأساً وخذلاناً.

وقد شخّص المصطفى هذه النفسيات المهزومة تشخيصاً دقيقاً في حديث صحيح رواه الإمام مسلم فقال: ((إِذَا قَالَ الرَّجُلُ : هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلُكُهُمْ)).

قال الإمام النووي: أهلكتهم: برفع الكاف وفتحها، والرفع أشهر، ومعناها: أشدهم هلاكاً، وأما رواية الفتح فمعناها: هو جعلهم هالكين، لا أنهم هلكوا في الحقيقة.

واتفق العلماء على أن هذا الظم إنما يقال على سبيل الازدراء على الناس واحتقارهم، وتفضيل نفسه عليهم، وتقبيح أحوالهم، لا أنهم هلكوا في الحقيقة؛ لأنه لا يعلم سر الله في خلقه، قالوا: فأما



من قال ذلك تحزناً لما يرى في نفسه، وفي الناس من النقص في أمر الدين فلا بأس عليه . "اهـ.

فهذا عَرَضَ خطير من أعراض الهزيمة النفسية، ألا وهو اليأس من إمكانية التغيير لهذا الواقع المر الأليم الذي تحياه الأمة ويريد كثير من أبنائها أن يفرضوا سياسة الأمر الواقع على كل من يتحركون لدين الله ودعوة الله - جل وعلا. -

العرض الثالث: السلبيّة القاتلة في الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: لقد ظلت سماء الأمة سحابة قائمة من هذه السلبيّة القاتلة. فالمسلم يرى أخيه المسلم على معصية، فيهز كتفه ويمضي كأن الأمر لا يعنيه.

وفي الحديث الذي رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمر قال رسول الله ﷺ: - ((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً)).

وقال كما في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري: ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ...)).

.وتغيير المنكر يكون بالضوابط الشرعية المعلومة. - كما بينت سابقاً عند الحديث عن الربانية تراعي المسؤولية الجماعية بالصفحة ٤١ -.

فلا عذر لك أمام الله - عز وجل -، فنحن جميعاً نركب سفينة واحدة فيها الصالح والطالح، وإن نجت السفينة نجا الجميع، وإن هلكت هلك الجميع كما في حديث السفينة: ((مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَأَقِ فِيهَا؛ كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤَدِّ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَّوْا جَمِيعًا)) [رواه البخاري].

العرض الرابع: الدفاع عن الإسلام كمتهم في قفص الاتهام، وهذا عرض خطير، فالغرب يثير من آن لآخر - بل في كل آن - شبهات خطيرة ضد الإسلام مثل: الإسلام دين إرهاب، الإسلام دين تطرف، الإسلام ظلم المرأة، البيت للمرأة المسلمة سجن مؤبد، الزواج سجان قاهر، الأمومة تكاثر حيواني، لماذا تزوج محمد تسعة؟! لماذا يتزوج الرجل في الإسلام أربعة؟! لماذا حرم الإسلام الخلوة بين الرجل والمرأة؟! لماذا حرم الإسلام الاختلاط؟! لماذا تقطع يد السارق؟! لماذا يرحم الزاني؟! إلى آخر هذه الشبهات التي تثار.

فينبri للرد على هذه الشبهات فريق من أهل العلم ولكن

بمنطق أن الإسلام متهم في قفص الاتهام، فتأتي الردود هزيلة، لأنها ردود المهزوم نفسياً.

ومن الجفاء أن أذكر هذا العرض الخطير ولا أُذَكِّر بهذا الوجه المضىء المنير لسلفنا الصالح يوم أن اعتزوا بهذا الدين وارتفعت به رؤوسهم لتعانق كواكب الجوزاء، أو إن شئت فقل: لفضلهم وكرمهم تنزلت كواكب الجوزاء لتتوج هذه الرؤوس التي وحدت الهر - جل وعلا. -

فها هو ربعي بن عامر، ذلكم البطل المسلم، ضعيف البنية، قوي الإيمان، الذي ركب جواده وانطلق لمقابلة قائد الفرس، وكلكم يعلم القصة، ولكنني أردت أن أنبه لأمر مهم، ألا وهو الاستعلاء، العزة بهذا الدين، وأراد الحرس أن يدخل ربعي على رستم وهو يمشي على قدميه فأبى ودخل على ظهر جواده، فسأله رستم قائد الجيوش الكسروية وقال: **من أنتم؟! (هل تذكرون هذه الكلمة كم مره سمعناها في عصرنا هذا ؟ إنها كلمة الطغاة) وما زلنا نسمعها من أنتم؟! وما الذي جاء بكم؟!**

فقال ربعي " **نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج العباد -إن شاء الله- من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا**

إلى سعة الدنيا والآخرة. "ابتعثنا الله بدينه لندعو الناس إليه، فمن حال بيننا وبين دعوة الناس إلى دين الله قاتلناه حتى نفضي إلى موعود الله.

قال رستم: وما موعود الله؟!

قال ربي: **الجنة لمن مات على ذلك، والنصر لمن بقي منا.**

فقال رستم: لقد سمعت مقاتلك، فهل لكم أن تؤجّلوا هذا الأمر لنظر فيه ولتنظروا؟! فقال ربي: كم أحب إليكم، يوم أو يومان؟!

قال رستم: لا بل حتى نكتب أهل رأينا ورؤساء قومنا.

قال ربي: لا، قال رستم: ولم؟! قال: ما سن لنا رسول الله أن نؤجل الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر أمرك وأمرهم!!

قال رستم: أسيدهم أنت؟!

قال: لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد، يجير أدناهم على أعلاهم.

عزة، استعلاء، أما آن فقد شربت الأمة كؤوس الذل والهوان ألواناً وأصنافاً وأشكالاً، هُزمت وراحت لتركع ولتخضع في محراب الشرق الملحد تارة، ومحراب الغرب الكافر تارة أخرى، ولا حول

ولا قوة إلا بالله.

العرض الخامس: الخوف من إظهار الهوية الإسلامية: وهذا عرض فتاك من أعراض الهزيمة النفسية، يخشى المسلم الآن في ظل هذه الظروف أن يُظهر السنة، وأن يظهر هويته بعزة واستعلاء، ويخشى أن يُتهم بالإرهاب، يخشى أن يُتهم بالتطرف، ويخشى أن يُتهم بالجمود والرجعية والتخلف وضيق الأفق وعدم القدرة على الانفتاح العصري... إلى آخر هذه التهم التي يغني بطلانها عن إبطائها وفسادها عن إفسادها وكسادها عن إكسادها.

بل تجد المسلم الآن -إلا من رحم الله- إذا تعامل مع غير المسلمين أو سافر إلى بلاد الشرق والغرب يأكل كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، ويلبس كما يلبسون، ويتكلم كما يتكلمون، بل ويخشى أن يقول: هذا حلال وهذا حرام، وهذه سنة وهذه بدعة، وهذا حق وهذا باطل، لماذا؟! لأنه مهزوم من داخله، هُزم نفسياً فلا يعتز بدينه، ورحم الله من قال:

ومما زادني فخراً وتيهاً * وكدت بأخصي أطأ الثريا**

دخولي تحت قولك يا عبادي * وأن أرسلت أحمد لي نبيا**

ارفع رأسك واعتز بتوحيدك، أم (أرفع رأسك لتقطع) أعلن هويتك بكل كرامة، وأعلن السنة، تمسك بهذا الدين فأنت لك

وظيفة، أنت لك غاية، لا تعش كهؤلاء الذين قال الله في حقهم :
﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾
[الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ
الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

إن هذه الأعراض كانت نتيجة لأسباب عديدة، وهذا هو
عنصرنا الثاني.

أسباب الهزيمة النفسية في واقعا عديدة عجيبة؛ منها
أسباب داخلية وأخرى خارجية

الأسباب الداخلية؛ قال الله - عز وجل - : ﴿أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ
مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ
أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:
١٦٥]. الهزيمة من عند أنفسنا من الداخل.

أولاً: الأسباب الداخلية:

السبب الأول: ضعف الإيمان عند غالب المسلمين: أيها
الحبيب: هذا بلا منازع أخطر سبب من أسباب الهزيمة النفسية،
والإيمان ليس قولاً باللسان فحسب، ولكن الإيمان قول باللسان،
وتصديق بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان.

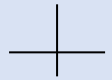
الإيمان يزيد وينقص، ويقوى ويضعف، وهذا أصل من أصول

أهل السنة، وقد جسد لنا الحبيب هذه الحالة تجسيدًا دقيقًا في حديثه الصحيح الذي رواه أبو النعيم من حديث علي -رضي الله عنه- مرفوعًا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "ما من القلوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر، بينا القمر مضيء إذ علتة سحابة فاضلم، إذ تجلت عنه فأضاء."

فكذلك القلب، تعلوا القلب من آن لآخر سحب مظلمة من آثار المعاصي والذنوب، فتضعف الإيمان في القلب، فإذا زاد الإيمان وذاق الإنسان حلاوته انقشعت تلك السحب وأشرق القلب بأنوار التوحيد، وقوي صاحب هذا الإيمان.

إذا أردت أن تتعرف على سر الإيمان إذا استقر وازداد في القلوب فبسرعة ارجع إلى التاريخ وعد إلى أصحاب الحبيب محمد الذين حوّلهم الإيمان من رعاة الإبل والبقر والغنم إلى سادة وقادة لجميع الأمم، انطلقوا بهذا الإيمان إلى أعظم الإمبراطوريات على هذه الأرض، وأقاموا للإسلام دولة وسط صحراء تموج بالكفر موجًا في مدة لا تساوي في حساب الزمن شيئًا.

الإيمان هو الذي جعل هذا البدوي الذي لا ذكر له في أرض الجزيرة يُرفع إلى عنان السماء يوم أن ترس بجسده على الحبيب المصطفى وجعل من ظهره حائط صد منيعًا لتتحطم عليه رماح



وسيوف الأعداء؛ ليحمي رسول الله ﷺ وهو يقول للحبيب: نحري دون نحرك يا رسول الله.

الإيمان هو الذي جعل هذا العربي البدوي في أرض الجزيرة يقول للحبيب ﷺ والله لا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن نقول لك يا رسول الله: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.

إنه الإيمان، إنه الإيمان الذي يصنع الأعاجيب، فضعف الإيمان سبب خطير من أسباب الهزيمة النفسية عند غالب المسلمين في هذه الأيام، أسأل الله أن يزيد إيماننا وإيمانكم، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

السبب الثاني: ترك الجهاد في سبيل الله: ترك الجهاد يساوي الذل والهوان والاستسلام، وهذا هو كلام الصادق الذي لا ينطق عن الهوى، ففي الحديث الصحيح الذي رواه أحمد وأبو داود من حديث ابن عمر أنه قال ﷺ: ((إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضَيْتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ))

إنه الذل، إنه الهوان بترك الجهاد.

إن أعداء الأمة يعلمون علم اليقين أن الأمة إذا رفعت من



جديد راية الجهاد في سبيل الله لأذلت الشرق والغرب، ولذا هم يحرصون كل الحرص على أن تُنحَى الأمة عن الجهاد وروح الجهاد، وعلى ألا تُربّي هذه الأجيال على سير الجهاد وسير الأبطال الفاتحين، لتظل الأمة ذليلة مبعثرة كالغنم في الليلة الشاتية الممطرة.

لا عزّ لهذه الأمة إلا إذا عادت من جديد لترفع راية الجهاد في سبيل الله العزيز الحميد، ولترفع ذروة سنام هذا الدين.

السبب الثالث: عدم المعرفة عند غالب المسلمين بطبيعة الطريق: إن الطريق إلى الله ليس هيناً، إن الطريق إلى الله ليس مفروشاً بالورود والزهور، بل إن الطريق مفروش بالدماء والأشلاء، محفوف بالعنت وبالأذى والابتلاء، فيأتي كثير من الناس يردد كلمة الإيمان يحسبها سهلة هينة، يرددها في وقت الرخاء وهو يظن أن الكلمة هينة، فإذا ما تعرض على الطريق لأول محكّ عملي من الفتن والأذى انقلب على عقبيه وتخلي عن طريق الله - جل وعلا-، فهو يردد كلمة التوحيد والعقيدة، فإن رجحت فهو مع الراجحين، قال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

فلا بد من معرفة طبيعة الطريق حتى لا تنزلق مع أول منعطف من المنعطفات على طريق المحن والفتن والابتلاءات؛ قال الله تعالى: ﴿الم * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت ١-٣].

لا بد أن تعي هذه الطبيعة حتى لا تنقلب على عقبك، فمن ينقلب على عقبه فلن يضر الله شيئاً، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

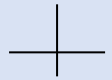
السبب الرابع: عدم المعرفة عند غالب المسلمين بالقدرات والإمكانات والطاقات مع قلة الطموحات: فهذا سبب خطير من أسباب الهزيمة النفسية، دائماً ما نقلل من شأن الطاقات والقدرات والإمكانات الهائلة التي مَنَّ الله بها علينا، من أرض ومناخ وأموال وثروات وعنصر بشري هائل جبار، فضلاً عن هذا الدين العظيم وهو الإسلام الذي رَضِيَهُ اللهُ تعالى للبشرية كلها ديناً، ومع ذلك ترى من أبناء هذه الأمة من يقلل من قدر هذه القدرات والطاقات والإمكانات.



إن أموال المسلمين اليوم هي التي تدير دفعة السياسة العالمية في بنوك الشرق والغرب، إن عقول المسلمين والعرب هي التي تخطط وتبني في بلاد الشرق والغرب، اسألوا عن علماء الذرة، اسألوا عن علماء الطب إنها عقول إسلامية وعربية حُجِر عليها في بلادها فقبولت بقانون الروتين القاتل للإبداع، فرحلت فاستُقبلت في بلاد الشرق والغرب استقبال الأبطال الفاتحين، ومنحوا الإمكانيات الهائلة للعمل والعطاء والإبداع فأبدعوها، وهذا واقع نعيشه الآن.

إن سلاحًا واحدًا كسلاح البترول استخدمه المسلمون والعرب استخدامًا صحيحًا للحظات فانقلبت الموازين كلها في العالم. إن عندنا قدرات وطاقات وإمكانات وثروات هائلة، ولكننا لا نحسن الاستخدام، ونقلل دائمًا من شأن هذه القدرات والطاقات في الوقت الذي لا نرى فيه طموحًا على الإطلاق، لا يمكن أبدًا أن نرى شابًا يطمح الآن إلا في أن يتخرج من الجامعة، وأن يتزوج بفتاة جميلة، وأن يسكن سكنًا مؤثثًا تأثيثًا فاخرًا، وإن من الله عليه بسيارة فالحمد لله. وهكذا.

هل فكر في هذا الدين؟! هل فكر في أن يغير أمته؟! أبدًا، لا



يفكر في هذا؟! ولا يطمح لهذا؟! ويظل المسلم غالبًا لا ينظر إلا تحت قدميه!! ليس عنده طموح... ليس عنده هدف.

السبب الخامس: النظرة الضيقة للزمان والمكان: شبابنا الآن ينظرون للمكان والزمان نظرة ضيقة، فتصيبهم هذه النظرة باليأس والقنوط، كيف؟! كثرت الفتن، قل المستقيمون على أمر الله تعالى، كثرت المتبرجات، الكتائب توقفت، حصص التربية الإسلامية تقلصت، المناهج تغيرت وتبدلت إذاً بعد فترة لن نرى حافظاً للقرآن كل ذلك لمصلحة من؟!.

هذه النظرة الضيقة للمكان الذي يعيش فيه تصيبه باليأس والقنوط، فيهزم هزيمة نفسية قاتلة، فيشل عقله وفكره، بل وحركته إن كان يستطيع أن يفعل شيئاً، يتوقف تمامًا عن فعل أي شيء مع أنه لو خرج بها من قريته أو مدينته أو دولته ونظر نظرة أوسع، ونظرة أشمل إلى المكان، تعلّم يقيناً أن الأرض ما خلت ولن تخلوا أبداً من أبناء الطائفة المنصورة التي لا يخلو منها زمان ولا مكان بشهادة الصادق سيد ولد عدنان.

كن واسع النظرة، كن شموليّ النظرة كذلك، لا تنظر إلى الزمان نظرة ضيقة، فشبابنا الآن يقولون: ضاع الدين، هزمت الأمة، إن الإسلام يتعرض لأشد الهجمات، بل إن المسلمين يتعرضون لأشد



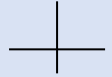
الضربات بأيدي الأعداء، يقولون: إذا لا فائدة، إلى آخر هذه الكلمات، مع أنه لو نظر نظرة واسعة للزمان لعلم يقينًا أن الأمة قد نكبت نكبات أشد، ومع ذلك غير الله تعالى الواقع وبدل الله عز وجل الحال.

إني أقول وأنا على يقين: إن هذا الواقع سيتغير لا محالة، وإن هذا الحال سيتبدل لكن بأيدي من اصطفاهم الله تعالى.

كما تغير الحال من قبل فلقد هجم التتار على المسلمين، فملئت شوارع بغداد بأكوام اللحوم والأشلاء، بل ولم تصل صلاة جماعة في مسجد واحد من مساجد بغداد أربعين يومًا، إلى هذا الحد؟! نعم أغلقت المساجد. كان المسلم يخشى أن يخرج إلى المسجد خوفًا من القتل. كان المسلم إذا رأى التتاري، يقف في مكانه لا يتحرك خطوة حتى يأتي المجرم ليقتله، انظر إلى حجم الهزيمة من الداخل.

ومع ذلك سلب الله تعالى على التتار من هزمهم شر هزيمة، وغير الله تعالى الحال وبدل الله عز وجل الواقع.

وماذا فعل الصليبيون هجموا على المسلمين، ووضعوا الصلبان على كل حوائط المسجد الأقصى، بل ومنعت الصلاة في المسجد الأقصى واحدًا وتسعين عامًا، تدبر وتذكر التاريخ، ومع ذلك



قيض الله تعالى للأمة وللأقصى من يطهره، ويرده إلى أيد المسلمين
وبدل الله الحال وغير الله تعالى الواقع.
وإن كان الله قد قيض للأقصى من يطهره فإننا على يقين جازم
أن الذي قيض للأقصى من طهره حي لا يموت.

فلئن عرف التاريخ أوساً وخزرجاً * فله أوس قادمون وخزرج**

وإن كنوز الغيب تخفي طلائعاً * صابرة رغم المكائد تخرج**

لقد هجم القرامطة على المسلمين في بيت الله الحرام، فقتلوا
المسلمين في الكعبة وهم يلبسون ملابس الإحرام، وامتلاً بيت الله
بالدماء والأشلاء، وانطلق المجرم أبو طاهر القرمطي قائد القرامطة
فانتزع الحجر الأسود من الكعبة المشرفة، ورفع رأسه إلى السماء
وصرخ في جوف بيت الله وقال: أين الطير الأبايل؟! أين الحجارة
من سجيل!؟

إنها فتنة تعصف بالقلوب، وظل الحجر الأسود بعيداً عن
الكعبة المطهرة ما يزيد على عشرين عاماً. ومع ذلك غير الله تعالى
الحال وبديل الله عز وجل الواقع.

فلا يأس ولا قنوط، ولا تنظروا للزمان نظرة ضيقة، فهذا من
أخطر أسباب الهزيمة النفسية الداخلية.



أما الأسباب الخارجية للهزيمة النفسية: ففراها في السبب الخطير: التضخيم والتهويل من قوة أعداء الإسلام: وترُّ يُعزف عليه بالليل والنهار بقصد أو بغير قصد، قوة الأعداء، القنابل النووية، القنابل الجرثومية، الصواريخ، والطائرات والدبابات، العلم والتكنولوجيا.

وأنا لا انفي ما وصل إليه الغرب في هذا الجانب، ولكن ينبغي أن نعلم يقيناً أن الله - عز وجل - ما أمر المسلمين بالإعداد إلا على قدر الاستطاعة، فقال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وعبرَ الله - جل وعلا - بالقوة بصيغة التنكير؛ لبحث المسلمون عن القوة التي تناسب كل عصر وكل مصر: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فما علينا إلا أن نبذل أقصى ما في استطاعتنا، فإن علم الله تعالى منا أننا قد عملنا أقصى ما في طاقاتنا وما في وسعنا فلنصبر ولنطمئن، وكلُّ النتائج بيد الله تعالى القائل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ

رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴿المدثر: ٣٠﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ
لِبِالْمِرْصَادِ ﴿الفجر: ١٤﴾، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا
وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿غافر: ٥١﴾

والله لو علم المسلمون قدر قوة الله وازداد إيمانهم وثقتهم بالله
تعالى، لغير الله عز وجل الحال ولبدل الله تعالى الواقع؛ لأن الله -
عز وجل - لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

فلنعد إلى الله ابتداءً ، ولنحقق الإيمان لأن الله قد علّق النُصرة
به : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فلا نبغي أن نضخم
من قوة الأعداء في الوقت الذي يجب علينا فيه أن نبذل أقصى
ما في استطاعتنا لإعداد القوة، وقد شاء الله تعالى أن يرينا كيف
أرغم الفيتناميون أمريكا ووضعو أفتهم في التراب، وكيف وضع
الصوماليون الحفاة العراة الجياع أنف أمريكا في التراب، يوم أن
جر شباب الصومال بعض الجنود الأمريكيين في الشوارع
والطرق، ونقلت وكالات الأنباء هذه الصور فاضطرت أمريكا
أن تسحب جيوشها من الصومال في الحال.

والأفغان يوم أن صدقوا الله تعالى ورفعوا الراية للجهاد في سبيل
الله وضعوا أنف الدب الروسي في التراب، ويوم أن رفعوا الراية



للعصبية المنتنة سلط الله تعالى بعضهم على بعض لنعي سنة ربانية لا ينبغي أن نتجاهلها أبداً.
 فيجب علينا أن نعي هذه الحقيقة وألا نبالغ، لأن هذه المبالغة تزيد المهزوم هزيمة، وتزيد المنتصر على نفسه خذلاناً وتكاسلاً.

ما هو العلاج؟! العلاج فيما يلي:

أولاً: معرفة أسباب الداء؛ فإن تشخيص الداء نصف الدواء.

ثانياً: العودة إلى النبع الصافي إلى كتاب الله تعالى وسنة رسول الله، وتربية أفراد الأمة على العقيدة الصالحة بشموها وكمالها، ولا بد أن نعي أن العقيدة الآن هي التي تحرك العالم كله، فالحرب في الشيشان حرب عقدية، والحرب في الصومال حرب عقدية، والحرب في فلسطين عقدية، والحرب في كشمير حرب عقدية، والحرب في البوسنة حرب عقدية، فلا بد أن نربي الجيل على العقيدة الصحيحة بشموها وكمالها.

ثالثاً: التخلص من الوهن كما في الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود من حديث ثوبان أن النبي ﷺ قال: "يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها"، قالوا: أمن قلة يا رسول الله؟! قال: "لا، إنكم كثير،

ولكنكم غناء كغناء السيل، ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم، وليقدفن الوهن في صدوركم"، قيل له: وما الوهن يا رسول الله؟! قال: "حب الدنيا وكراهة الموت."

رابعاً: تربية شباب الأمة على روح الجهاد في سبيل الله تعالى.

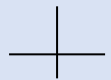
خامساً: العودة الصحيحة إلى التاريخ وسير السلف الصالح؛ لا مجرد الثقافة الذهنية الباردة، وإنما لأخذ العبر من ناحية، ولتدفق في عروق الأجيال دماء الغيرة والعزة والكرامة من ناحية أخرى، أما آن أوان إقامة المحاضرات والندوات الكبرى لتأصيل الانتماء ونشر الوعي ومواجهة رياح التغريب وعدم ترك الساحة لأصحاب الخطاب الإسلامي المبدّل المبتدع الذين يبيعون دينهم بدنياهم فلم تعد لهم مصداقية عند الجماهير المتعطّشة للخطاب المنزّل الذي ينير العقول ويرقق القلوب وينشط المؤمنين ويقيهم أنواع الزيغ والتعثّر.

أما آن أوان رجوع الفتاة المسلمة إلى سلك الاستقامة والدعوة، فكم خسرت منذ خمدت جذوة الدعوة وغاب الدعاة، حتى أنّها تخلّت نهائياً _ أو تكاد _ عن اللباس الشرعي لتتبرّج تبرج الجاهلية الأولى وهي تضع على رأسها غطاءً هو أقرب إلى شاهد



زور !!! هذا فضلاً عن غيابها عن ساحات العمل الإسلامي والدعوة والمرابطة على ثغور الإسلام، ليتخطفها دعاة الموضة والمساحيق والميوعة بعد أن كانت إبان الصحوة المباركة علامة على القوة والفضيلة والاستقامة.

وأخيراً: الاعتزاز المطلق بهذا الدين وبنصرة رب العالمين، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَنْفِقُوهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، وقال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].



١٦ - وقبل الخاتمة يرد سؤالاً في غاية الأهمية كيف للعامي أن يتعرف على العلماء الربانيين؟

وللإجابة عن هذا السؤال لا بد أولاً: أن نعرف من هو العالم الرباني:

العالم والفقير والمجتهد ألقاب تدل على معنى واحد، وهو مَنْ يبذل جهده في الوصول إلى الحكم الشرعي، وتكون عنده القدرة على استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها.

وهذا يحتاج إلى تحصيل أدوات هذا الاجتهاد، فلا يوصف بهذا الوصف (العالم أو المجتهد أو الفقيه) إلا من توفرت فيه شروط الاجتهاد.

وقد اعتنى العلماء رحمهم الله بهذه الشروط، حتى لا يُفتح الباب لكل أحد، من صغير أو كبير، أن يقول في دين الله تعالى ما لا علم له به.

وأنقل هنا قول الإمام الشوكاني رحمه الله في بيان هذه الشروط.

وحاصل ما ذكره الشوكاني رحمه الله، خمسة شروط:

الشرط الأول: أن يكون عالماً بنصوص الكتاب والسنة.

ولا يشترط أن يكون حافظاً للسنة، بل يكفي أن يكون متمكناً من استخراجها من مواضعها، وأكد ذلك العلم بما في دواوين السنة المشهورة، (صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي وسنن النسائي وسنن ابن ماجه) وما يلتحق بها.

ويكون عالماً بالصحيح منها من الضعيف.

الشرط الثاني: أن يكون عارفاً بمسائل الإجماع.

الشرط الثالث: أن يكون عالماً بلسان العرب.

ولا يشترط حفظه له عن ظهر قلب، وإنما يتمكن من معرفة معاني اللغة وخواص تراكيبيها.

الشرط الرابع: أن يكون عالماً بأصول الفقه، ومنه: القياس،

لأن أصول الفقه هو الأساس الذي يُبنى عليه استنباط الأحكام.

الشرط الخامس: أن يكون عالماً بالناسخ والمنسوخ.

فمن توفرت فيه هذه الشروط فهو العالم، الذي يستطيع استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها، وما دون ذلك فلا يصح أن يوصف بأنه عالم أو فقيه أو مجتهد.

وينبغي أن أنبه إلى أمر هام: إلى أن هذا الوصف (العالم أو المجتهد أو الفقيه) مصطلح شرعي، له معناه عند العلماء، وله شروطه، فلا يجوز التساهل في إطلاقه على كل من تكلم في الأحكام الشرعية، أو درس المواد الإسلامية في المدارس والجامعات، أو عمل في الدعوة إلى الله تعالى، فقد يكون الرجل داعية إلى الله تعالى، ويبذل فيها جهده، ولكنه لم يصل إلى درجة العالم.

وإيكم بعض الأمارات والعلامات التي يمكن الاستعانة بها في معرفة العالم الرباني، وهي:

أولاً: أن يستدل في كلامه بالقرآن والسنة.

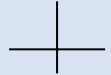
فعلامه العالم الفقيه المتأهل للفتوى الاستدلال بآيات الكتاب الكريم، وأحاديث النبي ﷺ، وتمييز صحيحها من سقيمها، والناسخ والمنسوخ، والخاص والعام، ومعرفة دلالتها وسياق نزولها، ذلك لأن العالم الحق هو الذي يقدم القرآن الكريم في سلم أولوياته؛ لأنه منبع العلم، ومصدر الفقه، وعليه مدار التشريع والأحكام.



ثانيا : حسن التدين والأخلاق الحسنة.

ومن علامات العالم الرباني أنه متمسك بدينه ويشهد له بحسن التدين التام والأخلاق الحسنة الفاضلة، مع الحرص على الاقتداء بالرسول ﷺ وبالسلف الصالحين، من الصحابة والتابعين، والأئمة الأعلام المتبوعين، فلا يخرج عن هديهم العام، وكل فتوى أو كلمة تصدر منه يعزوها لأحد الأئمة السابقين، كأبي بكر وعمر، وسفيان والأوزاعي، وأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، والغزالي والعز بن عبد السلام والنووي، وابن تيمية وابن القيم وابن كثير وابن حجر، وغيرهم من علماء الإسلام الذين لا يختلف المسلمون في إمامتهم وديانتهم .

فإذا وجدت أحد الناس اليوم لا يعتمد قول هؤلاء العلماء، ولا يرفع بهم رأساً، ولا يتقيد بمناهجهم العامة في علوم الشريعة، أو ينتقدهم أو يقلل من شأنهم، أو ينتقصهم ويسخر منهم؛ فاعلم أنه ليس من " التابعين بإحسان "، بل هو ممن أسأؤوا الاتباع، واختاروا الابتداع .



والمقصود هنا أنه يتبع مناهج العلم المعتمدة، وليس التقليد الأعمى في كل كبيرة وصغيرة، فكل يؤخذ من قوله ويرد إلا النبي

ﷺ

ثالثا: لا ينتسب لطائفة أو فرقة بل يحمل وصف أهل السنة والجماعة.

ومن أبرز علامات العالم الرباني الحق ، والمفتي العدل ، أنه لا ينغلق على طائفة معينة ، ولا ينفرد عن الأمة باسم أو وصف ، بل انتسابه لرحم هذه الأمة وعمقها الضارب في التاريخ الإسلامي كله ، أما من ينتمي إلى فرقة عقائدية خاصة ، كالباطنية (١) أو

(١) أصل الباطنية المجوس الذين ذهب ملكهم على يد الفاتحين من المسلمين، فمكروا وتحركوا لإعادة نار المجوس الذين يعظمون الأنوار والثيران والماء والأرض، ويقرون بنبوة زرادشت، ولهم شرائع يرجعون إليها ، وإن من أقوى المؤثرات الفكرية التي ساعدت الفكر الباطني على الانتشار دعوى الإسماعيلية وأتباعها بوحدانية الأديان، والباطنية أسست في عهد الخليفة المأمون على يد الزنديق ميمون بن ديسان القداح وهدفها الرئيسي إبطال الشريعة بأسرها والقضاء على الدين ونسخه فهم أصحاب ملة خبيثة قال فيهم الإمام الإسفراييني رحمه الله في كتابه (التبصير في الدين) "و فتنهم على المسلمين شر من فتنة الدجال فإن فتنة الدجال إنما تدوم أربعين يوما وفتنة هؤلاء ظهرت أيام المأمون وهي قائمة بعد."

الديوبندية (١) أو القاديانية (٢) ونحوها ، أو ينفرد عن وصف " أهل السنة والجماعة " باسم مستحدث وهيكل تنسُّكي خاص ، فغالبا ما يكون ذلك علامة على البدعة والخروج عن السنة ؛ إذ لو كان المعتقد الذي يحمله هو معتقد المسلمين من أهل السنة لما احتاج إلى أن يخرج إلى وصف آخر ، أو أن يتسمى بغير ما سماه الله به ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ

(١) "ديوبند" هي بلدة في ولاية أوترا براديش، اكتسبت شهرتها من أجل الجامعة الإسلامية الشهيرة "دار العلوم" التي تأسست فيها عام ١٢٨٣هـ، والديوبندية مدرسة فكرية أسسها مجموعة من علماء الهند ونمت حتى أصبحت أكبر المعاهد الدينية العربية للأحناف في الهند.

(٢) القاديانية طائفة كافرة، ونحلة هدامة، ظهرت في أوائل القرن الرابع عشر الهجري في أرض قاديان من أرض الهند على يد رجلٍ اسمه ميرزا غلام أحمد القادياني، واتخذت من الإسلام شعاراً؛ لستر أغراضها الخبيثة، وعقائدها الفاسدة ، وهم أتباع ميرزا غلام أحمد القادياني، وسموا بذلك نسبة إلى البلد الذي ولد فيه هذا المتنبئ الكذاب.... للقاديانية اسم آخر، فهم في أفريقيا وغيرها من البلاد الإسلامية يسمون أنفسهم: (أحمدية) تزويراً على المسلمين.

والحقيقة أنه لا علاقة لهم برسول الله ﷺ " الذي اسمه أحمد، وإنما النسبة لمتنبئهم أحمد القادياني. أما في باكستان والهند فيعرفون بالقاديانية .

مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ (الحج/٧٨) .

أما الانتساب إلى الأعمال الدعوية للتعاون على برامج عملية، فليس هو المحذور المقصود هنا، وكذلك الانتساب الفقهي لأحد المذاهب الأربعة دون تعصب، بل المقصود الانتساب العقائدي لفرقة تتبنى توجهها عقائدياً خاصاً ليس من عقائد أهل السنة والجماعة، وتجتمع عليه، وتوالي وتعادي عليه.

رابعاً: يشهد له العلماء بالعلم.

ومن أهم العلامات أن يكون هذا المفتي أو العالم ممن استفاضت شهرته وثقته وعلمه بين النخب العلمية، والأوساط المتخصصة، وليس فقط بين عامة الناس، بل يشهد له العلماء والمختصون بالفهم والحدق، ويسلمون له بالإتقان والحجة، ونستدل هنا بما ذكره علماء الحديث في طرق إثبات عدالة الراوي، وذلك عند قول ابن الصلاح رحمه الله: "تارة تثبت بتنصيب معدلين على عدالته، وتارة تثبت بالاستفاضة، فمن اشتهرت عدالته بين أهل النقل أو نحوهم من أهل العلم، وشاع الثناء عليه بالثقة والأمانة،



استغني فيه بذلك عن بينة شاهدة بعدالته تنصيها ، وهذا هو الصحيح في مذهب الشافعي رضي الله عنه ، وعليه الاعتماد في فن أصول الفقه " انتهى من " مقدمة ابن الصلاح " (ص/١٠٥) .

فالشهرة بالعلم بين الأوساط العلمية علامة كافية للجوء إلى هذا العالم وسؤاله فيما أشكل من أمر العلم .

ولكن جميع ما مضى يبقى في دائرة العلامات، وليست وسائل للجزم واليقين، فالجزم لا يتمكن منه إلا المختصون بذلك العلم نفسه .

يقول ابن الصلاح رحمه الله:

"يجب عليه [يعني العامي المقلد] قطعاً البحث الذي يعرف به صلاحية من يستفتيه للإفتاء ، إذا لم يكن قد تقدمت معرفته بذلك ، ولا يجوز له استفتاء كل من اعتزى إلى العلم ، وإن انتصب في منصب التدريس أو غيره من مناصب أهل العلم ، بمجرد ذلك .

ويجوز له استفتاء من تواتر بين الناس أو استفاض فيهم كونه أهلاً

للفتوى .

وعند بعض أصحابنا المتأخرين: إنما يعتمد قوله: أنا أهل للفتوى، لا شهرته بذلك، والتواتر؛ لأن التواتر لا يفيد العلم إذا لم يستند إلى معلوم محسوس، والشهرة "بين" العامة لا يوثق بها، وقد يكون أصلها التلبيس .

ويجوز له أيضاً استفتاء من أخبر المشهور المذكور عن أهليته، ولا ينبغي أن يكتفي في هذه الأزمان بمجرد تصديه للفتوى واشتغاره بمباشرتها، لا بأهليته لها " ينظر " أدب المفتي والمستفتي " (ص: ١٥٨)، ونقله النووي في " المجموع " (١/٥٤)، وابن تيمية كما في " المستدرک على مجموع الفتاوى " (٢/٢٥٩).



١٧ - خاتمة:

ومن خلال ما كُتب في هذا البحث للإجابة عن الأسئلة المطروحة، والذي وقع فيه قلبي من التقصير يتبين لنا كيف اعتنى الإسلام بالربانية، ولقد أراد الله تعالى من عباده أن يكونوا ربانيين، ومن خلال هذا البحث خلصت إلى هذه القواعد والنتائج:

١ - إن كلمة "الربانيون" كلمة جميلة عظيمة المعنى والمبنى فما أجملها من كلمة حين التلُّفُظ بها، وما أجملها من كلمة حين نُترجمها واقعاً وعملاً ترجمةً عمليَّةً لتكون لنا نوراً نُبصر به ونسير به بين الناس، فلا توقفنا أو تعرقلنا عتمةً طريق، ولا تُكبلنا أو تُقعدنا مكاييد الحاقدين والعائنين والحاسدين والساحرين والمفسدين والماكرين، ولا تُحبطنا أحزان ولا مصاعب، فنظل ربانيتنا نتحصن، نستظل، ومعها نعيش وبها نحيا، وبتطبيقها نسعد، وفي فلکها يطيب عيشنا ونسكن ونفوز.

٢ - إن من أهم القواعد التربوية الربانية والقوانين الاجتماعية تلك القاعدة القرآنية التي تمثل السنة الإلهية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ

مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴿١١﴾ (سورة الرعد، آية ١١).
 وقوله سبحانه في سورة الشمس: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧)
 فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ
 خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)﴾. تبدأ سورة الشمس مع قسم عظيم
 بسبعة مخلوقات وهي (الشمس، والقمر، والليل، والنهار،
 والسماء، والأرض، والنفس) وجواب القسم ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ
 زَكَّاهَا..﴾ وذلك للتأكيد على عظمة وأهمية التربية الربانية
 للنفس البشرية والتحذير من عاقبة إهمالها.

٣ - إن هذه التربية الربانية قائمة على التدرج يُقرّر القرآن
 الكريم أن التربية ليست عملية تحوّل مفاجئ في السلوك؛ وإنما هي
 عملية تحتاج إلى تدرج في التوجيه شيئاً فشيئاً؛ حتى تؤتي هذه
 العملية ثمارها المرجوة. وهذا التدرج قد اختاره الله تعالى لنفسه في
 إنشاء هذا الكون، فإن الله سبحانه وتعالى مع قدرته وحوله لم
 يخلق الكون دفعة واحدة، ولا حتى الإنسان الضعيف، وإنما هي
 سنته في التدرج، مع أنه سبحانه قادرٌ على أن يقول للشيء: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، ولكنها حكمته سبحانه في خلقه، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥]. لذلك؛ فإن من طبع

الإنسان أنه لا يتغيّر فجأة، إنما يحتاج إلى تقديم، وتقريب، وتجريب، وحثّ على التغير؛ حتى يغيّر من سلوكه، وقد راعت التربية القرآنية التدرّج، والمتأمّل في القرآن الكريم يرى أن أول ما نزل من القرآن كان في العهد المكي؛ حيث لم تثبت أركان الدعوة بعد؛ لذلك إذا نزل الأمر بالعبادات وتحريم المنكرات إذا لارتاب المؤمنون، ولازداد الكافرون كُفراً وصدّاً عن سبيل الله تعالى، ولكن هذا المجتمع يحتاج إلى إقناع ودعوة إلى هذا الدين الجديد؛ لذلك كان أول ما نزل من القرآن تبشيراً وتحذيراً وتنبيهاً إلى عاقبة السابقين من الأمم الذين كفروا برسولهم، ثم بعد هذه المرحلة، ومع بداية العهد المدني نزلت الأوامر بالعبادات، وتحريم المنكرات، مع مراعاة التدرّج.

ومن مظاهر هذا التدرج تحريم الخمر، كان الناس قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم يشربون الخمر ويحبونها، وظلّ هذا الأمر مستمرّاً حتى بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ولكن بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وبعد تثبيت أركان الدولة الإسلامية، كان لا بد من تحريم الخمر التي كان لها مفاسد ينوء بالمقام ذكرها، ولكن لو نزل الأمر مباشرةً بالتحريم دون تدرّج مع هؤلاء الناس الذين ألقوها وعدّوها جزءاً من حياتهم، لحدث ما لا تُحمد عقباه، ولكن الله تعالى هو خالقهم، وأعلم بما يصلح لهم، فبيّن سبحانه

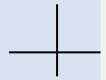
أن الخمر فيها منافع، ولكن إثمها أكبر من نفعها، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]. فكانت هذه الآية تحذيراً لهم وتنبيهاً على خطرهما، ثم نزل بعد ذلك التحريم في أثناء الصلاة تدرجاً معهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣]، وكان هذا أمراً بتحريمها نهائياً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].



٤ - إِنَّ الْإِنْسَانَ "الرَّبَّانِي" علماً وسلوكاً وحالاً هو مزيج بين الرُّوحاني والعقلي والمجتمعي، يسعى دوماً للمعرفة، واضح الرؤية، عميق المأخذ، ذو علمٍ راسخ، وعملٍ جادٍ مُخلص يؤديه بورع وتواضع، يبني نفسه ويبني غيره، يعمل بما عِلْم، ويُعَلِّم ما تعلَّم، يشق لقومه الطريق نحو الفلاح والنجاح، يُربِّيهم، يعلمهم الخير فهو معلم الناس الخير، يدعوهم لما فيه مصلحتهم، سعيّ دائم لا يعرف الكلل نحو الكمال والخير وعمارة الأرض.

ومن هنا، تأتي أهمية هذا الأمر الإلهي " **كُونُوا رَبَّانِينَ** "، الذي يمثل عمق بناء شخصية الإنسان، المتخلِّق بأخلاق الله تعالى المتبع لرسول الله ﷺ الذي كان خلقه القرآن.

لأن القدوة الحسنة من القواعد الهامة في التربية الربانية فهي من أقوى الوسائل في التأثير لذلك حذر سبحانه وتعالى من التناقض بين القول والعمل كما في سورة الصف فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)﴾.



٥ - إن التربية الربانية المنشودة هي التربية التي ترجع الناس إلى خالقهم فيعلمون أنه وحده صاحب القوة والحول وصاحب الجبروت والسلطان هو المالك لكل ما في الأرض بيده ملكوت كل شيء ؛ فلا يتطلعون لأحد غيره ولا يتعبدون لأحد سواه ومن ثم تتحرر قلوبهم وأرواحهم ويتطلعون خفافاً إلى الله عز وجل لقد أراد النبي ﷺ تربيتهم على الرجوع إلى خالقهم فيهتدون بهديه ويسيرون على منهجه ولا يسيرون على نهج أحد آخر ولا قوة أخرى من قوى الأرض لأنها كلها ضعيفة هزيلة كلها ضائعة مضيعة كلها زائلة فانية والقوة الحقيقية هي قوة الله عز وجل والسلطان الحقيقي هو سلطانه جل وعلا والمنهج الصحيح منهجه ومن ثم تصلح نفوسهم وتصلح حياتهم على الأرض يرجع الناس إلى خالقهم فيحسون بقوتهم إزاء كل قوى الأرض قوتهم التي يستمدونها من قوة الله عز وجل فإذا هم قوة فاعلة موجهة مريدة قوة تبني وتنشئ وتعمر وتستغل ما سخر لها من قوى الأرض عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١٣) .



٦ - إن من أهم صفات القائد الرباني المبادرة، وهي مما تحتاجه اليوم ساحتنا، ولتكون إيجابية فلا بد من صنع القادة الربانيين؛ فإن من أحوج ما نكون إليه، صنع قادة ربانيين، قد رسخت في العلم أقدامهم بحيث لا يتلجلجون في تصور المسائل، وموازنة المصالح والمفاسد، يعملون بعلمهم، ويجتهدون في العمل، ويدعون إليه، ويربون الناس عليه، يحولون آراءهم إلى مشاريع عملية، تثبت وجودها في المجتمعات المسلمة، وتثمر فيها الثمار اليانعة.

٧ - وإن من القواعد الأصولية في التربية الربانية أن الفرد يتأثر بجماعة الأقران وأصل هذه القاعدة بالنسبة للمسلم أن الدين الإسلامي حث على صحبة الصالحين فالمرء على دين صاحبه كما ورد في مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: ((قَالَ الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدَكُمْ مَنْ يَخَالِلُ)). يعني أن الإنسان على دين خليله أي على عادة صاحبه وطريقته وأخلاقه ولذلك فليحذر في اختيار أصحابه ولينظر أي يتأمل ويتدبر من يُصاحب من أهل الفضل. وعند أبي داود في سننه باب الأدب عن النبي ﷺ قَالَ: ((لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيًّا)).

وكذلك التجارب الاجتماعية والدراسات النفسية والمصادر الأدبية تثبت صدق تلك القاعدة إلى حد كبير. ولقد أصّل أبو حامد الغزالي هذه القاعدة التربوية الاجتماعية العظيمة بقوله "وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء". ويرى أن الطباع مجبولة على التشبه والاقتراء بالآخرين وأن الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يشعر صاحبه. وهي ليست قاعدة حتمية ولكن في العادة الغالبة يتأثر الفرد بأصحابه سلباً وإيجاباً.

٨ - إنَّ التباين الحاصلَ حول تفسير لفظة " رَبَّانِيَيْن " وتقصّي المقصود منها لغويّاً، لا يُخرج الكلمة عن معناها البدّهي، الذي يصلّني ويصلّكم أيضاً من الوهلة الأولى لسَماعها؛ والذي يُمكننا اختصاره في أمر الله تعالى لنا أن نكون معه في كل أحوالنا، أن نستحضر مراقبة الله تعالى لنا، وعِلمه الذي وسع كل شيء، ونستحضر ذاته العليّة، ونظره السابق لنا، وقدرته علينا، وأنّ نستحضر كذلك عطفه، وإحسانه، ولطفه، ورحمته.. أن يعيش الإنسان مع الله تعالى، فنسب كلمة " رَبَّانِي " إلى الرّب عز وجل؛ يعني أنّ يكون المرء شديدَ القرب من الله تعالى، يتلقّى منه منهجه في هذه الحياة، ويعتمد عليه في سَيْرِهِ، وأنّ إليه مرجعه ومنقلبه.

ف" **كُونُوا رَبَّانِيَيْنَ** "؛ أي: كونوا علماء حُكماء وَعُقلاء، أَعْمَلُوا عقولكم بالنظر، والتفكير، والتدبُّر، والتأمل، والمعرفة، والقدرة التي تدفع إلى الشعور والتفكير. فالفكرة بالأساس في إعلاء دور العقل البشري وقدراته بالعلم والقراءة والمعرفة.

٩ - إنَّ تأويل "الربانية" هو "عَكْسُ الرهبانية"؛ فالربَّاني لا ينعزلُ على نفسه في بيته ذاكراً، مُسَبِّحاً، تالياً، قائماً، عابداً فحسب، أو مُرتكناً لنفسٍ مهزومة غير قادرة على إحداث التغيير.. إنّما الرباني الذي أَمَرْنَا أن نَكُونَهُ، ذو همة عالية، ونفس مُراقِبة، مستبشرة دوماً بالخير في الدنيا والآخرة، وهي رسالةُ الله تعالى التي جاءت بها كل الشرائع الأليهة، وتفرضها اليوم طبيعة الحياة، وحقيقة ديننا العظيم أن نكون عباداً ربانيين بمعنى الكلمة.

وإن العبد الرباني: عبد يجعل من ربه قصده وغايته ووجهته في كل صغيرة ظاهرة كانت أو باطنة، إذا قال فقولهُ لله الرب، وإذا كتب فحروفه لله الربّ، وإذا تزوّج فزواجه لله الربّ، وإذا عاشر فعشرته بالمعروف حسبةً لله الربّ، وبما يُرضي الله الرب، وإذا اكتسب المال اكتسبه بما يُرضي الله الرب، فالله الرب عنده هو

الرب ولا أحد سواه، وهو وحده الله المنتهى والغاية والمقصد والوجهة والقِبلة، والابتداء والانتهاء، هو كل ما يشغل البال ويأخذ الفكر ويستحقُّ وحده الشكر والثناء والعبادة وعظيم الذِّكر.

١٠ - إن مهمة إيجاد هؤلاء العلماء الربانيين يتمثل فيك أيها المسلم في معاملة ولدك، من منكم قال في نفسه: أنا نذرت ولدي هذا لله تعالى؟ وجد وسعى حثيثاً في تربيته على الهدف الذي يريد، من منكم فعل هذا وبدأ يقوم لولده الدعامة الأساسية، بأن يوصله إلى المشايخ الثقات لكي يتعلم، ويكون له مكتبة، فأول ما يشب الولد لا يرى إلا موضع الكتب، فينغرس في قلبه حب الكتب، وأنت لا تسمع عن أحد من العلماء النابغين إلا وأبوه كان عالماً، وجده كان عالماً... إلخ.

وإن غياب العالم الرباني عن أمتنا سبب في فقدان الأدب والأخلاق بين الناس فغياب العالم الرباني هو السبب في هذه النهضة العلمية التي لم تواكبها نهضة أخلاقية، وإن فقدان الشيوخ الربانيين هو السبب المباشر لغياب الأدب، ولا يتصور أحد أن التلميذ كان يذهب إلى الشيخ يتلقى عنه علماً نظرياً فقط، إنما كان يتلقى عنه الأدب مع العلم، ومن أعظم ما استفاده التلامذة

من الأساتذة الكبار: الذل وانكسار النفس وذهاب الكبر؛ لأن هذا العلم لا يصلح إلا بتواضع وإخلاص نية وهذا كله يتلقاه التلميذ عن شيخه الرباني .

١١ - إن الفتوى في النوازل السياسية قاصرة على العالم الرباني المجتهد، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣].

قال العلامة ابن القيم -رحمه الله-: ((العالم بكتاب الله، وسنة رسوله، وأقوال الصحابة؛ فهو المجتهد في أحكام النوازل، فهذا النوع الذي يسوغ لهم الإفتاء، ويسوغ استفتاءهم، ويتأدى بهم فرض الاجتهاد، وهم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: ((إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)).

لا يُفتي في دقائق الجهاد إلا المجتهد، ويحرم استفتاء طلبة العلم في تلك الدقائق -فضلاً عن غيرهم- مهما زعموا أنهم فقهاء الواقع!!

قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: ((وفي الجملة؛ فالبحث في هذه

الدَّقَائِقُ - يَعْنِي مَا يَتَعَلَّقُ بِأَحْكَامِ الْاجْتِهَادِ - مِنْ وَظِيفَةِ خَوَاصِّ أَهْلِ الْعِلْمِ)).

لَوْ أَفْتَى فِيهَا مَنْ لَيْسَ فِي رُتْبَةِ الْعَالِمِ الْمُجْتَهِدِ أَفْسَدَ الْبِلَادَ، وَأَرْهَقَ الْعِبَادَ؛ لِأَنَّ الْعَالِمَ يَشُمُّ الْفِتْنَةَ قَبْلَ وَقُوعِهَا، وَأَمَّا غَيْرُهُ فَلَا يَعْرِفُهَا إِلَّا إِذَا وَقَعَ فِيهَا، وَقَدْ لَا يَعْرِفُهَا)).

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: ((إِنَّ هَذِهِ الْفِتْنَةَ إِذَا أَقْبَلَتْ عَرَفَهَا كُلُّ عَالِمٍ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ عَرَفَهَا كُلُّ جَاهِلٍ)).

يَنْبَغِي أَنْ يُعَادَ إِلَى أَهْلِ الْعِلْمِ الرَّبَانِيِّينَ الْاجْتِهَادِ الَّذِينَ يُحْسِنُونَ الْإِسْتِنْبَاطَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَيُحْسِنُونَ النَّظَرَ فِي سُنَّةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ.

١٢ - إن الربانية منهج إلهي على المسلمين أن يتمسكوا به ويعودوا إليه في ظل انبهارهم بالغرب فقد نسوا أو تناسوا مناهجهم الإسلامية النابعة من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، التي راعت جميع جوانب الإنسان بجنسيه على المستوى الفردي والجماعي، لا تهتم بجانب على آخر، فقامت عليها الحضارة بشقيها المادي والمعنوي، قادت البشرية ألف ومائتي عام، لم يُظلم في ظلها أحد، فشهد لها الغرب والشرق، والعدو

والصديق.

وإن كل النظم غير الإسلام أحد فريقين: فريق يصل الناس بالأرض فيستمتعون ويكافحون من أجلها ويعمرون فيها ويتركون الله عز وجل، والإسلام وحده هو الذي يصل الإنسان بالله تعالى ليصلح حاله على الأرض وينظم حياته فيسير بجسمه على الأرض وهو متجه بروحه إلى السماء.

فإن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى المعجز وهو كتاب التربية الأول والأخير للبشرية لا سيما المسلمون، الذي ينبغي أن تستقي منه جميع مناهجها التربوية وغير التربوية وأساليب حياتها.

وإن التربية القرآنية ذات منهج متكامل في كل مناحي الحياة؛ أخلاقية أو اقتصادية أو سياسية أو دينية إلى غير ذلك، يتحقق من خلال هذا التكامل التوازن والتوافق بين الإنسان ونفسه، وبينه وبين المجتمع الذي يعيش فيه، وبين المجتمعات بعضها لبعض، قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَالْحَمُّ الْحَنْزِيرُ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ
 الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرٍ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ
 فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾ [المائدة: ٣]. كما أن التكامل يعني أن
 اتجاهات التربية القرآنية في مجالات العقيدة، والعبادة، والسلوك
 الفردي والاجتماعي تترد كلها في وحدة محكمة، وفي صور شاملة
 للحياة كلها؛ أي: وَحْدَةَ الْمَصْدَرِ، وهو الله تعالى، وكذلك إلى
 وحدة الموضوع، وهو الإنسان، وأيضاً وحدة الغاية، وهي العبودية
 لله الواحد الأحد، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ
 كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾
 [النساء: ٨٢]، يستنكر القرآن في هذه الآية عدم تدبُّر المنكرين
 له في تشريعاته، وأحكامه، وتوجيهاته، وأوامره، ونواهيه، ولو كان
 من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً فضلاً عن الاختلاف
 القليل، ولكن لأنه من عند الله وحده تنزَّه عن كل ذلك، بل لو
 فعلوا لوجدوه متكاملًا متناسقًا متناسقًا يُكْمَلُ ويؤكد ويوضح
 بعضه بعضاً.

١٣ - إن غياب فقه التعامل مع الإيجابيات والمنكرات
 والسلبيات يفقد الأمة رشدها ويجعلها تتخبط في غياهب
 الظلمات، فتناسى الإيجابيات والتركيز على جانب السلبيات فقط

يقلب موازين الحياة؛ وذلك لأن المتغافلين عن الجانب المضيء في حياة الإنسان قد هدموا نصف كيانه؛ ليشرع هو ذاته في هدم النصف الآخر؛ لأن الجانب المضيء سيتحول إلى جانب مظلم، وساعتها سيهدم بعضنا بعضا ويتحول المجتمع إلى ركام أو ظلمات بعضها فوق بعض.

فهل تربينا التربية الربانية نحن اليوم على ذلك كله؟ هل ربينا أنفسنا على الاتصال بالخالق عز وجل ونظمنا حياتنا فسرنا بأجسادنا إلى الأرض واتجهت أرواحنا إلى الله عز وجل، إن ثمة أمور ينبغي للمسلم أن يفكر فيها كثيراً ويسعى جاهداً للتخلق والاتصاف بها حتى يقتدي بنا الآخرون إن الصحابة رضي الله عنهم استطاعوا أن يصلوا بأنفسهم أعلى مراتب درجات التربية الربانية وذلك عندما وجد عندهم المثل الحي والقذوة المثلى والتطبيق الواقعي للتربية وهو النبي ﷺ فما كان عليه الصلاة والسلام يأمرهم بأمر إلا وكان أول الساعين إليه ولم يكن ينهاهم عن نهي إلا وكان أول المنتهين عنه فلقد أدرك النبي ﷺ أهمية التربية بالقذوة لذلك بعثه الله ليكون قدوة للناس قال الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٢١).

لقد كان ﷺ قدوة للناس في واقع الأرض يروونه وهو بشر مثلهم تتمثل فيه مبادئ هذا الدين وصفاته وتشريعاته فيصدقون بهذه المبادئ الحية لأنهم يرونها رأي العين ولا يقرأونها في كتاب الله فقط بل يرونها في بشر فتتحرك لها نفوسهم وتحفوا لها مشاعرهم ويحاولوا أن يقتبسوا قبسات من النبي ﷺ لذلك كان الرسول ﷺ أكبر قدوة للبشرية في تاريخها الطويل وكان مربياً ربانياً وهادياً بسلوكه الشخصي قبل أن يكون بالكلام الذي ينطق به سواء في ذلك القرآن المنزل وحديث الرسول فأين نحن اليوم منه؟ ، وأين كثير من الناس الذين يأمرون من تحتهم بأمر هم بعيدون كل البعد عنها؟

فحري بأهل السنة وأتباع السلف أن يقتدوا بسلفهم، وأن يكونوا ربانيين، نسأل الله أن يمن علينا وعليكم، وأن يصلح أحوال المسلمين، وأن يهيئ لهم علماء ربانيين، يبصرون بنور الله تعالى، ويهدون بهدي نبيه ﷺ ، نصر الله هذه الأمة العظيمة وأعاد لنا أمجادنا المجيدة ليس بأيدي أناس يدعون إلى الذل والهوان إنما بأيدي رجال وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) ﴾ سورة آل عمران.

ووصفهم رسول الله ﷺ في حديث بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قَالَ : ((أَنْتُمْ مُتَمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ)) وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ .

هذا والله تعالى أسأل أن يجعلني وإياكم من الربانيين والربانيات وأن يجعل عملي هذا صالحًا، ولوجهه خالصًا، وأستغفر الله تعالى من ذنبي، ربنا اغفر لي، ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه الأمين، والله أعلى وأعلم.

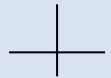
جمع وترتيب

راجي عن ربه المجيب

أبو أيمن

أحمد بن محمود بن إبراهيم الديب

عاشوراء ١٤٤٠ هـ



كتب للمؤلف طبعت

- ١ - فتح المجيد رسالة في علم التجويد.
- ٢ - الرقي الشرعية بالقرآن والأدعية النبوية.
- ٣ - إعلام الساجد برسالة المساجد.
- ٤ - العلاج القرآني والطبي من الصرع الجني والعضوي.
- ٥ - سلسلة الإسلام منهج حياة - سبعة أجزاء - طبع أربعة.
- ٦ - سلسلة المناسبات الإسلامية - العقيدة -.
- ٧ - دفع البلايا والشور بالتحلي بعشرة أمور.
- ٨ - الهجرة والمهاجر دروس لكل حائر.
- ٩ - الوصية الشرعية.
- ١٠ - تنوير الأفهام بوجوب صلة الأرحام.
- ١١ - السر في حياة الفرد والأمة من الكتاب والسنة.
- ١٣ - الردود الخمسة الجليلة على أخطاء كتاب السنة النبوية.
- ١٤ - من هم الربانيون؟
- ١٥ - التعايش في الإسلام.
- ١٦ - رهن الأبناء بعقيدة يؤديها الآباء.
- ١٧ - مهارات تعديل السلوك.
- ١٨ - تحصينات الليل والنهار بالأدعية والأذكار.
- ١٩ - أصول رواية حفص.
- ٢٠ - الفتوى بغير علم.
- ٢١ - التأديب بالضرب بين الإيجاب والسلب.

كتب للمؤلف لم تطبع

- ١ - أحكام الطهارة من النجاسات في الثوب والبدن والمطعمات .
- ٢ - علاقة العبد بأسرته .
- ٣ - الأهداف الشرعية للحياة الزوجية .
- ٤ - هذه عقيدتنا .
- ٥ - معركة الحجاب .
- ٦ - التعامل مع المخالف .
- ٧ - توجيهات أسرية في النشوز والخلع والرجعة .
- ٨ - هذا تأويل رؤيائي .

